المشروع القومى للترجمة

المركز القومى للترجمة

كيف خسرت إسرائيل

أربعة أسئلة تبحث عن إجابة

تأليف: ريتشارد بن كرامر

ترجمة وتقديم: ناصر عفيفى

1802

لقي كتاب "كيف خسرت إسرائيل" بعض المعاملة الخشنة، على الأقل في أمريكا، حيث تم تصنيفه على أنه معاد لإسرائيل. ومن المثير ملاحظة أنني لم أنل الكثير من النقدً من جانب الإسرائيليين، فنحن على الأقل نستطيع الاتفاق على الحقائق، ولكن الصهاينة الأمريكيين الذين لا يشغلون أنفسهم بالحقيقة (ودون أن يكلفوا أنفسهم عناء قراءة هذا الكتاب) رأوا فيه مؤامرة دنيئة لتشويه الدولة اليهودية. غير أنني أعتقد أن معظم القراء يدركون أن ما أناشد إسرائيل أن تفعله يمثل أفضل فرصة لها من أجل مستقبل السلام. إنني أريد أن يعيش أطفالها والأطفال الفلسطينيون حياة بلا خوف. ما أريده هو بالتحديد ما خسرته إسرائيل، معيشة أفضل مفعمة بالحياة لشعبها، وهذه رؤية قريبة جداً من رؤية مؤسسي الأمة، ولا أعتقد أن هناك ما هو أفضل من ذلك.

ريتشارد بن كرامر

تصميم الغلاف: محمد

كيف خسرت إسرائيل

أربعة أسئلة تبحث عن إجابة

كيف خسرت إسرائيل

أربعة أسئلة تبحث عن إجابة

تأليف: ريتشارد بن كرامر

ترجمة وتقديم: ناصر عفيفى

2011

ابن كرامر، ريتشارد.
كيف خسرت إسرائيل: أربعة أسئلة تبحث عن إجابة/ تأليف: ريتشارد بن كرامر: ترجمة: ناصر عفيفي. ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١.
٢٥٦ ص ؛ ٢٤ سم. ـ (المركز القومى للترجمة)
تدمك ٦ ٩٦٧ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القضية الفلسطينية.
٢ ـ اليهود والعرب.
أ ـ عفيفى، ناصر. (مترجم)
رقم الإيداع بدار الكتب ١٥٧٨٤/ ٢٠١١
I. S. B. N 978 - 977 - 421 - 967 - 6
ديوى ٣٤١,٥

المحتويات

تقديم المترجم

كيف خسرت إسرائيل؟ هل خسرت بالفعل؟ وماذا خسرت؟ يرى المؤلف أن إسرائيل خسرت بالفعل. نعم خسرت قضيتها، وخسرت تعاطف الرأى العام العالمى الذى كان يقف إلى جانبها فى السابق، وخاصة فى الولايات المتحدة وأوروبا، خسرت قضيتها عندما لم تراع التطورات المحلية والعالمية. إن إسرائيل لا يمكنها أن تحتمل خسارة معركة واحدة، بينما العرب يمكنهم ذلك، وقد خسرت إسرائيل هذه المعركة بالفعل فى عيد الغفران أو يوم كيبور، أو فى يوم أسود لم تطلع له شمس، ولكن المحصلة أنها خسرت هذه المعركة، وكان لا بد لها أن تدفع الثمن. ولكنها كالعادة ماطلت وحاولت أن تحافظ على أكبر قدر من الغنائم التى حصلت عليها من قبل، مثل لاعب شطرنج غشيم يحاول الحفاظ على مكاسبه فيسوء موقفه، وكلما حاول الحفاظ على ما يظن أنه غافل خصمه من أجل انتزاعه منه، غاصت قدماه أكثر فى الرمال المتحركة حتى أوشكت على ابتلاعه.

خسرت إسرائيل قضيتها التى أوهمت العالم بعدالتها من خلال الدعاية الصهيونية، ورحلات الترويج والتفسير والتبرك بالأراضى المقدسة التى كانت تنظمها لمناصريها السذج فى أوروبا وأمريكا الذين انساقوا وراء "الهاسبرا" لزيارة أرض الأنبياء، ورؤية وعد الله يتحقق من خلال عودة اليهود إلى أرض الميعاد، مما يبشر بقرب عودة المسيح. هاهم اليهود المساكين الضحايا الذين يريد العرب إلقاءهم فى البحر، بعد الويلات التى تعرضوا لها على يد النازى، وبعد أن نجوا من محارق الهولوكوست، يقيمون دولتهم اليهودية المعترف بها من قبل الأمم المتحدة بعد أن سحقوا أعداءهم فى حرب الاستقلال. تلك كانت صورة إسرائيل

فى السابق، قبل أن يصبحوا دولة محتلة، تحتل أراضى الغير بالقوة فى حرب الأيام الستة، حيث احتلوا سيناء ومرتفعات الجولان والضفة الغربية وغزة، وقبل أن يخسروا المعركة التى لا يطيقون خسارتها، لأنها حطمت كبرياءهم وصلفهم وأوهامهم، لأن إسرائيل دولة تعيش على الوهم.

خسرت إسرائيل قضيتها عندما بدأت سياسة هدم البيوت وضم الأراضى والاغتيالات والتمييز العنصرى، وأصبحت تباهى بها على نحو علنى. ربما كانت تمارس ذلك من قبل، ولكن ليس على هذا النحو من العلنية والتبجح والاستهانة بكل القيم الأخلاقية والمعايير والقوانين الدولية. لم تحترم إسرائيل التغيرات الإقليمية ولا المحلية ولا الدولية، وأصبحنا نرى للمرة الأولى مشاهد كان من المستحيل أن نراها من قبل على شاشات التلفاز، بيوت مهدمة على رءوس أصحابها وجثث الأطفال الفلسطينيين متناثرة، والجيش الإسرائيلى يسحل المواطنين فى الشوارع، ويمنع المواطنين من الصلاة فى المساجد، ويقوم بعمليات الاغتيال القذرة جهارًا نهارًا دون رادع. وفى المقابل نرى ولأول مرة أيضًا مناصرين للشعب الفلسطينى من الأوروبيين والأمريكيين يقودون المظاهرات فى الأراضى المحتلة، ويسدون بأجسادهم طريق الجرافات وهى فى طريقها لهدم البيوت. ولعل قافلة الحرية التى نظمتها منظمات تركية واشترك فيها ناشطون من جنسيات أخرى، والتى كانت تحاول كسر الحصار المفروض على غزة، وما صاحبها من هجوم وحشى إسرائيلى على المدنيين العزل فيها أدى إلى سقوط قتلى وجرحى أمام أعين العالم المتحضر وغير المتحضر أيضًا، خير مثال على ذلك. خسرت قضيتها عندما تركت المجتمع الذى زعمت أنه يهودى يسقط تحت وطأة التشدد والتطرف الدينى، ويتحول إلى قبائل متنازعة من اليهود الشرقيين والغربيين والروس والعلمانيين، تحاول كل منها انتزاع قطعة من لحم الدولة أكبر من تلك التى انتزعتها القبيلة الأخرى، على نحو أفقدها السلام فيما بينها، فكيف تمنح السلام للفلسطينيين وفاقد الشىء لا يعطيه كما يعلم أى طالب فى المرحلة الأولى الابتدائية؟

خسرت قضيتها لأنها تريد أن تحصل على كل شىء، ولا ترغب فى التخلى عن شىء، إنها تريد الأرض كما تريد السلام، ذلك السلام الذى لا تملكه. إنها دولة تعيش على شيئين، ألا وهما الوهم والصراع. الوهم بأنها دائمًا الضحية، أو لا ترغب فى أن تكون ضحية، وتوهم أنها أعطت للفلسطينيين دولة ولكنهم رفضوها، ولكنها لا تدرك أن العالم سرعان ما اكتشف الأكذوبة، إنها دولة تحتفظ فيها إسرائيل بالمستوطنات والطرق التى تؤدى إلى المستوطنات والجنود الذين يحرسون المستوطنات وتسيطر فيها على الجو والبر والبحر. ولا يجوز أن يمر فيها الفلسطينيون بلا تصريح منهم، أى إنها أشلاء دولة بلا سيادة وبلا شرف وبلا كرامة، وكأنك تضع حجرة نومك فى ميدان التحرير، ضعف الطالب والمطلوب. خسرت إسرائيل قضيتها عندما فشلت فى إدراك مدى أهمية الشرف والكرامة لدى العربى أو الفلسطينى بالطبع. فهو يمكن أن يضحى بأى شىء، حتى لو كان حياته، فى سبيل الدفاع عن شرفه وكرامته، وربما لو أدركت ذلك لكان من السهل عليها العمل على تحقيق السلام، لو وجدت من بين قبائلها المتناحرة من لديه الرغبة أو القدرة على تحقيق السلام.

ناصر عفيفى

القاهرة فى ٢٠١٠/٦/٢٤

HYPERLINK "mailto:nasser4@hotmail.com"
nasser4@hotmail.com

مقدمة

كم أنت كريم يا الله، لقد أرسلت ياسر عرفات إلى باريس لكى يموت هناك. وقد خلفه محمود عباس، رئيس الوزراء السابق والعدو اللدود للتفجيرات الانتحارية، قائدًا لمنظمة التحرير الفلسطينية ورئيسًا للسلطة الفلسطينية. وفى غضون أيام قلائل، أعلن أبو مازن - كما يكنى محمود عباس - وقف الهجمات ضد الإسرائيليين. كما أمر قوات الأمن التابعة له بالتصدى للقائمين بها، ونحى جانبًا القادة الذين فشلوا فى فعل ذلك. والتقى قادة الجماعات الإسلامية المتطرفة حيث نجح فى الحصول على وعد منهم باحترام وقف إطلاق النار. وخلال بضعة أسابيع، اجتمع عباس مع أرييل شارون حيث أعلنا الهدنة.

كان تصويت الفلسطينيين لعباس تشبثًا بأهداب الأمل. وكان الشعب الفلسطينى على قناعة (كما هو معروف عنه دائمًا) بأن الحياة مع الإسرائيليين يمكن أن تكون شيئًا مختلفًا، شيئًا أفضل من أن يقتلك الآخر أو تقتله. ومنح هذا التأييد الواضح لعباس من قبل الغالبية العظمى للشعب الفلسطينى، اليد العليا لكى يضع تلك الهدنة موضع التنفيذ.

كانت هناك صورة مماثلة من الأمل على الجانب الإسرائيلى، من قبل ساسة وقطاعات من الشعب تؤيد خطة شارون للانسحاب الإسرائيلى من غزة. وأدى هذا التأييد من قبل أغلبية واضحة إلى مساعدة شارون على الصمود فى وجه رفض الخطة من قبل حزبه.

وكما كتبت فى ربيع عام ٢٠٠٥ كان أمام الطرفين طريق طويل للوصول إلى اتفاقية سلام - على غرار تلك الرؤية التى صاغها جورج دبليوبوش: دولتان تعيشان جنبًا إلى جنب فى سلام. وكانت خطة شارون للانسحاب من غزة محاولة واضحة لإبقاء تلك الرؤية على قيد الحياة. وقد واصل الإسرائيليون بناء حائطهم، مصادرين المزيد والمزيد من الأراضى الفلسطينية. وكانت حركتا حماس والجهاد الإسلامى تكرسان نفسيهما لتدمير إسرائيل، حيث إن احترامهما للهدنة هو، فى أفضل الأحوال، مجرد أمر مؤقت. وعلى نحو متكرر، كان يتم انتهاك وقف إطلاق النار ، حيث بدد انفجاران انتحاريان السكون فى إسرائيل، وقام جنود إسرائيليون بقتل العديد من الأطفال الفلسطينيين. ولكن مع ذلك، ظلت الهدنة قائمة، وكذلك الأمل.

فى هذا المكان، لا يمكن تجاهل الأمل. إنه نفيس وهش فى الوقت نفسه، مثل زهرة برية نبتت فى ألاسكا، معجزة بسبب الصعوبات التى عانتها لكى تتفتح، وهى فريسة الآن لأية معاملة قاسية يمكن أن تقضى على حياتها. ولكنها لا تزال جميلة، ويجب أن نقدرها حق قدرها.

إننى أعلم أنى لا أرغب فى تكوين أصدقاء جدد من خلال التأكيد على أن شارون يخرب عملية السلام. فالأمر الأكثر شعبية هو اعتباره، تمامًا كما يفعل جورج بوش، رجل السلام العظيم (الذى يسعى لتحويل الرؤية العظيمة الخاصة بإنشاء دولة للشعب الفلسطينى إلى حقيقة واقعة). ولكن الحقائق تستعصى على التفسير تمامًا مثل أرييل شارون. وعلى ذلك، هناك القليل الذى يجب وضعه فى الاعتبار:

إن سحب بضع مئات من العائلات المستوطنة، وآلاف من الجنود الذين يقومون بحمايتهم، كان دائمًا محل تقدير قادة الجيش. وكانت عبقرية شارون تتمثل فى الجمع بين هذه الخطة العملية والتأكيد بما لا يدع مجالاً للشك على أن المستوطنات الكبرى بالضفة الغربية التى يقيم فيها مئات الآلاف من الإسرائيليين، يجب أن تعتبر من الآن فصاعدًا أرضًا إسرائيلية. وتم تصوير الانسحاب من غزة على أنه خطوة على طريق السلام (بل قفزة على طريق السلام!). لم يتطرق أحد إلى النصف الآخر من الخطة.

ابتلع جورج بوش طعم غزة مثل سمكة قاروس فى أحد أيام الآحاد المباركة على ضفاف إحدى بحيرات تكساس. كان بوش يرغب فى أن يحدث شيئًا ما جيدًا فى الشرق الأوسط ، حتى لو كان هذا الشىء قد يكون جيدًا، أو يبدو جيدًا، أو ربما يصبح جيدًا. وعلى الفور قلب خمسة وثلاثين عامًا من السياسة الأمريكية تجاه إسرائيل رأسًا على عقب وأعلن أن كل المستوطنات الكبرى يجب أن تعتبر جزءًا لا يتجزأ من أرض إسرائيل.

وعلى ذلك، مقابل ثمن بخس. حفنة من مزارع الطماطم التى يتعذر الدفاع عنها على رمال غزة غير التاريخية. حصل شارون على المباركة لتنفيذ كل مخططات أسلافه الغابرين. لقد نال مبتغاه دون أن يضطر إلى ممارسة المهمة البغيضة إلى قلبه ألا وهى التحدث إلى الفلسطينيين. فلم يستشاروا. والواقع أن شارون قد حصل أيضًا على مباركة بوش بأن الفلسطينيين لا يمكن استشارتهم إلا بعد أن يتم وضع نهاية واضحة للإرهاب. ومن وجهة نظر شارون (وبوش)، فهذا يعنى أن يقوم محمود عباس المسكين بشن حرب أهلية على الجماعات الإسلامية المتطرفة ويظفر بها. هذا هو الحد الأدنى المطلوب لكى تستأنف المباحثات.

لا يوجد أحد أكثر فصاحة فى موضوع انتصار شارون من مستشاره الأول وصديقه وكاتم أسراره ومحاميه (وقناته السرية مع الأمريكيين) دوف فيسجلاس. والواقع أن فيسجلاس لا يستطيع أن يدرك لماذا لا يقوم المستوطنون والجناح اليمينى بالرقص فى الشوارع حول مكتب رئيس الوزراء ابتهاجًا بما فعل. إنهم لم يفهموا الإنجاز الذى قام به شارون. (ومن حسن حظ شارون أن اليسار لم يدرك ذلك أيضًا ومنحه دعمًا حاسمًا فى الوقت الذى صوت فيه حزبه ضده).

وفى لقاء مع صحيفة هاآرتس، أعلن فيسجلاس أن "فك الارتباط مع غزة هو بمثابة العازل الذى سوف يحول دون حدوث أية عملية سياسية مع الفلسطينيين. لأن ما اتفقت عليه بالفعل مع الأمريكيين هو أن هذا الجزء الخاص بالمستوطنات لن يتم التطرق إليه على الإطلاق، والباقى لن يتم التعامل معه إلا بعد أن يرضخ الفلسطينيون. من هنا تأتى أهمية ما فعلنا، وهذا يتمثل فى تجميد العملية

السياسية، وعندما تجمد تلك العملية، فأنت تمنع إقامة دولة فلسطينية، وتحول دون مناقشة قضايا اللاجئين والحدود والقدس. فالواقع أن الحزمة بأكملها التى تسمى الدولة الفلسطينية، بكل ما تحتويه، قد أزيلت من أجندتنا. كل ذلك قد حدث بسلطة وتصريح، حدث كله بمباركة رئاسية وموافقة مجلسى الشيوخ والنواب. ما الذى يمكن توقعه أكثر من ذلك؟ ما الذى يمكن منحه للمستوطنين أكثر من ذلك؟".

واحسرتاه، ها هو عباس غارق فى المتاعب حتى أذنيه، فالمفترض أن يمارس سلطته بكل وحشية، الأمر الذى لا ترغب فيه الولايات المتحدة بالنسبة لأى شعب آخر. لقد ورث، على هيئة قوات أمن، نحو دستة ونصف دستة من الميليشيات، إنها جيوش خاصة موالية لقادة الفصائل ولكن ليس للسلطة المركزية. وقد قسمها إلى ثلاث قيادات مركزية، مما ضمن له إهانة نحو دستة من قادة الفصائل. وقد تعرض المبنى الكائن به مكتبه شخصيا إلى إطلاق النار من قبل بعض متشددى كتائب شهداء الأقصى، التى من المفترض أنها الوحدة الانتحارية لحزبه. إن شعبه فى أمس الحاجة إلى الغوث والخدمات على نحو يكاد يصل إلى درجة اليأس، ولكن عباس لا يملك وسيلة إمدادهم بها، فهى مخصصة لعصبة من اللصوص أسماهم عرفات "الحكومة".

ولكن كانت هناك بعض الأخبار الطيبة على الجانب الفلسطينى، أخبار طيبة لم تنتشر على نحو موسع. لقد تم تنصيب عباس رئيسًا من خلال الانتخاب، وفى الوقت نفسه كان هناك حماس كبير وبعد ذلك احتفال عظيم بالانتخابات العراقية - معجزة، كما أطلق عليها - انتخابات حرة ونزيهة فى العالم العربى. ولكن، على نحو غير ملحوظ، توجه الفلسطينيون فى هدوء إلى صناديق الانتخابات وانتخبوا زعيمًا هادئًا، بتفويض واضح من أجل استعادة الهدوء. (على النقيض من الزعم الإسرائيلى القائل بأن الفلسطينيين لا يستطيعون حكم أنفسهم).

جانب آخر من أنباء الانتخابات الفلسطينية أصابنى بالصدمة على الرغم من أنه عاوننى على إدراك الأمر، ففى الانتخابات المحلية لم تشارك حماس،

الجماعة الإسلامية الرائدة، فقط ولكنها قدمت مرشحيها. لقد أبلوا بلاء حسنًا، وتم انتخاب مسئولين محليين منهم فى سبع دوائر من عشر أجريت فيها الانتخابات. وبدا أنه من الممكن أن تتحول حماس إلى حزب سياسى شرعى، فلا شىء يجعل الإنسان مسئولاً أكثر من التصدى للعمل اليومى. والآن فإن رجال حماس هم من سوف يطالبون بإعادة الأمور إلى نصابها أو بالتخلص من تلك الرائحة العفنة.

إننى وأنا أتمسك بهذا الأمل على صفحات كتابى هذا، أرى غالبًا البعض الذين يبددونه، حيث لا يستطيعون اعتبار حماس سوى عصابة من الإرهابيين القتلة. إنهم يشيرون إلى أن حماس لا تعمل من أجل "دولتين تعيشان جنبًا إلى جنب فى سلام". بل إنها تعمل من أجل تدمير إسرائيل وإلقاء اليهود فى البحر. وكل ذلك صحيح، أعترف بذلك صراحة. ولكن الناس يتغيرون، وكذلك الأحزاب، وسوف أقدم مثالاً على ذلك من المنطقة.

كان مناحم بيجن قائدًا لجماعة نشيدها الوطنى يقول: هناك ضفتان لنهر الأردن، هذه الضفة ملكنا، والأخرى أيضًا لنا. وكانت ميليشيا تلك الجماعة تعتبر منظمة إرهابية، وارتكبت أول مذبحة ضد العرب فى التاريخ الإسرائيلى. وحتى عندما تحولت إلى حزب سياسى، كان رمزه عبارة عن يد تحمل بندقية، مصحوبًا بشعار عبرى يقول: "هذا فقط هو الطريق". ولكن بيجن هذا هو من ذهب لكى يبرم المعاهدة التاريخية مع مصر (والأردن!). وحصل على جائزة نوبل للسلام.

ملاحظة أخرى حول رد الفعل تجاه هذا الكتاب. لقى كتاب "كيف خسرت إسرائيل" بعض المعاملة الخشنة، على الأقل فى أمريكا، حيث تم تصنيفه على أنه معاد لإسرائيل. ومن المثير ملاحظة أننى لم أنل الكثير من النقد من جانب الإسرائيليين، فنحن على الأقل نستطيع الاتفاق على الحقائق. ولكن الصهاينة الأمريكيين لا يشغلون أنفسهم بالحقيقة (ودون أن يكلفوا أنفسهم عناء قراءة هذا الكتاب) رأوا فيه مؤامرة دنيئة لتشويه الدولة اليهودية.

ولكننى أعتقد أن معظم القراء يدركون أن ما أناشد إسرائيل أن تفعله يمثل أفضل فرصة لها من أجل مستقبل السلام، إننى أريد أن يعيش أطفالها والأطفال الفلسطينيون حياة بلا خوف. إن ما أريده هو بالتحديد ما خسرته إسرائيل، معيشة أفضل مفعمة بالحياة لشعبها. إنها رؤية قريبة جدا من رؤية مؤسسى الأمة، إننى لا أعتقد أن هناك ما هو أفضل من ذلك.

ريتشارد بن كرامر

أبريل ٢٠٠٥

الفصل الأول
لماذا نهتم بدولة إسرائيل؟

لماذا نهتم بدولة إسرائيل؟ ذلك الشريط الرفيع من الأرض الواقع على الشاطئ الشرقى للبحر المتوسط، الأمة التى فى بعض مناطقها لا يزيد عرضها على عشرة أميال. بإمكانك قطعها بالسيارة من شمالها إلى جنوبها فى نصف يوم، هذا إن لم تعلق خلف عجوز بولندى يجاهد للرؤية من خلف مقود سيارته الأولى - بسرعة اثنين وثلاثين ميلاً فى الساعة - مستغلاً كل مواهبه فى البقاء على قيد الحياة. فى الواقع، إن اهتمامنا لا بد أن ينصب على هذا الناجى اليهودى بطىء القيادة، أكثر من تركزه على الأرض التى يقود السيارة فوقها. حتى لو حسم العالم القضية غداً وأهدى اليهود أو العرب كل قطعة من الأرض فى فلسطين، وكل تل، وكل كرمة عنب، وكل شجرة زيتون، وكل منزل حجرى قديم، وكل ذرة غبار من الأرض التى وقع فوقها القتال مائة عام، فإن كل ما سيُمنح، لن يعادل فى حجمه ـ سواء من حيث خصوبته أو الثروات الطبيعية التى يتمتع بها ـ ربع مقاطعة بالكونغو.

لا، إنها ليست بالمكان الثرى، ولا بالدولة العريقة خلال وجودها نيفًا وخمسين عاما، حيث يبدأ مؤرخوها ومنظروها تاريخها منذ الأزمان القديمة المذكورة فى الكتاب المقدس؛ لإضفاء هالة من الخلود، والقوة، والاستمرارية عليها، ولكن هناك قصة أخرى يسميها الصهاينة: "الحقائق الموجودة على الأرض". فهناك آلاف المنازل التى ترجع سجلاتها إلى بضعة وخمسين عامًا، ثم لا نعرف عنها أى شىء قبل هذا التاريخ، كأنها شاشة لفيلم انتهى على آلة عرض وأخذت البكرة تدور حول نفسها عارضة سوادًا ثابتًا على الشاشة. هذه هى ممتلكات "الغائبين"، العرب الذين فروا أو أُخرجوا من ديارهم فى غمار حرب ميلاد

إسرائيل عام ١٩٤٨ لكن هناك الآلاف من العجائز فى مخيمات اللاجئين ممن قد يرونك مفاتيح بيوتهم، تلك التى سيورثونها لأبنائهم مكافأة وعبئًا فى الوقت نفسه. وهناك المحاربون اليهود القدامى، الذين يوضح حماسهم المتقد سبب فرار العرب. وفى زيارة بحثية لى عام ٢٠٠٢ تشرفت بمصاحبة إسحق بونداك فى جولة بأراضى صحراء النقب القديمة التى دارت فيها المعارك، وهو قائد من قواد حرب ١٩٤٨، سار بى من جسر القطار المحطم، وحول مكامن قناصة إسرائيليين، وعبر مواقع المدفعية المصرية، ومن حين لآخر كان يحدقنى بنظرة فاحصة من تحت حاجبيه الفضيين ويسألنى بسنوات عمره التسع والثمانين: "هل مشينا كثيرًا؟ هل تحتاج إلى الراحة؟"

إننا لم نهتم أبدًا بإسرائيل من حيث تأثيرها السياسى، فهى لم يكن لها أبدًا ناقة ولا جمل فيما سماه بوش الأب النظام العالمى الجديد. وفى الأمم المتحدة - على سبيل المثال - لا يمكنك الخروج عن المألوف للحصول على دعم إسرائيل إلا إذا كنت لسبب تكتيكى غريبًا تحتاج إلى وقوف الأغلبية الساحقة من دول العالم الثالث ضد قرارك. وأيا كان موقف إسرائيل، فإن معظم دول العالم تعارضه. وهذه إحدى الحقائق القليلة التى يعتنقها كل من اليهود والعرب وهم مرتاحو الضمير. وينظر الفلسطينيون إلى ضآلة شعبية إسرائيل دليلاً على سلامة موقفهم وعدالة قضيتهم (تمت سرقتهم! إنهم ضحايا! حقوقهم لا بد أن تعود!) ويرى فيها اليهود تأكيدًا على حقيقة راسخة: العالم كله ضدنا أيا كان ما نفعله.

فى العالم العربى، حيث تحظى نظرية المؤامرة بشعبية أكثر من تلك التى يحظى بها الإسلام (حيث توفر الأديان الراحة العقلية، وترسخ فى العقول فكرة أن لا شىء يحدث دون سبب ما)، من المعتاد أن تراهم ينظرون إلى الغرب على أنه يدعم إسرائيل - خاصة الدعم الأمريكى - دليلاً على خطة كبرى تنسج خيوطها سعيًا للسيطرة على العالم. ومن المفترض أن إسرائيل نوع ما من (مسمار جحا) لأمريكا فى المنطقة، تلك التى تحتوى ثروة العالم من البترول. وهناك مشكلتان فى هذا النوع من النظريات: الأولى هى أن المعمرين فى المنطقة قد شهدوا تدخلات، وادعاءات، ومضايقات من جيلين من "الخبراء الأمريكيين فى شئون الشرق الأوسط": مفاوضين رئاسيين خصوصيين، ونواب وزراء خارجية، وسفراء

إقليميين، وموفدين ذوى سلطات مطلقة، ويمكن أن يتجمد الجحيم ويصير ثلجًا قبل أن يسيطر هؤلاء القوم على أى شىء، وهم نوعية من البشر قد لا تستطيع أن تأتمنهم على تغيير إطار سيارتك. المشكلة الثانية مشكلة ضمنية: لا يستطيع أحد أن يفسر كيف يؤدى دعم أمريكا لإسرائيل إلى الإسهام فى فرض سيطرتها على بترول الشرق الأوسط. فأحيانًا تكون هذه المساعدة عقبة أمام شراء هذا البترول.

ومن المعتاد أيضًا بالنسبة للعرب (ولبعض اليهود أيضًا) شجب ذلك الكيان الذى يتحكم فى السياسة الأمريكية كخيط رفيع من الفولاذ، والذى يطلقون عليه (تبعًا لمن يتحدث) اللوبى الصهيونى، أو منظمة "إيباك"(aipac لجنة الشئون العامة الأمريكية الإسرائيلية) أو رجال الأعمال اليهود، أو مافيا هوليود. أو على نحو أكثر بساطة وغموضًا: المصالح اليهودية. وأيا كان ما يطلقونه على هذا الكيان، فهم يستعملونه فى تفسير سبب عدم سماع أو تذكر أو اهتمام الشعب والحكومة الأمريكية بمصائب الفلسطينيين العرب الذين خسروا بلدهم عندما استولى عليه اليهود. فى هذا النوع من "التحليل" يعتقد أن رجال الكونجرس والرؤساء الأمريكيين (أيا كانت أسماؤهم أو أحزابهم أو مقاطعاتهم) يقفزون إلى دائرة الاهتمام عبر تحية علم إسرائيل، كلما استعرض اليهود تهديداتهم، أو لوحوا بدفتر شيكاتهم المتخم. وهذا أيضًا هراء.

ولكن بأية وسيلة يتحكم هؤلاء اليهود الأمريكيون فى العالم؟ بقدرتهم الهائلة على التصويت التى تصل إلى اثنين بالمائة من الشعب الأمريكى. (كانت ثلاثة بالمائة لكن يبدو أنهم لم يستطيعوا الالتقاء معًا لإنجاب أطفال يهود). وها نحن الآن، نجد أن اليهود أقل التجمعات تماسكًا. فأطفال الديمقراطيين يصبحون أكثر ثراءً، وأكثر ميلاً للجمهوريين (تماما مثل الرجال البيض)، وأبناؤهم - أطفال اليهود اليوم ـ فى حالة يمكن أن نطلق عليها لا مبالاة. ومن زعموا أن بوش الابن قد شن الحرب على العراق خضوعًا لرغبة إسرائيل (يسوقه ـ كما قال نصفهم ـ نائب وزير الدفاع بول وولفويتز، اليهودى المعروف صاحب السلطان) قد فشلوا فى ملاحظة أو الإشارة إلى أن منظمى المظاهرات الكبيرة المناهضة للحرب كانوا أيضًا من اليهود، أولئك الذين فجروا معارضة واسعة

النطاق ضد الإمبريالية بواسطة خطاب نجم حركة الكيبوتس الراديكالية نعوم تشومسكى (إنهم فى كل مكان!)، والقول بأن بوش عليه أن يرقص ليحصل على المال اليهودى يتجاهل الكثير من الحقائق التى لا يمكن حصرها كلها. أولاً وهى الأهم: إن بوش الحالى ـ لأنه موجود فى البيت الأبيض ومناصر للأعمال التجارية. يمكنه الحصول على الملايين التى يحتاجها، أو يحلم بها أو يرغب فيها لصالح إعادة انتخابه. إن المال اليهودى الذى يتحدثون عنه يأتى من هوليود، حيث عقيدتهم الوحيدة هى كراهية بوش. وحتى اليهود الأقل ثراءً فى وول ستريت يبدون وكأنهم حفنة من المشردين مقارنة بمساندى وأصدقاء بوش من رجال البترول الذين يرغبون فى سقوط إسرائيل على وجه السرعة حتى يلتهموا العرب بتلذذ حتى آخر قضمة.

فلو كانت لجورج دبليو بوش أية مصلحة ناجمة عن الاهتمام بإسرائيل، أو محاولة مساعدة إسرائيل، فإنها لا تأتى من اليهود. (أيا كان ما يقوله أو يفعله الرئيس بشأن إسرائيل، فهناك جماعة من اليهود يلقبونه بالنازى). إن المكسب السياسى الوحيد الملموس والمهم الذى يمكنه الحصول عليه يأتى من مسانديه المسيحيين. فاليمين الأمريكى المسيحى يؤمن بأن اليهود يجب أن ينالوا الأرض المقدسة، فى المقام الأول لأن الكتاب المقدس ذكر ذلك. يقول الكتاب المقدس أيضاً، إن المجىء الثانى للمسيح يتطلب "تجمع" اليهود مرة أخرى على أرض صهيون، الأمر الذى يؤدى إلى نشوب معركة أرمجدون، التى تؤدى إلى عودة المسيح. كما أن هناك التقاء سياسيًا للأفكار، يعود إلى الأيام التى رأى فيها اليمين المسيحى فى اليهود الحصن الحصين "للقيم اليهودية المسيحية" الشجاعة المضادة للسوفييت (ومؤخرًا المضادة للإسلام).

ومن المثير للدهشة أن ذلك السبب الغامض الأخير هو الأقرب إلى الإجابة على سؤال "لماذا نهتم بإسرائيل؟" فمن هذا المنطلق لا توجد مصلحة منطقية لنا من ناحية السياسة العملية، سواء على المستوى الدولى أو على مستوى الحملات الانتخابية داخل أمريكا. فلا يوجد لوبى أو جماعة فى الولايات المتحدة قادرة على الضغط على الحكومة لجعل إسرائيل المتلقى رقم واحد للمعونة الأمريكية ـ ثلاثة مليارات دولار كل عام بالإضافة إلى مليارين ضمانات قروض ـ هذا قبل

أن نبدأ فى إضافة المعونة العسكرية الخاصة، والمعاملات التجارية الخاصة، وغيرها من الصفقات السرية. إن الدولة الوحيدة القريبة من إسرائيل فى هذه المعاملة هى مصر، فنحن ندفع لها مليارين من الدولارات للتصرف وكأنها لا تكره إسرائيل. إن نصف مساعدة الولايات المتحدة المالية للعالم تتدفق على أرض تبلغ مساحتها بضع مئات من الأميال حول تل أبيب (حتى تخضر الصحراء). ولا يجب قياس مصالحنا بالدولارات فقط. هناك أيضًا مسألة الاهتمام الذى نوليه. فلابد أن ننفق أكثر من خمسة مليارات دولار كل عام على الجرائد والسى إن إن. وهناك تحليلات لا نهائية فى المجلات الشهرية، وفى جريدة **النيويوركر**، وعرض جريدة **النيويورك** للكتب، ومجلة السياسة الخارجية الربع سنوية، وليس من قبيل المصادفة (وليس دون تأثير أيضًا) أن نجد جريدة النيويورك تايمز تغطى ما يحدث فى القدس أفضل من تغطيتها لما يحدث فى جزيرة ستاتين فى نيويورك ذاتها، أو كيف تستجيب ريدبوك المجلة النسائية لقرائها وخوفهم من الإرهاب بنشرها لمقال كتبته أم تعيش فى إسرائيل (التى تصادف كونها رئيسة مكتب إيباك aipac ـ لجنة الشئون العامة الأمريكية الإسرائيلية ـ فى القدس). الحقيقة أن إسرائيل تبيع جيدًا. لقد بعنا أنفسنا من أجل إسرائيل. لماذا؟ لأننا بطريقة ما كلنا مثل هؤلاء المسيحيين الذين يرون أن هناك قيما مشتركة بيننا وبين إسرائيل. فلعقود من الزمان، أخذنا نقرأ ونتحدث عن إسرائيل، وساندنا إسرائيل، ودفعنا الأموال لإسرائيل حتى يعيش مواطنوها على أعلى مستوى، لأننا نفترض على نحو ما أنهم مثلنا.

الإسرائيليون ـ وهم ليسوا أغبياء ـ فعلوا ما بوسعهم لتأكيد هذا الانطباع، من تعيين متحدث رسمى باسم الحكومة يتحدث وكأنه نشأ فى ديترويت (وهو من أهل ديترويت بالفعل)، إلى تخصيص بعض الشيكلات الإسرائيلية لجولة عالمية (للعالم الغربى) للفيلهارمونى الإسرائيلى. ومنذ حرب ٤٨ حتى الآن، كان أهم كنز لتلك الأمة الصغيرة هو القصص المثيرة والشجاعة عن الشعب اليهودى، وهو ما أثار تعاطف العالم، ودفع الأمم المتحدة لتأييد إقامة دولة يهودية. وهكذا فإن أول صناعة فى إسرائيل كانت تتمثل فيما أطلق عليه المحللون الهاسباراه، وهو ما يعنى حرفيا: التفسير ولكن دعونا نطلق عليه الدعاية الصهيونية.

ومنذ لحظة صدور قرار الأمم المتحدة القاضى بوقف إطلاق النار الذى أسدل الستار على الحرب الأولى فى ربيع عام ١٩٤٩ أخذ الإسرائيليون العالم فى جولة أشبه بالجولات السياحية. كان المهاجرون الإسرائيليون الجدد يعيشون فى مخيمات من الخيام الرثة، والقوات الجوية مكونة من طائرتين هزيلتين، لكن الحكومة الإسرائيلية اشترت حفنة من تذاكر السفن والطائرات، وحجزت حجرات فى الفنادق واستأجرت بعض الحافلات، لضمان رحلات مجانية للطلبة السويسريين والسويديين، وصناع القرار فى جنوب إفريقيا، والمخيمين الرواد من اليهود القادمين من أمريكا الشمالية، والسياسيين الشباب والصحفيين من كل أنحاء العالم، وبالطبع الأمريكيين الأثرياء (الذين قد يمولون الرحلات السياحية المستقبلية بكرم وافر ذات يوم). كان عليهم أن يصدروا قصتهم إلى العالم، وجذبت صناعة الهاسباراه الأفضل والألمع. لم يكونوا فقط مرشدين سياحيين، ممن يمكنهم بلغاتهم الألمانية أو الدنماركية أو الصربية أو الكرواتية، شرح المعالم السياحية فقط، بل كانوا يقولون لمن يرشدونهم من السائحين أشياء من قبيل: كان الجيش العربى يطلق النيران من فوق هذا التل، هناك! (وساكنو الكيبوتس الفقراء هؤلاء هم من منحونا هذا الغذاء الرائع، وهم يعيشون تحت التهديد كل يوم). كان هناك متحدثون رسميون أيضًا، ومرشدون سياحيون. ومن يرحب بالزوار من كل هيئات الحكومة، ومن كل بلدية، ومن اتحاد العمال القومى (الهستدروت)، ومن هيئة الأراضى الإسرائيلية، ومن الوكالة اليهودية، ممن يصادقون الناس ويشرحون لهم كم أن الإسرائيليين طيبون.

منذ زمن بعيد، شهدت إحدى هذه الجولات بصحبة ما يعرف باسم منظمة الرؤساء الصغار. وسأل سائل سؤالاً صغيرًا مزعجًا: هل سيعوض الإسرائيليون العرب الذين هربوا؟ الواقع أن إسرائيل لا ترغب فى أن تدفع لهم مليمًا، لكن التفسير الذى سمعته كان مراوغًا: "حسنًا، إنه سؤال معقد، هناك لجنة تدرس الطريقة الأكثر عدالة للتعويض. لكن عليك إدراك أن سجلات الأرض مع الأتراك". ومع تحرك الوفد السياحى أخذ رجل الهاسباراه يتحدث إلى من بجانبه، ويعترف له اعترافًا سريا أليمًا: "أتعرف؟ كان عارا كبيرا، لقد رجوناهم

أن يبقوا" . وهذه كذبة مفضوحة تماماً . وفى تلك الليلة على العشاء وجد أن صديقه الجديد من كونيكتيكيت، وسأله: قل لى، كيف الحال مع الهنود الحمر والقضايا التى يرفعونها؟ ألا يدّعون أن نصف أرض الولاية ملكهم؟

أيا كان الموضوع، فالهدف واحد: نحن نبذل كل ما فى وسعنا تحت ضغوط رهيبة. ما شعورك لو كنت مكاننا. لكن الهاسباراه نجحت أكثر مما حلم به الإسرائيليون. ومع قدوم عام ١٩٦٠ ظهر بول نيومان على الشاشة فى فيلم "الخروج" كيهودى بطل يقاتل تحت الأرض، ومعه الجميلة إيفا مارى سانت حبيبته الناجية من الهولوكوست. وهكذا لمع نجم إسرائيل! إذن فقد صارت الرسالة أقوى. ومع نهاية الستينيات وبعد نصر حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ سألوا جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل سؤالاً شائكًا عن حقوق الفلسطينيين، فقالت بحدة: "عم تتحدثون؟ لا يوجد شىء اسمه الفلسطينيون" .

ولكن حدث التحول الجذرى فى السبعينيات، بعد حرب عيد الغفران عام ١٩٧٣ فهذا الهجوم القوى والمفاجئ من جانب جيرانها العرب، ذكر إسرائيل بأن بإمكانهم محوها من على الخريطة. بدت قوات الدفاع المسلحة الإسرائيلية، التى كانت حتى ذلك الوقت تبدو وكأنها لا تقهر، بدت فجأة ضعيفة وعاجزة وفى حاجة إلى المساعدة. تخلت إسرائيل عن كل صلفها السابق ورضيت دون خجل بدورها صديق أمريكا الصغير فى الشرق الأوسط. وأصبحت جزءاً من أى مخطط أمريكى للمنطقة، وعلى نحو عميق لدرجة أنه بدونها لن يصبح لهذا المخطط وجود. وصارت لا يمكن الاستغناء عنها فى هذا المخطط، وكان على القصة التى رسمتها للرأى العام الغربى أن تتغير هى الأخرى.

كان يجب أن يصبح الأمر أكثر من مجرد "إنهم مثلنا" . الآن يريدون منا أن نعرف أنهم "كانوا مثلنا" - أو صامدون من أجلنا - محاصرون، ويفوقهم الأعداء عددًا (ظل هذا الجزء من الهاسباراه كما هو) متعطشون للسلام، لكنهم مصممون على القتال - كما اعتاد سوبرمان أن يقول - من أجل الحق والعدل على الطريقة الأمريكية. كان على رؤيتنا للمكان أن تتغير، لم يعد فقط تلك الصحراء الصغيرة المثيرة للاهتمام (حيث يمكن لمزيد من يهود الولايات المتحدة أن يقيموا فيها، إذ لم يكونوا يشعرون بالارتياح هناك). الآن، أصبح كل الأمريكيين حائزين لأسهم فى

الأرض المقدسة، ومشاركين فى صراعها. وكنا كذلك! (كانت تلك الطائرة TWA التى فجرتها منظمة التحرير الفلسطينية، طائرة أمريكية وكذلك السيد كلينجهوفر المسكين، الذى قذفوا به من السفينة بكرسيه ذى العجلات، وكعادتهم فقد أساء الفلسطينيون إلى قضيتهم بكل إخلاص من خلال هذه الأفعال).

وهكذا أصبحت المسألة أكبر من مجرد صداقة فى الشرق الأوسط، أصبح عدوهم عدونا. كان هناك تحت الرماد ائتلاف حقيقى بين الشعب الأمريكى (وشعوب العالم الغربى) وذلك المكان الذى عمق لديهم بطريقة أو بآخرى الإحساس بالذات. بدأت إسرائيل فى الضرب على هذا الوتر الحساس فى ظل حكم مناحم بيجن رئاسة الوزراء، اليمينى المتشدد الذى تولى السلطة عام ١٩٧٧ لمدة ثلاثين عامًا تقريبًا، فى ظل حكومات حزب العمل اليسارى، كانت إسرائيل تظهر بمظهر الدولة الحديثة الاشتراكية العلمانية. وفى خضم الصدمة والرعب اللذين أصابا إسرائيل بعد حرب عيد الغفران، سقط حزب العمل، وتقدم بيجن، حاملاً التوراة. وفى خطابه الأول رئيسًا للوزراء أعلن بأسلوب درامى مميز: "ليس علينا أن نسأل أى أمة الاعتراف بحقنا فى البقاء. فقد حصلنا على هذا الاعتراف من رب آبائنا فى فجر التاريخ".

أعاد بيجن القدسية إلى الأرض المقدسة. وفى الغرب ـ الذى أخذ يميل إلى اليمين مع وصول مارجريت تاتشر، المرأة الحديدية، ورونى ريجان، صاحب الابتسامة الدائمة، إلى سدة الحكم ـ تم اعتبار يهود إسرائيل أبطالاً. أبطال حطمهم الإرهاب الخسيس، والقسوة، ومذابح النساء والأطفال. لكنهم لم يتزحزحوا قيد أنملة، بل نجحوا ـ رغم كل الظروف ورغم كل الشرور ـ فى الوقوف صامدين، بل فى إعادة بناء مكانهم الخاص بهم، الذى كان مكاننا نحن الآخرين (سواء كنا متدينين أم لا)، لأننا هنا أصبحنا ما نحن عليه، أرواحًا غريبة، يرعاها الرب ويعطيها الحق فى إعمار هذا الكوكب (وهذا تلخيص لسياسة تاتشر ـ ريجان فى كلمة واحدة). وهكذا تحقق الوعد، هنا.

إننا جميعا ننتمى إلى ذلك المكان (واليهود جميعًا لديهم شك دفين، على الأقل، فى الانتماء إلى ذلك المكان). هنا اخترع البشر الرب، أو عرفوا الرب الذى خلق الإنسان، ومنحنا مكانا نعمره، وقد فجر ذلك ولاءً لا يحتاج إلى منطق. إنه

خارج حدود المنطق. نابع من جزء عميق من العقل لا يمكن أن تصل إليه الكلمات، أو لنقل إنه جزء من وعينا الجمعى. أيا كان الاسم، فإنه ليس من الأشياء التى يمكن للأفكار والحقائق اليومية أن تزيحه عن فكرنا أو ضميرنا. مما يجعله أكثر تذكرًا لما حدث مؤخرًا، ألم يكن ذلك مؤخرًا؟ إنها إحدى القصص الكبيرة التى لا تداهم المرء فجأة، بل تتسلل إلى كيانه. وعند نقطة ما، فى هذه السنوات الأخيرة، مزقت إسرائيل صك الولاء الممنوح لها من الغرب.

يمكنك رؤية هذا الأمر وهو يحدث بمائة طريقة وطريقة، على نطاق صغير أو كبير، عندما تعاود النظر إلى الخلف ستجد أن الأمر يتضح بكل تفاصيله. كان على وزير دفاع إسرائيل أن يحزم حقائبه ويفر من أوروبا، لأنه قد عرف بطريقة ما أنه قد يُقبض عليه ويُحاكم كمجرم حرب. صدور برقية من لندن تفيد سفر مجموعة من البريطانيين المؤيدين للفلسطينيين إلى "فلسطين"، لحماية مزارعى الزيتون الفلسطينيين فى الضفة الغربية من أعمال النهب التى يقوم بها "المستوطنون الإرهابيون" اليهود، الحكومة الكندية تلغى الإعفاء الضريبى الخاص ببعض التبرعات الخيرية لإسرائيل، لأن هذه التبرعات - سيارة إسعاف على سبيل المثال - قد تُستخدم فى الأراضى المحتلة.

إن ما جعلنى أطلع على تلك القصة، وما استفزنى لكتابتها، هو ما وقع فى بلدى، أمريكا، وفى نطاق عملى، أعمدة الأخبار بجريدة النيويورك تايمز، وليس ليوم واحد فقط، بل يومًا بعد يوم. على الصفحة الأولى، كان هناك خبران متجاوران كشاهدى القبر (بجانب بعضهما البعض). أحدهما يتحدث عن آخر عمليات التفجير الانتحارية فى إسرائيل، والآخر يتحدث عن نوع عمليات القتل التى قام بها الجيش الإسرائيلى ردا على ذلك، فى إحدى مدن قطاع غزة أو الضفة الغربية. القصتان متساويتان، لا حكم أو تفرقة أخلاقية بينهما. حدث ذلك فى الجريدة التى كانت معقلاً للصهيونية الأمريكية!

من الواضح أن الأمور تغيرت. هناك شىء ما عظيم يلوح فى الأفق. وقد ولد مشروع هذا الكتاب ليجيب على السؤال القائل: ماذا حدث؟

ربما يتمثل فى الجرعة اليومية من المشاهد التى تبث حول العالم التى تصور الدبابات الإسرائيلية وهى تصنع فجوات فى البيوت، والفلسطينيين ينتحبون فى

الضفة الغربية وغزة، وربما مقتل بعض الغربيين أو الأمريكيين أو البريطانيين الأبرياء وهم يحاولون منع الجرافات الإسرائيلية من هدم منازل العرب، أو ربما إدراك أن إسرائيل تغنى علينا أغنية دافيد، بينما هى فى الواقع قد أصبحت جولياث منذ أمد بعيد. لسبب أو لآخر، فقدت إسرائيل السيطرة على الحكاية التى تعتبر بالنسبة لها شريان الحياة.

أخذ الدعم فى التآكل. ربما منذ عشرين عاما. أولاً فى أوروبا (أطلقت الهاسباراه الإسرائيلية على هذا معاداة أوروبية تقليدية للسامية). أما الأمريكان، الذين لا يقلقهم كثيرًا معرفة ما يحدث فى العالم الخارجى (والذين هم ربما أقل شكا فى طبيعة الدوافع البشرية)، فقد تباطأ ولاؤهم، حتى وصلوا هذه الأيام إلى عدم اليقين مما يعتقدون. وهذا أيضًا، أراه الآن بألف طريقة وطريقة: فى جامع التبرعات لصالح اليهود الذى يقول لى إنه يتعرض للطرد من البيوت اليهودية اللطيفة، أو إنه لا يستطيع اجتياز الباب، أو فى السيدات اليهوديات المنتميات للحداسا (المنظمة الصهيونية النسائية بأمريكا) المقيمات فى "مجمعات سكنية" مدعمة، اللائى أخبرننى أنهن توقفن عن قراءة الصحف ("فظيع ما تقرأه فيها عن إسرائيل، إننى لا أنظر إليها")، أو فى صديقتى من تلك البلدة الأمريكية الصغيرة، التى قالت لى عندما أخبرتها أننى أكتب كتابًا عن إسرائيل: "عذرا (فهى تعلم أننى يهودى) لكننى لا أحب رئيس الجمهورية هناك، أقصد رئيس الوزراء، إنه رجل غير لطيف". من المؤكد أن المعونة الأمريكية ما زالت تتدفق، لكن هذا فيما يتعلق بالحكومة. ولكن إذا تخلى الشعب الأمريكى عن مسيرة التأييد، فإن الحكومة ستتبعه قريبًا. هناك شىء واحد مؤكد: إن خمسة وثلاثين عاما من الاحتلال لا تجعل هذا البلد يبدو كالوطن، بالنسبة إلينا. أو بطريقة أخرى: عند نقطة ما على الطريق، شعرنا بأنهم "ليسوا مثلنا". أو ربما لا نريد أن نكون مثلهم. وهذه إحدى الوسائل الكبيرة التى خسرت بها إسرائيل.

حيث نشأت فى ضاحية تسمى روشستر فى نيويورك، كان هناك معبد يسمى بريث كوديش، وهو (كما أعلم الآن) يعنى العهد المقدس، على الرغم من أننى لم أكن أفكر فى الأمر فى ذلك الوقت. كان بريث كوديش فقط مكانًا فى حياتى، تمامًا، مثل المكتبة العامة التى كانت تقع على الجانب الآخر من الطريق. كان

بالمعبد مدرسة تنعقد يوم الأحد، وكنت مضطرا للذهاب إليها. لماذا كان علىَّ فعل ذلك؟ لم يكن هناك سبب معين لذهابى. كان علىَّ الذهاب يوم الأحد كما أفعل أى شىء عادى فى حياتى، ومثلما كنت أذهب للمدرسة الثانوية وإلى الجامعة. ولم أفكر كثيرًا فى ذلك الوقت فيما كانوا يعلموننا إياه فى مدرسة الأحد. كان علىَّ فقط تعلم التعاليم اليهودية. مثل جيرانى الكاثوليك الذين كان عليهم التعرف على القديسين ودراسة اللاتينية. على الأقل لم نكن مضطرين للذهاب إلى الاعتراف مثلهم.

كانت فى معظمها قصصًا من الكتاب المقدس، نوح والفلك، موسى عندما التقطوه من النيل، هذه والكثير من قصص التاريخ اليهودى التى تتحدث غالبًا عن طغاة من غير اليهود لهم أسماء معقدة (تستعصى على النطق) مثل: نبشنديزار، وآهاشويراس، اللذين حاولا فى مواقع وأوقات مختلفة التخلص من اليهود. لكن الرب ظهر وأنقذهم. وتصبح الأمور على خير ما يرام حتى يجىء يوم الأحد التالى، حيث يقع اليهود فى المتاعب ثانية. (مثلما قال صديقى إيلان كوتز عن الأعياد اليهودية. إنها جميعًا تروى الرواية نفسها: لقد حاولوا قتلنا. ولكنهم لم ينجحوا فى ذلك. ولذلك. هيا بنا نأكل"). كل القصص تعلمتها فى تتابع لا يتوقف ولا يضطرب انتظامه، ولم يسأل أحد - وبالطبع لم أسأل أنا الآخر - أى القصص مصدرها الكتاب المقدس، وأيها مصدره كتب لاحقة عليه، أو من مصادر غير الكتب بالمرة (مثل قصة هانوكا الصغير الفقير، التى نظرنا إليها جميعًا على أنها مؤامرة لمنعنا من الخضوع للكريسماس).

كانت آخر حلقة فى سلسلة هذه الفظائع والقصص الرهيبة الدامية تتمثل فى هتلر والهولوكوست. ربما تعلمنا هذا بحرارة أكبر؛ لأنه وقع فى حياة معلمينا. ولكن لم يكن هناك المزيد من التفاصيل على نحو يفوق ما نعلمه عن البابليين أو الآشوريين. ومع ذلك. كان موضوع هتلر هذا هو قصتى المفضلة فى مدرسة يوم الأحد. وذلك لسبب وحيد، فقد كنت أعرف من المصادر المستقلة (مجموعة من كتب أبناء زمن الحرب تسمى نشرة اليانكى التى ورثتها من عمى، وقرأتها ثلاث مرات على الأقل) أنه فى هذه الحالة، جاء انتقام الرب على هيئة أسراب سلاح الجو الأمريكى، والجيش الثالث الرهيب بقيادة جورج باتون، وهو ما جعلنى

أشعر بأننى إلى جانب الملائكة. أما الشىء الرائع الآخر فى الموضوع فهو نهاية هذه القصة ـ إقامة دولة إسرائيل ـ التى ظننت أنها تمتلك القدرة على إخراج اليهود من المآزق الصعبة على مدى العديد من أيام الأحد.

لم نتعلم الكثير عما كانت عليه إسرائيل. بدا وكأن المعلمين قد هللوا لها باعتبارها مكانًا يتحدث العبرية ، الأمر الذى كان بمثابة مبرر آخر لنا لوجوب تعلم العبرية. تعلمنا أن إسرائيل كانت فقط صحراء جرداء حتى ظهر فيها اليهود وجعلوها جنة مثمرة. وكان علينا نحن أيضا أن نجعلها تثمر، عن طريق إسقاط بعض السنتات فى فتحات علب كرتونية صغيرة مكتوب عليها بالعبرية، كل بنس قد يشترى شجرة صنوبر تخضر بها إسرائيل. (كنت أفضل لو تبرع الرب بتقديم أشجار الصنوبر، على أن أنفق أنا نقودى القليلة على شراء شيكولاتة الفرسان الثلاثة). تعلمنا أن العرب يحاولون وأد إسرائيل فى مهدها، عن طريق الهجوم عليها مجتمعين، وهى الواقعة التى تقدم كتأكيد حديث لكل القصص الأخرى (أرأيتم؟ إنهم ما زالوا يحاولون قتلنا). وعرفنا أن إسرائيل بلد مسالم وبرىء، ووضع بن جوريون، ووايزمان، وإيجال آلون، وآبا إيبان ضمن قائمة الأخيار، إلى جانب إبراهيم، وإسحق، ويعقوب، وموسى، وهارون، والملكة إستر، وسليمان الحكيم، والملك داود، وحفنة من الأنبياء. فى الواقع، كانوا يمثلون لنا جميعًا باقة واحدة، بدءًا من المذكورين فى الكتاب المقدس حتى بن جوريون، فقد اخترع اليهود مذهبين جيدين هما الصهيونية والتوحيد.

ما أحببته فى إسرائيل ـ بعيدا عن حقيقة أنها آخر محطة فى قطار حصص يوم الأحد ـ هو الشعار الذى كنا نسمعه كلما أثير الموضوع: "إسرائيل هى أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض". كانت هذه أقوى أساليب القص التى سمعتها طوال حياتى، جميلة ورائعة مثلها مثل باقى الشعارات الرنانة التى كانت تملأ عقلى فى ذلك الوقت: شاهد أمريكا من سيارتك الشيفروليه، ونستون طيبة المذاق، مثلما يجب للسيجارة أن تكون. (هذه الشعارات أيضًا كانت على الأرجح من ابتكار اليهود). ولكن كان هذا تحولاً فى الخطاب وتحولاً فى التاريخ، وبدا أن ذلك يؤكد لى أبرز قصص مدرسة يوم الأحد: الإحساس والاقتصاد، والخير فيما خلقه الرب. بدا لى الأمر برمته فى النهاية، أنقى من الشعارات، أرض بلا شعب من أجل شعب بلا أرض. هذا ما كنت أعرفه.

كانت هذه حصيلة سنوات تعلمى فى المدرسة، وكان هذا كل ما أعرفه حتى بعد مرور خمسة عشر عامًا. فى ذلك الوقت كنت مراسلاً لجريدة فيلادلفيا إنكويرار، وأمارس عملى بكل بسعادة فى مكتب الجريدة بنيويورك. فى الواقع، كنت أنا فى مكتب نيويورك، وكان هو مكتبنا الوحيد. فلم نكن جريدة موفورة المال حينها. ذات يوم، طلبنى رئيس التحرير على الهاتف، فى ديسمبر ١٩٧٧ وسألنى: "ما الوقت الذى تستغرقه للذهاب إلى مصر؟"، اعتقدت أنها مزحة سخيفة. قلت: "استسلم. ما الوقت الذى تستغرقه أنت للذهاب إلى مصر؟"ولكن اتضح لى أنه جاد. كان الرئيس المصرى أنور السادات قد ارتحل لتوه إلى القدس ليقدم مبادرة السلام، يا لها من أخبار مدهشة. والآن، كما أعلن، سيرد مناحم بيجن رئيس وزراء إسرائيل الزيارة فى مدينة الإسماعيلية بمصر يوم عيد الميلاد. لابد أن تفعل الجريدة شيئًا لتغطية الحدث، لكن ماذا يمكن لرؤسائى أن يفعلوا؟ لا يمكنهم ترك شىء بهذه الأهمية دون تغطية. لكن مكتب نيويورك به شخص يهودى، يمكنه العمل يوم الكريسماس. قلت: "سأصل إلى هناك غدًا.

على مدى السبعة أعوام التالية أصبحت مراسلا للجريدة فى منطقة الشرق الأوسط، ودخلت وخرجت إلى ومن إسرائيل مئات المرات، وجبت العالم العربى طولاً وعرضًا. فى النهاية، حسبتنى أعرف ما أفعله، لكن ما كان علىَّ تعلمه أولاً، هو مدى عمق جهلى. فى رحلتى الأولى إلى مصر، كنت أحسب حساباتى على إصبعين من أصابعى: اليهود هم الأخيار، والأخيار هم من يفوزون دائمًا. ولم أدرك حينئذ أننى لن أصبح واثقًا هكذا من موقفى بعد الآن.

عندما ذهبت إلى إسرائيل، بعد أسابيع من بدء وظيفتى الجديدة، أصبحت حيرتى كاملة. بالطبع كانت هناك أشجار (سرنى هذا كثيرا، فالأشجار قد نمت على نحو رائع، ترى أيها شجرتى؟). بخلاف هذا فقد تذكرت كلمة قالها هارى ترومان عن أحد معارضيه: "إن ما لا يعرفه ليس هو ما يزعجنى. بل ما يعرف أنه خطأ بيِّن".

هل هؤلاء الحمقى الذين يسدون الطريق أمام سيارتى المؤجرة ويزعجوننى بأبواقهم عندما وقفت لأقرأ لافتة بالعبرية، هل هم أنفسهم أبطال حرب الأيام الستة؟

هل كان أول مرشد لى فى القدس، الذى سلبنى مائة دولار عن طريق الاحتيال ثم حاول مجاملتى بعبارة: "العربى الصالح هو العربى الميت"، هو نتاج ثلاثين قرنًا من الحكمة اليهودية؟

ثم التقيت العرب، عربًا أحياء، وكانوا طيبين: كرامة، وكبرياء، وعقل، ومنطق، وقوة حجة، وتعرض للاضطهاد. لكن لم تكن هذه أكثر الحقائق التى يجب أن أتعامل معها غرابة وإثارة للدهشة. إن ما أذهلنى بالفعل وبكل بساطة هو حقيقة أنهم هنا. كانوا هنا، وآباؤهم كانوا هنا، وأجدادهم كذلك، منذ قرون وقرون!

ماذا عن الأرض التى بلا شعب، وال.. أنتم تعرفون الباقى. فى حرب عام 1948 لم يكن لدى اليهود فى الواقع أى أرض. حسنًا ولكن كان شعب مقيم هنا!

بدأت فى كتابة قصصهم، أيضًا. ليست الصورة كلها، فلم أكن قد حصلت على الصورة مكتملة فى ذلك الوقت. بل كتبت عما يحدث أمام ناظرىَّ، عن الأشخاص الذين التقيت بهم وتحدثت معهم. تعرضت جريدتى لاحتجاجات مريرة، لجان من اليهود الذين جاءوا يشتكون، وحاولوا أن يفقدونى وظيفتى، "أى عربى متنكر هذا الذى أرسلتموه إلى هناك؟"، "هل هو حقا ابن كرامر؟ هل هو عربى؟". "نعم، نحن نعرف هذا الصنف من اليهود. إنه يهودى كاره لنفسه!"

ولكن لحسن الحظ، لم يخبرنى رؤسائى بما يقال عنى سنوات، وهو ما وفر لى حرية رائعة، وأحسست طيبة شديدة منهم، لأن هذا لو حدث لسبب لى الألم، ففى ذلك الوقت كنت واقعًا فى حب المكان.

لكى أكون دقيقًا، لم يكن المكان هو السبب، بل الناس، وقصصهم. بالنسبة لمراسل صحفى، هذا هو المكان الأفضل على وجه البسيطة. كل يوم فيه جديد، تغادر الفندق أو البيت فى الصباح، وتلج إلى بحر من الكلمات، والأخبار، والتفسيرات، والتهديدات، والشعارات، والمجادلات، والنكات. من المدهش أن لديهم ما يكفى من الوقت لبناء بلدهم، بينما هم يتحدثون ثمانى عشرة ساعة يوميا. يا لها من تيمة عبقرية للكلام! كل من يقابلك له حكاية، وهو نفسه حكاية، حكاية كبيرة متعددة الجنسيات، ومعقدة الأشكال والجوانب والمراحل. وكلها

متسقة. (التكرار يعلم الشطار). أى مكان تذهب إليه، تجد من يتحدث الإنجليزية أو أية لغة معروفة أخرى. لا يهم أين وقع ما وقع، فيمكنك الذهاب إلى أى مكان خلال ساعتين على الأكثر، وستجد أن القضية دوما قضية حياة أو موت.

حتى الأشياء التى لا تصل إلى درجة الحياة أو الموت. فقد رأيت سيدات يقفزن من سياراتهن ويشتبكن فى جدل حاد صارخ، ينتهى بأن يبصقن على بعضهن البعض، وهذا عندما يتشاجرن على مساحة خالية لإيقاف السيارة. (فى شارعى بتل أبيب، وخلال البحث الذى قمت به لوضع هذا الكتاب، شاهدت مواطنًا يجادل رجل شرطة وسائق شاحنة لرفع السيارات المخالفة لمدة عشرين دقيقة حتى أخذوا سيارته أخيرًا، بينما هو يعدو خلفها فى الطريق، وهو يضرب بقبضته الشاحنة التى سحبت سيارته، ثم سيارته نفسها). لا بد أن الخلاف والصراع يعطيهم الطاقة. أو ربما هو الضغط الناتج عن وجودهم على قيد الحياة، مما يثير التوتر. لكن الحياة تحياها هنا بطريقة لم أرها فى أى مكان من قبل.

لأكون صريحا وصادقا إلى أقصى حد، علىَّ أن أقول شيئًا آخر: ربما كان لدىَّ العديد من الأصدقاء العرب والفلسطينيين كما يجب أن يطلق عليهم الآن. وحظيت بالكثير من اللقاءات، والمناقشات، والأكلات والكثير من الشاى المدهشة. وبالتأكيد وجدت الكثير من القصص الشيقة. ولكننى عشت مع اليهود. استمتعت بصحبتهم، وضحكت معهم وعليهم (لا أحد يقول نكات أكثر إثارة للضحك عن اليهود من اليهود أنفسهم). وعلى الأرجح درستهم، كما تدرس الجدة حفيدها لأرى أين يكمن التشابه مع العائلة.

كان لدى أيضًا اثنان من الأصدقاء الأمريكيين هناك، بين ومينى بالتر - صديقا والدَىَّ - وهما بمثابة عم وعمة لى. كانا من أهل روشتسر الذين انتقلوا بعد التقاعد إلى شقة شمالى تل أبيب. وأتذكر بين، فور وصولى، يحاول التعبير عن بهجة المكان: "انظر إلى رجل البريد؟ إنه يهودى، أترى هذا الرجل الذى ينظف أمام متجره؟ أترى الشرطى؟ إنهما يهوديان أيضا" كان هذا أمرًا عجبا لم يفقد زهوته أبدا لديه، ولا قدرته على إثارة بهجته، أو راحته، وأعتقد أن جيله قد كبر بذلك الإحساس الذى لا يتزعزع بأنه "مختلف" - خارج المسار الطبيعى

والعادى للأشخاص والحياة - حتى إنه يكفى (بل هى معجزة!) أن يكون كل من ينظر إليه يهوديًا، لم يكن الأمر معى هكذا. لكننى أعتقد أننى أحب اليهود بالتحديد بسبب ذلك الإحساس بأنهم "مختلفون فكثير منهم يجرى ذلك فيهم مجرى الدم. وهذا لا يمنحهم فقط إحساسًا بالتفرد والاختلاف، لكنه يفرض عليهم أن يكونوا كذلك، لأنهم يهود. وعلى ذلك، هناك صدق شديد فى اختبار الحياة (أو على الأقل العيش فيها بواسطة بعض القواعد والمعايير) التى تجعلها مثيرة لى، أو تجعلها تبدو مهمة. ولأن هذا الموضوع ـ كيف يعيش الناس حياتهم ـ هو أيضًا ما أدرسه وأكسب منه رزقى، يمكنك القول إنه يتسق مع تحيزى المسبق.

إننى أحب اليهود لأنهم مهرة فى التجارة، ونشطون. وكل عمل، وكل قضية تجد لها لديهم شعارًا، أو أغنية موسيقية تجذب الأذن إليها. فى أثناء قيامى بزياراتى البحثية لم يكن الشعار الانتخابى لآريل شارون يمكن مقاومته، ويستحيل ألا تغنيه عندما تسمعه، حتى إننى كدت أطالب بالتصويت للوغد العجوز بنفسى. أحب اليهود لأنهم يتعلمون ومتعلمون. أذكر الجلوس ذات يوم من أيام الأحد مع أستاذ إسرائيلى عربى من جامعة حيفا، واسمه رمزى سليمان (فى الواقع. هو يعرف بأنه فلسطينى يعيش فى إسرائيل) وكان رمزى معجبًا باليهود هو الآخر، وقال لى: "أتعرف؟ كنت أشاهد التليفزيون، وكان يعرض برنامجًا بالعبرية، يتحدث فيه ثلاثة باحثين عن صعوبات ترجمة الشعر اليابانى. فى أى بلد آخر ستجد ثلاثة أشخاص يناقشون هذا الموضوع؟" أحب اليهود لأنهم أذكياء، وللطريقة التى لا خجل فيها التى يظهرون بها ذكاءهم. الإسرائيلى الذى لا يخبرك كيف وأين ولماذا أنت مخطئ (فالكلام هو الرياضة القومية الأولى) تجده يشمر عن ساعديه ويعلن لك (بالعبرية طبعًا): "والآن. سأريك من أين تبول السمكة"، أول مرة سمعت فيها هذا التعبير ـ وباعتبارى أمريكيا حقيقيا ـ اعتقدت أنه يقصد: "أين تبول السمكة الكبيرة؟". لكننى سمعت على سبيل المثال، مثالاً آخر من صديقى الذى كان يلعب البوكر وكان يعلن كلما بدأ فى الفوز: "الكلب الكبير يصل متأخرًا". لكن الأمر ليس متعلقا بالسمكة الكبيرة، إنه عن هؤلاء الذين يعرفون بمخرج تبول السمكة، وهذا ما سيظهره لك كما يقصده.

أحب الجرأة الشديدة فى حياتهم العامة. تجد فى الجرائد كل يوم احتفالية من الهجوم الشخصى على شخص ما، مع مستوى من المعرفة الشخصية يجعل المؤسسات إنسانية الطابع. وتجد عبارات مثل: "الجنرال فلان يكره الجنرال علان منذ أيام الجامعة. الوزير فلان لا خيار أمامه سوى أن يفعل ما يأمره به شارون، وزوجته الطموحة تزوجته لأنها ترى أنه سيكون رئيسًا للوزراء." إن جانبًا من هذا الاهتمام بالأشخاص يعود إلى حجم الدولة، فالجميع يعرفون بعضهم بعضا، أو شيئًا ما عن بعضهم البعض، وفى العادة ما يكفى لإقناعهم بأن شخصًا ما أحمق. فى أثناء الانتخابات الأخيرة عندما أعلنت قائمة مرشحى الليكود، جلست مع ثلاث سيدات، أخذن يتفحصن القائمة بتمعن وأخذن يخبرننى لماذا كل هؤلاء غير مناسبين لعضوية الكنيست: هذا ليس أكثر من سائق خاص لزوجة الوزير (ويعلم الله ماذا يفعل لها بخلاف هذا)، وهذا ترك زوجته من أجل امرأة لعوب كانت زميلتهن فى المدرسة (لم يحببنها أبدًا)، وهذا ضابط فى الجيش اعتاد التحرش بالمجندات فى سن الثامنة عشرة. بالطبع لا لم يكن ذلك اختبارًا منصفًا وعادلاً، لأن هؤلاء السيدات كن ينتمين إلى حزبى العمل وميرتس اليساريين، وكان عليهن كراهية كل من ينتمى إلى قائمة الحزب اليمينى. بالإضافة إلى ذلك فإن قائمة الليكود كانت حتى بالمعايير الإسرائيلية مخرفة هذه المرة، مما جعل رأيهن مقبولاً.

لكى أكون منصفًا، علىَّ أن أعترف بحب وشغف آخر تنامى داخلى - إن لم يكن حبا، فهو على الأقل نزوع إلى الحب - وهو حكم مسبق ولكنه لصالحه. فمثل كل الإسرائيليين، وثقت بالجيش أكثر من أى مؤسسة أخرى على تلك الأرض. لسبب واحد، فقد أحببت الجنود، الذين تجدهم حذرين، ومهرة، وشجعانًا، يتذمرون من حياة الجندية ولكنهم مخلصون. لكننى أحببت أيضا المؤسسة العسكرية لغياب المظاهر الكاذبة عنها، فهم يتعبون ويكدون ويقضون شهورًا على الجبهة وفى القتال، ولم يسبق أن رأيتهم يحيون بعضهم التحية العسكرية أو يمشون مشية عسكرية. فأى جندى عادى يمكنه أن ينادى على رئيسه الكولونيل باسمه الأول (الجميع يعرفون بعضهم البعض)، أو يقول له إنه يراه مخطئًا. أحببت الطريقة التى يتصرف بها الجنود إن وقعوا فى الخطأ. فى الواقع، رفضوا ذات مرة أمرًا رأوه غير مقبول (وهى عادة فى جيش الدفاع الإسرائيلى، تعود إلى أيام ما قبل الدولة، وتسمى اسمًا عظيمًا هو نقاء السلاح).

مراسلاِ صحفيا، أحببتهم للطريقة التى جعلونى أراهم بها. أذكر المرة الأولى التى شهدت فيها قتالاً لجيش الدفاع الإسرائيلى عام ١٩٧٨ فى أثناء غزو لبنان، وكان الجنود واثقين تمامًا من أننى سأعود لا محالة إلى إسرائيل (غالبًا قبلهم)، وأعطانى بعضهم أرقام هواتف بيوتهم وأسماء أمهاتهم حتى أتصل بهن عندما أعود وأقول لهن إننى قد رأيت أبناءهن فى ساحة القتال وإنهم بخير. لم أدرك تمامًا قبل ذلك أن آلة القتل المخيفة هذه مكونة من صبية، معظمهم خائفون حتى الموت.

فى وقت لاحق. رأيت أبناء جيش الدفاع الإسرائيلى يقومون بمهمة أصعب، عندما حاصروا يهودًا آخرين، من مستوطنى سيناء، الذين أعلنوا أنهم الحراس الحقيقيون للحلم الصهيونى. كان على جيش الدفاع الإسرائيلى أن يخرجهم: لأن السلام قد وصل، على الأقل تم الاتفاق عليه مع السادات، وكانت شبه جزيرة سيناء فى طريقها للعودة إلى مصر. كانت هناك مجموعتان من اليهود الذين حاربوا ضد بعضهم البعض بحماس وغضب. وكان لدى أبناء الجيش أوامر، من الجنرال الوحيد الذى كان أحمق بما يكفى لإصدار مثل هذا الأمر. آرييل شارون. أما المستوطنون فكانوا يؤمنون بأن لديهم أوامر من الله، وأطلقوا أسوأ أنواع السباب: "نازيين.. جستابو!". وكان معهم ما أمدهم الله به من حجارة، وحواجز طرق، وإطارات سيارات يحرقونها ويخرج منها دخان أسود كثيف، وكانت أجسادهم مربوطة بالسلاسل. لا بد أن المسألة كانت صعبة، وشريرة، وشيطانية، مسألة إخراجهم. لكنهم خرجوا، وبقوا بالخارج، وهو سبب آخر يجعلنى أرى تحقيق الاتفاق ممكنًا.

لعله غير ممكن الآن. ربما المستوطنون فى الضفة الغربية أو غزة كثيرون! نحو ربع مليون، مخلصون أو مصممون أو مهوسون بالنبوءات الربانية، حتى إنه يصعب إخراجهم بأية طريقة، أو ربما آرييل شارون قد هرم، ولم تعد لديه رغبة فى قتال اليهود الآخرين. ربما أصبح الجيش مختلفًا. والأولاد مختلفين. جعلنى ذلك أعود إلى الماضى، لأتأمل. قرأت فى الجرائد أن أحد المصورين قد قتل عندما ضربت قذيفة دبابة حشدًا فى غزة. من أطلق نيران مدفعه على جمع من المدنيين؟ وبناء على أوامر من؟ وماذا حدث له؟ لا توجد قصص أخرى حول

الموضوع. لم يحدث شيء. لا شيء؟ ألم يتطرق أحد للبحث عن كيف يجب أن تعاش الحياة؟ كانت المسألة أكبر فى مغزاها. فهكذا خسرت إسرائيل.

أرأيتم، ظننت أننى أعرف البلد، ولكن اتضح أننى لا أعرفه. على الأقل لا يمكننى فهم كيف يقترف البلد الذى أعرفه تلك الأشياء التى قرأت عنها. ربما البلد الذى أعرفه قد انتهى، دفن تحت أمة جديدة من اليهود. لكن أى نوع من اليهود هم؟ (ما فائدة أن تكون يهوديًا، إن لم يكن لديك ذرة من الإحساس بالإنسانية؟. وماذا حدث للرجال الذين عرفتهم؟ كما أذكر، لم يكونوا من ذلك النوع الذى يستسلم أبدًا.

إن كان علىَّ أن أوجز ما ظننت أننى أعرفه - منذ عشرين عامًا، وبعد سبع سنوات من البقاء فى إسرائيل - يمكننى أن أطلق عليه "بلد جميل صغير اشتراكى، يعانى من مشكلة واحدة". المشكلة بالطبع تتمثل فى علاقة اليهود بالعرب - داخل البلد، فى الأراضى المحتلة، وفى البلدان المجاورة. مشكلة، وأنا مضطر إلى قول ذلك الآن، (تلك التى أطلق عليها الإسرائيليون على سبيل الاختصار كلمة "النزاع")، التهمت ما تبقى من البلد.

إن النجاح فى استخدام القوة إلى جانب سياسات الضم والمستوطنات، جعل البلد غير صغير كما كان من قبل. صار أرضًا تربطها الطرق السريعة الطويلة، العديد من الطرق الجديدة (طرق جانبية كما يقولون عنها) تقطع التلال الصخرية، حتى لا يضطر المستوطنون إلى رؤية أى عربى. كما أنتج الصراع الوطنى الدائر حول المستوطنات، للمرة الأولى، جيلاً لا يعرف فيه الجميع بعضهم البعض. عندما أخبرت بعض أصدقائى من ذوى النفوذ فى تل أبيب بأننى ذاهب إلى حفل فى مستوطنة بالقرب من نابلس، نظروا إلىَّ فى رعب، فهم لم يقتربوا من ذلك المكان أبدًا، ولا يعرفون أحدًا "هناك" (ومع ذلك، فهم يدركون أن سكان تلك المنطقة حمقى). وهكذا قُدتُ السيارة عبر الضفة الغربية بحثًا عن المزاح والمتعة، فسرعان ما ستجدهم يقدمون لك كعكة الشاباس ولو كنت على كوكب المريخ.

اختفت النزعة الاشتراكية تمامًا. عندما صارت إسرائيل رفيقة أمريكا الصغيرة، انقلبت حالها - ليس على سبيل المصادفة، فى أثناء سنوات حكم ريجان

ـ وتحولت إلى دولة ذات اقتصاد رأسمالى قح. ربما يمكنك أن تعتبر عملية التحول هذه نجاحًا. فقد أصبحت ضواحى شمال تل أبيب تزخر بمظاهر التقدم التكنولوجى، وأصبحت هناك أموال أكثر تضخ فى الاقتصاد الوطنى، وأصبح من السهل القيام بالأعمال التجارية. يمكنك أخذ ما تشاء من مال من وإلى إسرائيل، لا توجد قائمة انتظار لتركيب الهواتف كما كانت الحال منذ سنوات، وتستطيع الحصول على هاتف خلوى فى اليوم نفسه، وتتحدث فيه طوال اليوم. لكن للمرة الأولى أيضًا، هناك أشخاص بلا مأوى، وعائلات تقول إنها لا تجد عملاً، أو ما يكفى لإطعامها، وهناك من اعتصموا فى حديقة تل أبيب شهورًا طويلة احتجاجًا على الجوع.

أما بالنسبة لكون البلد لطيفًا، فهو ليس لطيفًا بدرجة كبيرة الآن. أنا لا أتحدث عن الأشياء غير اللطيفة التى يفعلها المفجرون الانتحاريون بالحافلات أو الأثر غير اللطيف بالمرة للصواريخ المطلقة على الأحياء الفلسطينية. إنها أحداث رهيبة، ولكنها متناثرة، أشياء يمكن أن تلخصها برامج السى إن إن الحوارية فى يوم أو اثنين. ونتيجة لذلك، فإن هذا ما تغطيه برامج السى إن إن، ولكنها لا تسجل الفجوات التى تحدث فى حياة الناجين: الصراع الطويل الأمد لاستعادة الإحساس بأنك أنت نفسك، وأنك بخير، بعد أن تفقد طرفا من أطرافك، والزيجات التى تتحطم بعد فقد طفل، والضغط الذى تتعرض له الأسرة عندما يتم نسف منزلها وتنتقل للعيش مع أقاربها، أو نظرة الطفل إلى والده عندما يتطلع إلى عينيه ولا يرى فيهما أى بارقة أمل.

إننى أتحدث عما هو أكثر من ذلك، الأثر المطبوع على حياة الناس الذين لم يقتربوا أبدا من انفجار من أى نوع، الأثر على المجتمع كله. على هذا النحو أيضًا، لا يكون الصراع لطيفًا. بالمعنى القديم للكلمة ـ فتأثيراته لا يمكن محاصرتها بلطف. فبعد خمسة وثلاثين عاما من الاحتلال، وبعد انتفاضتين، وبعد ثلاثة عقود من العناد والقبح والغضب، يبزغ شعاع ضئيل من الضوء، يتبعه إشراق للأمل، ثم ينتهى الأمل بالرعب، ويحل الحزن والكآبة ثانية. لا يوجد كائن حى فى فلسطين أو إسرائيل لم يتعرض للصدمة أو القسوة. على الجانب الفلسطينى، هناك الكثير من الحيوات والأحلام المنتظرة أن تعاش ("نحن تحت الاحتلال، ماذا

يمكننا أن نفعل؟")، لأن النزاع حل محل الحياة بطريقة أو بأخرى. العزاء الوحيد هو أن كل شىء يمكن أن يعزى السبب فى تشوهه إلى إسرائيل. وبين اليهود فإن الأثر أقوى، لأن خلق إسرائيل كان الهدف منه توفير مكان لليهود حيث يعيشون حياة أفضل، تتوافق مع قيمهم وتقاليدهم.

بعض هذه الأعراض أصبح روتينًا يوميا وفقد معناه مع مرور الوقت على نحو فظيع. فلم يعد أحد يفكر فى الاحتياطيات الأمنية: من كشف بالعصا التى تصدر صوتًا عند اكتشاف المعادن، أو عندما يغمغمون بسؤال: "هل من أسلحة اليوم؟" كلما توقفوا لشرب قدح من القهوة، أو شراء علبة لبن من المتجر. بعض التغيرات محزنة إلى حد فظيع: كان هذا مكانًا ودودًا، وكان يمكنك التوقف لمساعدة أى شخص فى الشارع وكان الأولاد يتجولون بالبلد كما يشاءون، وكل قائدى السيارات يلتقطون معهم من يريدون توصيلة مجانية من الطريق. (فإذا لم يقم الشعب بتقديم هذه التوصيلات المجانية، ربما لما استطاع نصف الجنود الذهاب إلى حروب إسرائيل). الناس الآن شديدو الحذر، ولا يريدون لأولادهم الخروج لمسافة أقل من توصيلة إلى جبل هرمون أو إيلات. وهناك آثار فظيعة لذلك. تبين آخر الدراسات أن من بين كل تسع سيدات إسرائيليات هناك واحدة تعيش تحت تهديد العنف (الضرب، أو الاغتصاب، أو التهديد بالقتل) من جانب الرجل المقيم معها بالبيت. وللمرة الأولى يقلق الآباء بسبب العنف بين الأولاد فى المدرسة. هناك للمرة الأولى قتل فى الشوارع، وجرائم الأسرة الفظيعة التى كنت أعتقد أنها مقتصرة على أمريكا، من قتل الأب لأبنائه، أو قتله لزوجته وبعد ذلك نفسه.

بالطبع يمكنك أن تدخل فى جدل لا ينتهى. يقول المثل: وجود اثنين من اليهود معناه وجود ثلاثة آراء. حول ما إذا كانت هذه الظواهر الاجتماعية هى نتاج النزاع أم لا. بالنسبة لى فهى قضية مفتوحة ومغلقة، فلا يمكنك أن تطلب من جيلين من أولادك أن يتصرفوا فى الأراضى المحتلة كملوك قساة القلب تجاه ما يرونه، (أصدر القديس إسحاق رابين أوامره إلى قواته فى أثناء الانتفاضة الأولى: "حطموا عظامهم". وذلك قبل ستة أعوام من تحوله إلى شهيد للسلام)، وتتوقع منهم بعد ذلك أن يعودوا إلى البيت ويعيشوا كالحمل الوديع مواطنين

وأزواجًا وآباء. بالنسبة لى، هذه التحولات التاريخية مليئة بالأسى، ولا تعرف إن كان عليك الضحك أو البكاء. فى عام ١٩٦٧ أجبرت إسرائيل على دخول حرب بسبب النزاع، بسبب تهديدات من خارج حدودها. وعلى ذلك، قامت بشن حرب بارعة، واجتاحت الأراضى التى يجىء منها العنف. ولكن ـ وها هنا قد حدث التحول القبيح ـ قررت، ربما لم تقرر، ولكنها انزلقت إلى التصرف على هذا النحو، أن هذه الأرض أيضًا جزء من أرضها. وعلى ذلك، دلف العنف الذى تخافه إسرائيل إلى أرضها. هناك طريقة أخرى للنظر إلى الأمر، وإن كانت ليست أقل كآبة، ولكنها أكثر إنسانية: إن قمت بالبحث عما يعتبر حجر الأساس فى بناء دولة إسرائيل فى سنواتها الأولى (وهذا فى حد ذاته صعب، فقد كان هناك الكثير من الأشياء المطلوبة)، فهو يتمثل فى خلق نوع جديد من اليهود. يهود مختلفين عن اليهود الأوروبيين الذين عرفهم وسخر منهم مؤسسو الصهيونية، نوع مختلف عن كل اليهود، منذ العصور الوسطى. هذا اليهودى الجديد ربما يكون مزارعًا أو عامل منجم، أو عاملاً مجدًا صلبًا: لا مزيد من الاختباء مع الكتاب المقدس خلف جدران المعابد، بينما القوقازيون أو النازيون أو (فى هذه الحالة) العرب، يمطرونهم بالموت. هذا اليهودى قد يكون مقاتلاً، وحكيمًا، وشجاعًا. هذا أيضًا نجحوا فيه ببراعة، والجيل الذى أنشأه المؤسسون الأول، كان هو الجيل الذى غزا أرض "إسرائيل الكبرى". لكنه أيضًا كان ذلك الجيل الذى لم يقرر أبدًا ما يفعله بتلك الأراضى. لم يفكروا أن عليهم فعل ذلك. كانوا شجعانًا ذوى بأس، ومبدعين، وفى صلابة الصخر، يمكنهم التعامل مع أى شىء. أما بخصوص الاحتلال، فقد أنشأوا نوعًا جديدًا من الاحتلال، أفضل احتلال يمكن أن يشهده العالم، ويجب أن يشعر العرب بالامتنان، ولن يخطر ببالهم أبدًا هم، أو بلدهم، أو من بداخلها، أنهم قوات احتلال. لا، ليس هؤلاء الرجال الذين قدوا من فولاذ.

الجدير بالذكر أن العلماء خبراء الاجتماع، والأطباء النفسيين، والأطباء عمومًا والعاملين فى مجال الصحة العامة ، يميلون إلى الاعتقاد بأن ظهور العنف داخل المجتمع الإسرائيلى له علاقة بمسألة الاحتلال، أو على الأقل النزاع. لكن هذه النتائج التى توصلوا إليها يمكن بالطبع ازدراؤها بالقول: ماذا تتوقع من حفنة من أساتذة الجامعة اليساريين المنتمين للحمائم غير ذلك؟ نصفهم على الأقل عرب على أية حال. وهذا أيضًا جزء من المسألة، أحد الأشياء التى حدثت

لإسـرائيل. لأن النـزاع، وسلوكك تجـاه النزاع (سـواء كنت من الصـقور أو الحمائم، يمينيـا أو يساريا)، هـو بـالدرجـة الأولى الذى يحدد من أنت، وإن كنت تستحق أن يُستمع إليك أو لا. الحقائق لا تعد حقائق إن كانت قادمة من شخص على الجانب الآخر (أى الجانب الخطأ)، وهو ما يمثل خسارة أخرى لبلد بُنى من "حقائق على الأرض"، أو طريقة أخرى للقول بأن "المشكلة الوحيدة" قد تغلغلت فى كل شىء.

بعدما عدت إلى إسرائيل بقليل تعرفت على رجل رائع، وهو إليشع شبيجلمان، وكان يحرر برنامجًا يذاع على القناة الأولى فى إسرائيل لمدة ساعتين مساء الجمعة (القناة الحكومية التى كانت سنوات طوالاً هى القناة الوحيدة). وكما أذكر، كانت الأخبار البارزة التى تذاع ليلة السبت، الوقت الوحيد الذى يتواجد فيه الجميع داخل المنزل، أقوى موجه للرأى العام فى البلد. وكان شبيجلمان يعمل فى هيئة البث التليفزيونى الإسرائيلية منذ بداية ظهور التليفزيون فى إسرائيل، منذ حرب الأيام الستة. وهو يذكرنى بمخرجى برامج قابلتهم فى حجرات الأخبار فى شبابى. رجل تحب العمل معه ومن أجله: ذكى، ومتفتح، وحلو الحديث، لكنه لا يتهاون مع الحق، كما أنه قوى بما يكفى لحل المشاكل (عندما يتسبب أحد مراسليه فى مشكلة يتصدى لها). أخبرته بأننى أعتقد أنه يجب أن يكون لديه الكثير من الحماس، باعتباره محررًا لبرنامج كبير.

قال: "كنت مسئولاً عن تحرير البرنامج، ثم فصلونى، ثم طلبوا منى تولى المهمة ثانية".

"لماذا فصلوك؟ ولماذا عدت؟ وماذا كان يجرى فى ذلك الوقت؟"

"كان لدينا بعض المشكلات فى القناة الأولى".

"و ما هى وما الذى أحدث المشكلة؟"

صمت شبيجلمان برهة، ربما ليتأمل ما سيقوله، أو ربما ليتأملنى ويدرك من أنا (أين أقف تمامًا)، ثم قال بابتسامة واثقة: "أعتقد أن الاحتلال هو السبب".

قهقهت بصوت جهورى تقريبًا. لكنه كان جادا وهو يقول: "كانت هذه هى المرة الأولى التى يخبروننا فيها أن هناك بعض الأشخاص الذين لا يمكننا أن نجرى معهم لقاءات تليفزيونية."

"تصادف أن كانت حكومة حزب العمل، فى أثناء الانتفاضة الأولى، والأمر الأول كان بصدد القادة الفلسطينيين. لم يكن مسموحًا لنا بإجراء حوارات معهم. فهل تعرف ماذا اعتدنا أن نفعل؟ كنا نُخرج مذيعًا إلى الشارع. ولكنه كان يجب أن يكون موجودًا عندما يخرج إليه قادة الفصائل من مكاتبهم، ونسجل حديثهم. ونقول على سبيل المثال: لم نكن نعرف أنه قائد! كنا نتحدث إلى المارين فى الشارع!".

أتعرف؟ فى أثناء الثمانينيات، عندما حصلنا على فيلم لاجتماع منظمة التحرير الفلسطينية فى تونس - أعلنوا فيه أنهم سيغيرون هدفهم، وسيسعون للحصول على دولة مستقلة - وصلنا أمر مباشر من المدير العام: لا تسمحوا بإذاعة الصوت فى الفيلم. وأذعنا الفيلم، لتظهر فيه الصورة فقط. دون كلمات!

"ثم بدأت الأوامر فى الانهمار علينا. بدأت بالعرب، ثم توسعت بعد ذلك. لم يسمحوا لنا بمقابلة مائير كاهانا (الحاخام المتطرف المناوئ للعرب)، على الرغم من أنه كان أحد أعضاء الكنيست! وألغت المحكمة العليا ذلك الأمر. ثم بعد ذلك تومى لابيد، زعيم حزب شينوى ، أتعرف من هو؟"

(كنت أعرفه بالفعل. كان فى ذلك الوقت قد أحرز انتصارا قويا فى الانتخابات، وعقد صفقة مع أرييل شارون، لضم أعضاء حزبه فى الكنيست إلى الحكومة مقابل أن يحصل على منصب وزير العدل).

عندما كان تومى لابيد يشغل منصب المدير العام، كان هو من قال إن علينا أن نكون تليفزيونًا صهيونيا، غير موضوعى. والآن يقدم نفسه على أنه الزعيم الليبرالى للشريحة العليا للطبقة الوسطى". ولو لم نكن فى مقهى محترم لكان إليشع قد بصق على الأرض.

كان هناك أثر آخر للاحتلال، أراد أن يذكره، ألا وهو العمالة الرخيصة. فعندما أخذ الفلسطينيون يتدفقون للعمل مقابل أى أجر، أدمنت إسرائيل العمالة الرخيصة فى كل صناعاتها. والآن، أصاب هذا الإدمان مجال الإعلام وصناعة الأخبار وأضاف بضحكة قصيرة "إن المسألة مماثلة. فقد بدأت بالعرب ثم انتقلت إلى اليهود". فى محطته، وفى محطات التليفزيون الخاصة، والآن فى الصحف

أيضًا هناك القليل من العاملين الذين يحصلون على أجور مناسبة وحماية من النقابات. ومعظم من يعملون تم التعاقد معهم بشكل مستقل أو عبر عقود خدمات شخصية. ويفعلون ما يؤمرون بواسطة الإدارة وإلا كان التسريح من نصيبهم. وكان الملاك والمديرون يستأجرون أنصارهم السياسيين، ويأمرون الباقين بأن يحذوا حذوهم، وإلا فالويل لهم. ويضيف إليشع: "إنهم لا يقاتلون". لكنه كان يقاتل.

"كنا نحاول القيام بمهمتنا الصحفية بنزاهة. وكنا نهرع إلى مواقع الحدث. وكنا نستخدم المادة الإخبارية التى تذاع فى الخارج بالفعل، مثل برنامج بوب سيمون ستون دقيقة. أو كنا ندع المارة فى الشارع يقولون ما نريد قوله. ثم نقول: إننا نستشهد بهم فقط".

ولكن كانت مشكلاته آخذة فى التفاقم. وكانت القناة الأولى تفقد نصيبها من السوق (وهو عذر جيد للإدارة لكى تقوم بالتغيير). وكانت كل القنوات (وقناته أيضا) تبث الأخبار طوال الليل بطريقة ماراثونية أشبه بالسى إن إن (دعونا ننتقل على الهواء مباشرة، إلى فريد فوروبرو، الموجود بموقع الأحداث) من كل موقع حادث إرهابى، يساندها تكتيك الحكومة الجديد للهاسبارا، لتظهر للعالم، على نحو مباشر بقدر الإمكان، الضحايا اليهود للإرهاب. ويضيف إليشع: "لا أحد يريد فعل ذلك، ولكنه له مردود هائل". كانت هناك قصة جيدة عن أحد المتمردين، وهو صبى رفض الانضمام إلى الجيش. أضرب عن الطعام فى السجن. وكان ابن شقيق سارة نيتانياهو، زوجة رئيس الوزراء اليمينى السابق (وربما القادم)، بيبى نيتانياهو. لم يكن بإمكان إليشع أن يقترب من هذا الموضوع أو يشير إليه من قريب أو بعيد لرئيسه يوسف بارعيل الصديق الحميم لحزب الليكود، فليس هناك مكان للمتمردين على شاشة القناة الأولى. كان إليشع لديه ما يكفيه من المتاعب. ولم يعد المتشددون الأرثوذكس يتحدثون إليه بخصوص برنامج ليلة الجمعة. كان معتادًا على التسجيل قبل يوم السبت، ويضع سطرًا تحت من يتحدث على الشاشة، ليؤكد للمشاهدين أن المقابلة تمت يوم الخميس. والآن، لم يعد هذا كافيًا فالواقع أن عرضه فى حالة عمل (وجهاز التليفزيون كذلك!) وقد أمرنا الله بالراحة يوم السبت، وهذا تدنيس لأوامر الله - لن يشاركوا

فيه - وبذلك أصبح عدوًا لله. وكرهه المستوطنون جميعًا بسبب أكاذيبه اليسارية العلمانية. "إن كنت تقول إنهم أنشأوا مستوطنة غير قانونية، فأنت كاذب لأنهم يقولون إن معهم تصريحًا من الرب، منذ ثلاثة آلاف عام". وإن أذاع إليشع تقريرًا عن العرب أو أذاع أى شىء على الهواء عن العرب ،لا يأخذ فى الاعتبار طبيعتهم الوحشية، فإنه يصبح بذلك منحازًا لهم. وأى موضوع يبث يعالج أيا مما فعله الجيش بالفلسطينيين فى الأراضى المحتلة يجعله عدوًا سافرًا للدولة. "يقولون لى: هل تستخدم تليفزيوننا لكى تهاجمنا؟"

كان هاتفه الخلوى يدق. أصاخ السمع إلى محدثه برهة ثم قال: "ما بالك؟ هل أنت طفل؟ هل تعتقد أن بإمكاننا احتكار هذا الموضوع؟. فكر كيف ستعالجه بصورة مناسبة ليذاع هذا الأسبوع. وسنتحدث عندما أعود، حينئذ قرأت على وجهه، بينما يطوى هاتفه، أنه سيعود إلى العمل على الفور.

لكن كان لديه شىء آخر ليضيفه، عن قضايا الجيش هذه. فى الواقع، لم يكن يفضل إذاعتها، ولا حتى قراءتها فى الصحف. قال: "لأننى أخجل من نفسى. فالجيش يقوم بما يقوم به باسمى. إنه ابنى. ابنى جندى بالجيش، ويقوم بأعمال مماثلة. لذا فأنا لا أقرؤها الآن، لأننى أشعر بالعار".

شعرت تجاهه بالأسى وهو يحمل معطفه ويمضى تحت المطر، عائدًا إلى مكتبه. ولكن مشكلاته سرعان ما اختفت. وبعد أسابيع قلائل من حديثى معه، تم فصله مرة أخرى.

أما دان هالوتز فقد احتفظ بوظيفته. إنه جنرال وقائد القوات الجوية الإسرائيلية. فحينما عدت إلى إسرائيل فى خريف عام ٢٠٠٢ وجدت الجنرال هالوتز قد جعل نفسه أكثر شهرة مما يجب أن يكون عليه جنرال، من خلال اللقاء الذى أجرته معه جريدة هاآرتس. قال لى مراسل جريدة بالتيمور صان فى القدس - المنتمية إلى موطن رأسى - "بيتر هيرمان"، عندما عدت إلى إسرائيل: "عليك بقراءة ذلك الحوار. إنه لا يصدق".

الجانب المحزن فى هذه العبارة يتمثل فى أنه لم يكن غير قابل للتصديق، بل العكس هو الصحيح. اقتنعت بأن الجنرال هالوتز يقول الحقيقة أو يحاول ذلك.

كان صادقًا، الواقع أنه أوضح بدقة وببساطة أن إسرائيل كان عليها فعل ما فعلته تمامًا.

فى المناسبة التى أثارت الحوار كانت الحقائق كئيبة. كانت عملية فى غزة لاغتيال صلاح شحادة، قائد الجناح العسكرى لحماس، أكثر جماعات المقاومة الإسلامية نجاحًا. وتعرف الشين بيت، الشرطة السرية الإسرائيلية، أكثر من أى أحد آخر، ما يحدث فى غزة يوما بيوم (يعرفون على سبيل المثال عشرة أضعاف ما يعرفه ياسر عرفات). كانت الشين بيت (الشرطة السرية الإسرائيلية) على علم بأن حماس قد منحت شحادة شقة جديدة ليختبئ بها فى حى يسمى الدرج. وكانوا يعرفون أن هذا الحى مكتظ بالمدنيين (لا توجد أحياء غير مكتظة بالمدنيين فى غزة، فهى أكثر مدن العالم ازدحاما من حيث الكثافة السكانية). وكانوا يعرفون أن مسكن شحادة المكون من ثلاثة طوابق من الطوب والحديد المسلح مكتظ بالسكان بالكثافة السكانية العالية نفسها. ولكن ليلة الثانى والعشرين من يوليو عام ٢٠٠٢ فى منتصف الليل (وقت النوم الجميل) حلقت طائرة إف ـ ١٦ أمريكية الصنع فى سماء غزة وأسقطت على شقة شحادة قنبلة زنة طن كامل.

ألف كيلو جرام من الحديد والمتفجرات ليست بالشىء الهين. تحول منزل شحادة إلى ركام قاتل. لقى حتفه على الفور. وكان حارسه الشخصى بصحبته وتوفى أيضًا. ليلى زوجة شحاد كانت معه، وماتت. وتوفيت أيضًا إيمان ابنتهما البالغة من العمر ١٤ عامًا. وعلى مدى الأيام التالية حاولت العديد من القصص على طريقة الهاسباراه أن تصور الأمر على أن جيش الدفاع الإسرائيلى لم يكن يعرف بوجود باقى أفراد الأسرة بالمنزل. قال وزير الدفاع الإسرائيلى بنيامين بن إليعازر: "لم تكن هناك نية لإيذاء المدنيين، فطبقا للمعلومات التى كانت لدينا لم يكن من المفترض وجود مواطنين حيث يقيم، ولكن يحزننا ما أصابهم". لكن الرجل الصادق، هالوتز، قائد القوات الجوية هو من ذكر الحقيقة، حيث أعلن، بعد عام، لإذاعة الجيش أن الجيش والحكومة كانا يعرفان بوجود زوجة شحادة معه، وقرروا إسقاط القنبلة فوق رءوسهم مهما كانت النتائج.

لكن لم تقتصر قائمة الضحايا فقط على أسرة شحادة. كان بيته مليئًا بالعائلات الأخرى. والمبانى المجاورة أيضا تعرضت لضرر شديد وكانت مليئة بالسكان. لم يصدر جيش الدفاع الإسرائيلى قائمة بالضحايا. لكن بعد يومين من القصف، أعلنت جماعة "جوش شالوم" كتلة السلام، قائمة بهم وبأعمارهم، وكان بها صلاح شحادة، ومعه:

ليلى شحادة (٤١) سنة.

ابنتهما إيمان (١٤) سنة.

زاهر نصار (٣٧) سنة.

منى فهمى هويتى (٣٠) سنة.

ابنها صبحى (٤) سنوات.

ابنها محمد (٣) سنوات.

محمد الشوا (٤٠) سنة.

ابنه أحمد (؟).

إيمان حسن مطر (٢٧) سنة.

ابنتها دنيا (٥) سنوات.

ابنها محمد (٤) سنوات.

ابنها أيمن سنة.

علا محمد مطر (١١) سنة.

داليا مطر (٦) سنوات.

دنيا رامى مطر (شهران).

بالإضافة إلى ١٥٠ مصابًا.

وفى يوم ظهور القائمة ارتفع عدد القتلى إلى ١٧ ضحية، بعد العثور على طفلين مدفونين تحت الأنقاض. والحصيلة هى أن خمسة عشر من القتلى كانوا من المدنيين، أحد عشر منهم من الأطفال.

مع نشر قائمة الأسماء، قام أهالى غزة بمظاهرات جنائزية حاشدة متوقعة للقتلى، مع التهديد بالانتقام، والدم اليهودى الذى سيراق مقابل الدم العربى المهدر، بل أكثر! ، ردا على هذا الإرهاب. أعلن زعيم حماس عبد العزيز الرنتيسى: "سنطاردهم فى بيوتهم وشققهم، بالطريقة نفسها التى دمروا بها بيوتنا وشققنا" . وانطلقت بيانات الإدانة من العواصم الرأسمالية (حتى واشنطن الساكنة)، واستخدم وزير الخارجية السويدى عبارة تقول إنها "جريمة ضد القانون الدولى" . داخل إسرائيل، ثارت ضجة كبيرة حول الموضوع، وكانت تأتى تقارير المراسلين تباعًا من موقع الحدث فى غزة، وتكتب تحليلات مطولة فى الصحف، وأظهرت استطلاعات الرأى (مفاجأة!) انزعاج الناس وضيقهم مما جرى، وكان على الهاسباراه أن تحاصر وتعالج تلك الندبة القبيحة التى شوهت وجه إسرائيل. ألقى أباطرة الجيش اللوم على الاستخبارات، بينما أعلنت "مصادر الاستخبارات" أن معلوماتها كانت دقيقة تمامًا . وتعهدت الحكومة بإجراء تحقيق شامل، بينما أعلن شارون رئيس الوزراء أن العملية كانت: "واحدة من أنجح عملياتنا" . فى غضون ذلك، حاول أعضاء حركة جوش شالوم المحبة للسلام نشر شعار: "كيف تستطيعون النوم؟" وهو الشعار الذى تمت كتابته ليلا على سيارات بعض الطيارين.

لكن انتهى الموضوع كما تنتهى مثل هذه الحوادث. والحوادث المشابهة إن لم تكن المماثلة، ليحل محلها فى القنوات الإخبارية وفى الجرائد نوع جديد من الهجوم الوحشى، أو ربما الانتقام ردًا على الهجوم، على النحو الذى يفضل أن يطلق عليه وزراء الخارجية "دوامة مأساوية من العنف" . لم يكن أحد يعلم ذلك - أن الأمر سوف ينتهى - أكثر من القائد الذى أمر بتنفيذ العملية، آرييل شارون. لقد قام بأول عملية تدمير لقرية عربية (أول قرية نعلم بها على الأقل) ، حيث دفن الرجال، والنساء، والأطفال تحت أنقاض بيوتهم عام ١٩٥٣، حدث ذلك فى مكان يسمى "قيبية"، حيث تبدو عملية غزة ملهاة مقارنة بالمأساة التى حدثت فيها . إن شارون - على نحو أو آخر - هو من اخترع اغتيالات الجيش الإسرائيلى، عندما كان يشغل منصب القائد العسكرى فى غزة منذ ما يزيد على ثلاثين عامًا . لم يحب الناس ما فعله فى ذلك الوقت، أو قالوا إنهم لا يحبونه. بعد ذلك، أشرف بنفسه بوصفه وزيرًا للدفاع، منذ عشرين عامًا مضت، على أكبر

مذبحة فى تاريخ جيش الدفاع الإسرائيلى، فى مخيمات صبرا وشاتيلا للاجئين ببيروت (بالطبع لم ينفذ جيش الدفاع الإسرائيلى عمليات القتل بنفسه، ولكن من خلال أصدقائه من المسيحيين اللبنانيين). وحينما شاعت القصة، كان يجب دفع الثمن. حققت لجنة وطنية رسمية صورية فى الموضوع، وأوصت بألا يشغل شارون منصب وزير الدفاع مرة أخرى أبدًا، وقد فعل. ولكنه بدلاً من ذلك تم انتخابه رئيسًا للوزراء.

كان هذا الحادث سينتهى أثره هو الآخر، على وجه السرعة. ولكن جماعة جوش شالوم بدأت فى كتابة خطابات إلى الجنرالات الإسرائيليين، تحذرهم فيها من أن أفعالهم مراقبة جيدًا والمعلومات الخاصة بأية جريمة سترسل إلى المحكمة الجنائية الدولية فى لاهاى. كان هذا كثير على دان هالوتز. إسرائيليون يهود يقومون بدور الواشى ضد القوات المسلحة اليهودية؟ كان هذا فى نظره ليس أقل من التحريض على الفتنة، ولهذا بعد شهر من العملية أجرى لقاءً مع الصحفى فيريد ليفى بارزيليا، بجريدة هاآرتس وجاء فيه:

ها آرتس: هل تقول إن أعضاء جوش شالوم الذين قاموا بهذه الأعمال يجب أن يخضعوا للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى؟

هالوتز: "نحن نبحث عن المادة المناسبة فى القانون لمحاكمتهم فى إسرائيل. أجل. إنك ترغب فى الحديث عن الأخلاق، وأنا أقول إن الدولة التى لا تحمى نفسها تتصرف بطريقة غير أخلاقية. الدولة التى لا تساند مقاتليها لن تعيش. ما يسعدنا أن دولة إسرائيل تساند مقاتليها. هذه الشرذمة القليلة ذات الصوت العالى تذكرنا بالأوقات المظلمة فى تاريخ الشعب اليهودى، عندما كان البعض منا يذهب ويشى بنا للآخرين. لا يجب أن نسمح بحدوث هذا مرة أخرى. من يصدق أن طيارى القوات الجوية يجدون سياراتهم قد لطخت بالسبراى بهذه الهمجية بعد العملية الناجحة التى نفذوها.

هل تحدثت إلى الطيارين الذين لطخت سياراتهم؟

أجل. جاء أحدهم ليتحدث معى. سأل نفسه وسألنى أكان هذا كابوسًا، حلما فظيعًا على وشك أن يفيق منه. أم أن هذا حقيقة؟. الحقيقة أننى لم أعرف ماذا

أقول له. جلسنا فى مكاننا، أنا وهو، مذهولين ومجروحين. الشىء الوحيد الذى استطعت قوله فى النهاية هو أن علينا ألا نهتم بمثل هذه الظواهر الهامشية التى لا قيمة لها. بالنسبة لى هؤلاء القوم ليسوا فقط هامشيين. إنهم خارج هامش دولة إسرائيل.

"هل ستتغير أية إجراءات، أو وسائل صنع القرار، أو أداء العمليات فى جيش الدفاع الإسرائيلى بسبب ما حدث؟

"قطعًا لا. لا شىء سيتغير، ولا يوجد سبب لتغيير أى شىء".

"كانت هناك أكثر من إشارة مباشرة إليك كمجرم حرب. كيف تشعر إزاء ذلك؟ وهل ستفكر مرتين بعد الآن قبل أن تسافر إلى بلجيكا؟"

"يؤسفنى تخييب ظن البلجيكيين، لكن من بين كل بلاد العالم، فلا أنوى الذهاب أبدًا إلى ذلك البلد. الأمر الأكثر جدية هو أننا نعمل طبقًا لميثاق أخلاق سامٍ. ولأن ذلك هو ما يقود خطانا، فلا أعتقد أننا مجبرون على تفسير ذلك أمام أية محكمة على وجه الأرض. هذه المحكمة ليس لها وجود. إننى شخصيا لدى شعور عميق بالعدالة والأخلاق. وبقدر إحساسى هذا، أشعر بأننى بخير. كنت أعنى ما أقول عندما قلت للطيارين إننى أنام قرير العين".

وأردف هالوتز إن الطيارين فى العادة يحتاجون إلى معلومات من مكتب القيادة، أو الاستخبارات، ليعرفوا علام يرمون قنابلهم.

"لكن، هذه المرة، الرأى الذى يفترض أن يساندك قد خذلك، أليس كذلك؟"

"خذلنا؟ بأية معايير؟ من الذى يدعى ذلك ومن وضع هذه المعايير؟ إننى أؤكد للجميع أن ما حدث قبل المهمة قد خضع لاختباراتى الأخلاقية ونجح بجدارة، وهو راسخ فى عقلى وأومن به. وقبل كل شىء ما ومن الذى تتحدث عنه هنا: شخص تتجسد فيه كل معانى الشر. فأى قاموس يرغب فى تعريف كلمة "إرهابى" يكفيه فقط أن يدخل اسمه مكان الكلمة. لقد قتل الكثير من أبناء الأمة اليهودية.

"إذن من هنا تأتى مشروعية التصفية الجسدية، لكن ماذا عن الأبرياء الذين قتلوا معه؟"

الأمر مكون من شقين: الأول، نتيجته إيجابية لأننا ضربنا من سعينا لتصفيته. الثانى، هو ما اعتذرنا عنه، وهو إيذاء مدنيين لا علاقة لهم بالأمر".

"أتعنى مدنيين أبرياء؟"

قلت عن عمد "مدنيين لا علاقة لهم بالموضوع، لأننا نعرف فى الواقع أن عتاة الإرهابيين يتخفون أحيانًا فى ثياب المدنيين".

"ولكن ألا توافقنى القول بالطبع إن الثمانية أطفال الصغار والرضع، كانوا أبرياء؟"

"بالطبع".

"وقتلوا؛ لأنك تصرفت على أساس معلومات استخباراتية غير دقيقة؟"

كانت المعلومات دقيقة للغاية. ومع ذلك، أحيانًا لا نقدر على التحكم فى الأشياء التى تقع فى المساحة المختبئة عن ناظرينا. إلى جانب أن هناك جانبًا من المعلومات لم أعرفه، وقد تغير فى أثناء التخطيط للعملية".

"ألا تَعُدُّ هذا فشلاً استخباراتيًا أو ما شابه؟"

"كلا. كانت عملية صنع القرار سليمة، ومتزنة، ومناسبة وحذرة. المشكلة تكمن فى المعلومات، والمعلومات تغيرت. إننى أرفض أى نقد يوجه إلى هذه العملية قبل، وفى أثناء، وبعد. وفى إطار معاييرى الأخلاقية، فإن حقيقة وجود مدنيين لا علاقة لهم بالموضوع وأطفال أبرياء تحزننى. أنا آسف لهذا. لكن ما حدث لهم ليس نابعًا من مشكلة مهنية.

"تم توجيه النقد إلى قرار استعمال قنبلة زنة طن. ألم يكن اختيار السلاح خاطئًا؟"

"كلا، من الناحية المهنية، وفيما يتعلق بهذه العملية أيضا، كان القرار صحيحًا تمامًا. ليس عندى مشكلة فى طرح الصحفيين وغيرهم أسئلة من هذا القبيل، لكننى أفضل قيام المتخصصين بالإجابة عليها: حتى تحدث قنبلة نصف طن الأثر المطلوب، كان علينا أن نسقط اثنين منها. لأن الحسابات الخاصة بفرصة أن تخطئ إحداهما الهدف تصبح قائمة. وهذا كان عاملاً حاسمًا فى اتخاذ القرار.

وعلى ذلك فقد كان قرار العملية صحيحًا. أما بالنسبة للمعلومات التى تغيرت، فإن من ينتظر ضمان صحة معلوماته بنسبة مائة بالمائة فى كل موضوع يتصدى له، فإنه لن يقوم بأى عمل. إن محاولة البحث عن مذنبين لهو أمر يلطخ من يفعله بالعار. إننى لا أرى ما يضارع المستوى الأخلاقى لجنود جيش الدفاع الإسرائيلى فى أى مكان آخر على وجه البسيطة".

"إذا كنت تعرف مقدمًا أنه كان يوجد خمسة عشر أو سبعة عشر شخصا فى المبنى، من بينهم أطفال، فهل كنت سوف تبقى مصرا على إسقاط القنبلة؟"

"إننى لا أرغب فى الإجابة على سؤال مثل هذا، وبالتأكيد لن أذكر أرقامًا. إننى على استعداد لمناقشة السؤال من حيث المبدأ: هل يكون مشروعًا ضرب إرهابى إذا كنت تعرف أن العملية سيكون ثمنها سقوط ضحايا من المدنيين وأشخاص ليست لهم علاقة بالموضوع؟

"وما إجابتك؟"

"ليس عندى شك بشأن ذلك. الإجابة بالإيجاب. بالنسبة لشخص معروف عنه ارتكابه أو تخطيطه لارتكاب أعمال إرهابية من العيار الثقيل فإجابتى هى: نعم. كم من الأشخاص؟ لا أعرف. أستطيع تقديم الإجابة حين تأتى لحظة المواجهة. دعنا نسترجع عملية التفجير الانتحارية فى فندق بارك بناتانيا عشية عيد الفصح. لنقل إننا كنا نعرف مسبقًا بوجود هذا الإرهابى وإننا حاصرناه فى بيته، فهل كان مشروعًا أن نقصفه حتى لو عرفنا بوجود أشخاص آخرين معه؟ إجابتى هى أجل. كم من الأشخاص؟ لا أعرف. ولست مستعدًا لذكر أرقام. أكرر ثانية إننى آسف للغاية بشأن الأطفال الأبرياء الذين قتلوا. لكن أى شخص يخطط لقتل أطفال إسرائيل عليه أن يعرف أن أطفاله سوف يلقون الجزاء نفسه".

وأضاف هالوتز إنه لن يستطيع بعد الآن الالتزام بشعار جيش الدفاع الإسرائيلى: "نقاء السلاح".

"أرى أن هذا منطق متهافت فى جوهره. فلا يوجد سلاح نقى. إن الأسلحة لم تصنع لكى تكون نقية. السلاح النقى ليس بسلاح. ربما كان سلاحًا، لكنه قد

تحول إلى منجل لقص الحشائش. وبنفس المنطق، يؤسفنى إعلان أنه لا توجد حروب نظيفة. لا أعرف شخصًا قادرًا على شن حرب نظيفة".

وقال هالوتز إن الطيار الذى يعترض على أداء مهمة معينة باعتبارها مهمة كريهة عليه أن يكشف لنا عن أوجه اعتراضه فى مرحلة ما قبل العملية "حتى نقنعه".

"وماذا لو ظل بعد ذلك رافضًا قبول الأمر؟"

"حينئذ يمكنه النهوض ومغادرة القاعدة الجوية."

وأضاف قائلا "إن رفض أداء المهمة ليس جزءا من لعبتى. ولا يهمنى حدوث الكثير من القلق أو اهتياج المشاعر بعد أن تضرب القنبلة هدفها».

"هل هناك طريقة ما داخل النظام تجعل من الممكن للطيارين التعبير عن مشاعرهم؟"

"ولماذا المشاعر؟ من يحتاج إلى مساعدة من أى نوع وفى أى مكان سيحصل عليها. كل الآليات موجودة، ومن بينها المساعدة النفسية. فقط من لديهم مشكلات عاطفية هم من يحتاجون للتنفيس عن عواطفهم".

"لكنك مررت بشهر عصيب. أنت وسلاح الجو الإسرائيلى تعرضتما خلاله للهجوم، من كل وسائل الإعلام فى كل مكان، فمن كان يساندك؟"

"أنا لست بحاجة إلى المساندة، إننى شخص قوى. أو لنقل بطريقة أخرى: حتى اليوم، لم أحتج إلى أية مساندة خارجية. أعرف كيف أتكيف مع الأشياء بنفسى. فى هذه الحالة لم يراودنى الشك أبدًا. وبالتأكيد لم أحتج للمساندة من أى شخص كان. وآمل من كل قلبى ألا أصادف فى المستقبل، أيضًا، موقفًا أحتاج فيه إلى تلك المساعدة. وفيم انشغالك الشديد هذا بالمشاعر؟"

"الطيار يسقط قنبلة. والقنبلة تقتل الناس، أحيانًا من تم التخطيط لقتلهم، وأحيانًا لا. أليس من المشروع سؤال الطيار عن إحساسه بعدما يلقى بالقنبلة؟ ألا نتوقع منه أن يسأل نفسه هذا السؤال؟ وهل يسألونه فى سلاح الجو الإسرائيلى؟"

"لا. هذا ليس سؤالاً مشروعًا، ولا يجب أن يسأله أحد. لكن إن كنت تريد أن تعرف شعورى عندما أسقط قنبلة فسوف أخبرك: أشعر بهزة خفيفة فى الطائرة نتيجة لإطلاق القنبلة، وبعد ذلك تختفى. هذا كل شىء، وهذا كل ما أشعر به."

ما حدث لإسرائيل هو أن المعايير تغيرت. وحقيقة أن هالوتز احتفظ بعمله بعدما أخبر العالم أن الطيارين الإسرائيليين لا يأبهون، أو يجب عليهم ألا يبالوا، أو لا يستطيعون المبالاة إذا "مات أيضًا" بعض الأطفال العرب، كانت مؤشرًا أكيدًا على ذلك. لو حدث ذلك فى الأيام الخوالى لأطيح به من منصبه بسرعة تدور لها رأسه. وما كان ليجد الوقت لحزم حقيبته قبل أن يصدر بشأنه قرار ينص على "تكليفه بمهام جديدة"، على سبيل المثال رئيسًا للمشتريات يبتاع قطع غيار الطائرات من فرنسا. هذا ليس لأن ما قاله كان كذبًا (من الواضح أنه قال الحقيقة). وليس لأن سلوكه غير متسق مع منصب قائد القوات الجوية (فسلوكه كان متسقًا تمامًا مع ما يتطلبه سلاح الجو، ومع ما يفعله زملاؤه من جنرالات جيش الدفاع الإسرائيلى. فلا يصل أحد إلى رتبة جنرال - حتى فى تلك الأيام الخوالى - من خلال التصرف مثل الأم تيريزا). لكن هالوتز كاد ليطرد من منصبه لأن السياسة المعلنة لدولة إسرائيل هى محاولة العيش بسلام مع جيرانها، وما حدث لم يكن ليسهم فى ذلك. كان سيطرد من منصبه لأن سياسة إسرائيل المعلنة كانت المسالمة، حتى مع العرب، ولا يجب إيذاؤهم، حتى لو من أجل حماية جنود إسرائيليين معرضين للخطر، وما فعله هالوتز لم يكن يعكس تلك السياسة. كان سيطاح به لأن إسرائيل كانت تلزم نفسها بمعيار معين ، ربما يكون معيارًا غير عادل، وربما لا تلتزم به غالبًا، لكنه مثل الأمة اليهودية التى تكون مسئولة فقط أمام سلطة أسمى من سلطة البشر.

الواقع، أن إسرائيل مثلها فى ذلك مثل شركة الهوت دوج التى تعلن فى كل مكان أنها تراعى أعلى معايير الجودة، ولكنها فى الواقع قد لا تصل إلى نصف تلك المعايير التى تصدع بها رءوسنا. لكن الحقيقة الأساسية هى أن تلك هى الصورة التى أرادت إسرائيل أن تطل بها على العالم. لم يكن الصهاينة فقط عقائديين، بل كانوا مثاليين. كانت هناك مناقشة قومية جادة ودءوبة بشأن ماذا يجب أن يكون عليه مجتمعهم، وكان يتوقع من القادة أن يكونوا أمثلة يحتذى بها.

ربما كان الشعب يستثنى بعض الشخصيات المحبوبة، مثل موشى ديان - مهما فعل فهو مقبول - ولم تكن الهفوات الشخصية محلاً للنقاش. (وأية طفلة فى إحدى مدارس عفولا أو عسقلان تستطيع أن تقص عليك قصة الدبلوماسى الإسرائيلى ذى المنصب الرفيع الذى وجدوه ميتا، مقيداً فى فراشه فى أحد فنادق باريس، مع فتاتين، أو حسب بعض الروايات الأخرى، فتى وفتاة. ببساطة، كانوا يستمتعون بهذه القصص). ولكن ظاهريًا- باسم دولة إسرائيل أو من أجل إسرائيل - كان يتم الحفاظ على المعايير، وكان الناس يتوقعون ألا يخذلهم أحد. أما الآن، فإنهم لا يتوقعون الكثير، على الإطلاق.

لا شيء يجسد التغيير الذى حدث على نحو أفضل مما تجسده الأسباب الكامنة وراء مذبحة منزل غزة، سياسة الاغتيال. كيف تقرر الدولة اليهودية اللطيفة أن تلجأ إلى ذلك العمل؟ حسنًا، المسألة أنها، كما هى الحال فى العديد من الأعمال القذرة الأخرى، لم تقرر - ليس على نحو علنى - ولكنها فقط انزلقت إلى ذلك. ومثل العديد من الأعمال القذرة الأخرى، بدأت مع ظهور آرييل شارون. فمنذ ثلاثين عامًا كان قائدًا للقطاع الجنوبى للجبهة، حيث اعتبر أن مهمته تتمثل فى منع أية متاعب فى أو قادمة من قطاع غزة، وعلى ذلك قرر وقف مثيرى الشغب. وكوّن وحدة سرية صغيرة أطلق عليها اسم ريمون - وهى الكلمة العبرية المقابلة لكلمة ثمرة الرمان، وهى الكلمة العامية التى يعرف بها الجنود القنبلة اليدوية. فى أول الأمر، كانت وحدة ريمون تتسبب فى قتل مثير الشغب، عن طريق الوشاية به لدى فصيل مناوئ أو أسرة مناوئة، من خلال تحديد مكانه ووقت تواجده، وإذا اضطروا، كانوا يمدون من سيقتله بالسلاح. ولكن، فى بعض الأحيان، لا تستطيع الاعتماد على الطائفة المناوئة، وفى هذه الحالة يقوم أبناء ريمون (المرتدون ملابس العرب ويتحدثون العربية) بالعمل بأنفسهم. بعد ذلك كانوا يسربون الأخبار، بطريقة ما، قائلين إن هذا الشخص الشرير قد لقى مصرعه على يد بعض أعدائه من العرب. وكفى الله المؤمنين شر القتال.

المرة الأولى التى خرجت فيها الحكومة من مخدعها واعترفت (وإن كان ذلك فقط عن طريق التلميح وليس التصريح) أنها نالت من بعض الفلسطينيين، كانت فى أوائل السبعينيات. تم الكشف عن إحدى أولى العمليات لأن جولدا مائير

أرادت أن يعرف الناخبون أن الدولة قد اصطادت قادة منظمة أيلول الأسود الذين اختطفوا وقتلوا أحد عشر رياضيا إسرائيليا فى دورة الألعاب الأوليمبية المقامة بمدينة ميونخ عام ١٩٧٢ و"قدمتهم للعدالة". وفى عام ١٩٧٣ تسلل فريق من الإسرائيليين يقودهم إيهود باراك (فى ثياب امرأة ذات شعر طويل مستعار ونهدين مصطنعين) عبر شاطئ البحر إلى بيروت حيث قتلوا ثلاثة من مسئولى منظمة التحرير الفلسطينية فى شققهم. وزادت وتيرة الاغتيالات بعد عام ١٩٨٢ عندما اجتاح الإسرائيليون مرة أخرى لبنان، واحتفظوا بالمستشارين والعملاء فيها على مدى العشرين عامًا التالية.

ولكن ظلت عمليات الاغتيال متقطعة، وعلى شكل حالات فردية حتى عام ٢٠٠٠ واندلاع الانتفاضة الثانية، مع شن هجمات داخل إسرائيل والقيام بتفجيرات انتحارية. فى ذلك الوقت، كان رئيس الوزراء هو تلك المرأة ذات الشعر الطويل المستعار، إيهود باراك. وفى نوفمبر من عام ٢٠٠٠ أصدر أوامره باغتيال قائد فلسطينى يسمى حسين عبيات، وهو أحد أعضاء حركة فتح التى يقودها عرفات، لكن لم تكن هناك مشكلة فى ذلك الوقت. لا كوماندوز ولا عملاء. حلقت طائرة تابعة لسلاح الجو الإسرائيلى، وأطلقت صاروخًا مضادا للدبابات على سيارته الميتسوبيشى. وبسهولة بالغة، ذاب داخل السيارة. كانت تلك إشارة البدء لانطلاق عمليات اغتيالات واسعة النطاق. وبدأت قائمة الضحايا فى التزايد: لقيت سيدتان فى العقد الخامس من عمرهما، تصادف وقوفهما إلى جوار سيارة عبيات، مصرعهما، ومع ذلك تعهد باراك بالمضى قدمًا فى هذه السياسة. ولكنه لم تتح له أبدًا فرصة كافية لذلك، فقد خسر الانتخابات لصالح آرييل شارون. وبعد ذلك، أصبحت الاغتيالات بالجملة. تصاعد عدد القتلى فى عمليات الاغتيال الإسرائيلية - منذ بدء الانتفاضة الثانية فقط - حتى وصل إلى أكثر من مائتين وخمسين شخصًا، كان مائة وخمسون منهم مستهدفين، أما المائة الباقون فقد كانوا فى المكان الخطأ وقت حدوث الاغتيال.

ولكن فلنتريث قليلاً، إنها شىء آخر. إنها ليست عمليات اغتيال. فبمجرد دخول جيش الدفاع الإسرائيلى إلى الساحة كل أسبوع تقريبًا، بدأ رجال الهاسبارا المحترفون فى التلاعب بالكلمات. وعلى ذلك، أصبحت هذه الاغتيالات تسمى

"حالات قتل مستهدفة" وهى العبارة التى علقت فى الأذهان. بدا وقعها له صدى يشبه القيام بعمليات جراحية. ولكن بعد فترة وجيزة، عرف الجميع أنها ليست عملية جراحية ولكنها مذبحة، وعلى ذلك تغيرت الصياغة مرة أخرى. لم تعد قتلاً على الإطلاق. كانت الفكرة الجديدة تتمثل فى أن هؤلاء الأشخاص ليسوا بشرًا، بل "قنابل موقوتة" على وشك الانفجار وقتل المزيد من اليهود، ولهذا لا بد من نزع فتيل الانفجار. وعلى ذلك، يعلن الآن جيش الدفاع الإسرائيلى عن التخلص من بعض الفلسطينيين المختارين باعتباره "إجراء وقائيا". على أية حال، لم يعد أحد يسأل (لاحظ أن هالوتز لم يسألوه أبدًا هذا السؤال) عن سياسة قتل الأشرار المشتبه بهم - وهم فى طريقهم لارتكاب أعمالهم الشريرة – دون تفاصيل الاعتقال، والاتهام، والمحاكمة والبحث عن الأدلة، دون أى برهان على الإطلاق.

المبدأ السائد (أو الغائب) هنا هو سيادة القانون. فى الأيام الخوالى كان يمثل العقيدة التى لا يمكنك الجدل بشأنها فى إسرائيل. عندما زرت البلد للمرة الأولى، كانت المؤسسة الوحيدة الأعظم من الجيش هى محكمة العدل العليا - الباجاتز، كما يطلق عليها الإسرائيليون - وهى مكافئة للمحكمة العليا الأمريكية. بالطبع كان هناك الكثير من النكات حولها، مثلاً كيف يناقش فقهاء المحكمة كم عدد الملائكة القادرين على الرقص فوق رأس دبوس، ومع ذلك كان الجميع يرغبون فى اللجوء إليها. أما الآن فقد توارت فى الظل، والسبب مرة أخرى هو الاحتلال.

فيما يتعلق بموضوع عمليات قتل المستهدفين، نظرت المحكمة الدعوى التى أقامها محمد بركة عضو الكنيست عن الحزب الشيوعى العربى. قال محامى بركة إنه بما أن الإسرائيليين يسيطرون على الأراضى المحتلة، فإن بإمكان قوات الأمن اعتقال المشتبه بهم وتقديمهم للمحاكمة (قام الإسرائيليون بالمئات من عمليات الاعتقال، بما يعنى أنه أمر ممكن الحدوث). ولكن صرخ فيه أحد القضاة بعنف، وهو ميشيل شيشين قائلاً "لقد ذهب ابنى إلى المنطقة أ. لا أريد أن تتعرض حياته للخطر". تراجع المحامى إلى نقطة أكثر جوهرية قائلاً: "من الذى يقرر من هو الإرهابى؟" فصاح فيه رئيس المحكمة، إلياهو مازا، بحدة قائلاً

"بالتأكيد. ليست المحكمة، على حد علمنا، لدى جيش الدفاع الإسرائيلى معلومات عن أولئك الذين يهاجمهم." وعلى ذلك دع الجيش يتخذ القرار". ورفضت المحكمة الدعوى.

إليكم مثال آخر، من أجل الحفاظ على الضفة الغربية وغزة، ولمنع السكان المحليين من القيام بأشياء فظيعة لمكافحة الاحتلال، تتبع قوات الأمن سياسة العقاب الجماعى. لنقل على سبيل المثال أن طفلاً قادمًا من قرية بالقرب من جنين قد تسلل عبر الخط الأخضر، إلى إسرائيل، بهدف تفجير بعض اليهود، أو حاول التسلل عبر الخط الأخضر وأمسكوا به. على الفور تظهر قوات الأمن فى قريته وتقوم، على الأقل، بهدم بيته. ولكنه لا يزال طفلاً، وهو ليس ببيته، بل بيت والده أو جده، أو خاله أو عمه. فى الواقع، إن كانت حاله مثل حال معظم العائلات الفلسطينية، فقد يتسع الأمر بحيث يكون منزل عشيرته بالكامل، بشقق أعمامه، وأولاد العمومة، والأخوات المتزوجات. وقد يضم المنزل أربعين أو خمسين ساكنًا. ولم يعرفوا أن أحمد الصغير ابن عمهم ـ أو أيا كانت قرابته إليهم ـ قد فقد الأمل فى كل شىء، وتسلل ومعه الديناميت مربوط حول بطنه. لذا فهل يستحقون أن يخسروا بيتهم؟

إنه موضوع يخص الباجاتز، فى الواقع، منذ الاحتلال والسؤال الذى يفرض فى إسرائيل، ظهر بكل تفاصيله فى المحكمة العليا. أو يمكن أن يظهر إن قدمت قضية للعدالة. تعذيب قوات الأمن الإسرائيلية (هل هى ممكنه إن كانت تعنى السيطرة على عمليات إرهابية فى المستقبل؟). الأراضى العربية التى يستولى عليها الجيش كمناطق تأمين (من يقرر أنها مناطق تأمين؟). حقوق المياه (هل على المزارعين العرب أن تجف أرضهم بسبب مستوطنة جديدة تستخدم مياههم بعد أن قرر شاغلوها زراعة الطماطم؟). لكن نجد الباجاتز تراوغ ثانية: فى حالة العقاب الجماعى وافق القضاة على أن العقاب الجماعى مسألة قابلة للنقاش. (فى الواقع تم منعها فى اتفاقية جنيف، لكن المحكمة العليا فى إسرائيل تقول إن اتفاقيات جنيف قابلة للنقاش هى الأخرى). إذن فقد اعتادت الباجاتز أن تطلب من الجيش إصدار إخطار بالتدمير للسكان شاغلى البيت المستهدف قبل ثمان وأربعين ساعة حتى تستطيع العائلة المتضررة تقديم شكوى إلى المحكمة (فى

إسرائيل) وتطلب ألا يتركوهم من غير بيت على الأقل. فى معظم الحالات تعطى المحكمة الضوء الأخضر للجيش، ولكن على الأقل هناك فرصة للمراجعة بحكم القانون، ولم يعجب الجيش هذا الأسلوب. إن أصدروا إخطارا للسكان يتجمعوا، ويلقوا الناس بالحجارة، أو يضعوا أفخاخًا قاتلة. أصر القادة على أن أمن إسرائيل يتطلب الإزالة الفورية للبيوت (يمكن أن يتأذى اليهود من إزالة هذه البيوت العربية). وكذا بت القضاء فى مسألة العقاب متعللاً بأنها فى صالح أمن إسرائيل. ثم بخجل فتاة مراهقة، قال أعضاء المحكمة إنهم ليسوا خبراء فى الأمن. خبراء الأمن هم قوات الأمن. ولأن قوات الأمن هى التى تزيل البيوت فهل فهمت؟ الجيش هو من يقرر إصدار الإخطار من عدمه. انتهت القضية، وانتهت الباجاتز أو المحكمة الإسرائيلية العليا.

المشكلة الكبرى هى أنه لا شىء ينتشر قدر انتشار الاستثناء (كما فى هذه الحالة) من سيادة القانون. كما حدث فى فرض حظر على اللقاءات فى القناة الأولى، حيث بدأ بالعرب، ثم امتد ليشمل اليهود.

وعلى ذلك، فى رحلة قطار صباحية يوم الأحد من حيفا إلى تل أبيب، كانت العربات مكتظة بالجنود العائدين من بيوتهم بعد قضاء عطلة السبت مع عائلاتهم. أولاد فائقو الوسامة، بالغو الطول، أصحاء، بعيون صافية، ويتحدثون بلباقة، إنهم فخر هذه الأمة، إلا أنهم كانوا يخوضون نقاشًا فنيا حامى الوطيس حول ارتداد الرصاصة. إن حدث وأطلقت النار على شخص غير إرهابى، وكان من الواضح أنه ليس كذلك، سيدة أو ولد صغير أو شخص مسن، فإذا خضعت للتحقيق يمكنك أن تقول بأن رصاصتك قد ضربت الحائط من خلفهم، وإن كانت إلى جوارهم تكون أفضل، فهى ترتد بصورة أفضل. ثم لن تواجه مشكلة، فقد ارتدت الرصاصة للأسف عليهم. وينتهى النقاش باتفاق الجميع على أنه "لا يهم، هذه الأيام لا أحد يخضع للتحقيق".

إنه وقت الانتخابات، وأرييل شارون يسعى للفوز بفترة أخرى رئيسًا للوزراء، إنه متقدم (لا يوجد غيره، هكذا يقولون). إلا أنه يواجه مشكلة بسيطة، قصة ظهرت على صفحات الجرائد. لقد اتضح أنه أساء استعمال أموال حملته الانتخابية، وعليه أن يعيد الكثير من الأموال، لكن ليس لديه ما يكفى ليردها.

وعلى ذلك، حصل عليها " على سبيل القرض" من رجل فى جنوب إفريقيا، صديق قديم له يدعى كيرن. ولسوء حظه فإن كيرن كان يُعَدُّ شخصًا أجنبيا فى نظر القانون، مما يجعل الأمر غير قانونى بالنسبة لشارون، الذى حصل منه على مليون ونصف المليون دولار، طافت بطول العالم وعرضه قبل أن تستقر فى جيبه بطريقة سرية. والآن، أتذكر المرة الأولى التى وصل فيها رابين إلى منصب رئيس الوزراء، واكتشف أن زوجته كان لها حساب غير قانونى فى أحد بنوك واشنطن بالعملة الصعبة به مبلغ عشرين ألف دولار. لم يستطع رابين الصمود فى وجه النيران، واضطر إلى الاستقالة من منصبه. أخذت أسأل من حولى، من الخبراء الإسرائيليين ، هل سيضطر شارون إلى الاستقالة؟ ولطيبتهم الشديدة لم يضحك أيهم فى وجهى ساخرا من سؤالى. وخلال يومين انتقلت الأخبار فى الجرائد إلى موضوع جديد: من الذى سرب تلك الأخبار البشعة عن شارون؟ بالطبع وجدوا سيدة، ربما مساعدة النائب العام الإسرائيلى أو شىء من هذا القبيل، واعتبرت كبش الفداء. وانتصر شارون مرة أخرى.

كان سيفير بلوتزكير، المراسل الاقتصادى المتميز لأكبر جريدة إسرائيلية . يديعوت أحرونوت ، هو فى النهاية من أجاب على سؤالى: لماذا سقط رابين بسبب عشرين ألف دولار، بينما استطاع شارون الحصول على مليون ونصف المليون دولار والنجاة بفعلته. قال سيفير "المعايير تغيرت، هذه الأيام لا يُعَدُّ الشخص النظيف نظيفًا مائة بالمائة. ثلاثون بالمائة من القذارة تعنى أنه ما زال نظيفا".

بالنسبة للسؤال الكبير المزعج التالى - لماذا تغيرت المعايير؟ - كان علىَّ أن أسأل ليورا نير. فالرب يلقى بالأعباء الثقيلة على من جعل أكتافهم تتحمل، وليورا واحدة من حاملى الأعباء. كانت تعمل فى المكتب الإعلامى للحكومة (تحت إشراف المتحدث الرسمى القادم من ديترويت)، لكنها استقالت عندما قرر رئيسها مناحم بيجن ووزير دفاعه أرييل شارون أن يسقطا القنابل على بعض المبانى السكنية فى لبنان. وقد أبلت بلاءً حسنًا، منذ ذلك الحين، كدارسة نابهة للمجتمع الإسرائيلى. جعلتها بصيرتها النافذة لأحوال بلدها مبتكرة ومعدة ومديرة قناة تليفزيونية تعرض المسلسلات الرومانسية القادمة من أمريكا الجنوبية (مترجمة إلى العبرية بالطبع)، لأنها ظنت أن ما تحتاجه إسرائيل هو هروب عاطفى رخيص. إنها أكثر قنوات الكابل إثارة فى إسرائيل.

سألتها: "ما الذى غير المعايير؟" وكانت إجابتها بسيطة: "لقد تغيرنا. جميعنا تغيرنا. هل تعرف معنى كلمة بوشا؟ إنها تعنى الخجل. إننا بالتدريج فقدنا حمرة الخجل".

"لماذا؟ هل تعنين الجنود؟"

"الجنود، لقد بدأ الأمر من هنا. كل شخص هو جندى. والجندى يعنى الأراضى المحتلة. "تأكد أنهم لن يتسللوا إلينا. تأكد أن الجدات لا يخبئن شيئًا تحت تنوراتهن. سوف يخدعونك. إنهم يكرهونك. تأكد من أنهم لن يتغلبوا عليك". إنها تجربة غير أخلاقية ومفسدة للغاية.

"عليك أن تخدر نفسك. والطريقة الوحيدة لذلك هى أن تتحجر مشاعرك. وإحساسك هذا لا يتوقف عند عبورك الخط الأخضر. ولا يتوقف عند التعامل مع العرب. عليك أن تعزل نفسك عما تراه. وتحمل معك هذا العازل دائمًا.

"ولكن المسألة ليست فقط مسألة جنود. لقد فسدنا جميعًا. أنا لا أتحدث عن بعض التفاحات الفاسدة. فهذا موجود دائمًا. ولكن ماذا يفعل النظام عندما يعثر على بعض التفاحات الفاسدة؟ هذه الأيام، لا يفعل شيئًا لم يعد الناس يشعرون بالصدمة بسبب الفساد".

قالت ليورا إن المواقف تغيرت لأن الحياة تغيرت، أو ربما العكس، إنه لغز البيضة والدجاجة. ولكن كل شىء تغير، منذ نشأت فى كنف ما اعتاد أن يطلق عليه رئيسها السابق زيف شافتس، المتحدث الرسمى الإسرائيلى الأمريكى، "زمن اليقين الصهيونى الأكيد".

"فى تلك الأيام كان هناك مبدآن: الأول هو أن أى شىء ممنوع يعتبر محرمًا". (فإذا أردت شيئًا، وكان فى صالح الدولة، وكنت على اتصال بذوى النفوذ - لديك بطاقة حزب العمل على سبيل المثال - فإن الحكومة سوف تمنحك تصريحًا خاصًا). "الثانى: أنت تعمل لصالح الدولة، والدولة تعتنى بالجمهور". (إن معيار تقييمك ليس مهنتك، ولا كم تجنى من أموال. فإذا حصلت على أموال يجب أن تخفيها، فالفقر يعنى الاحتشام. فقيمتك تقاس بما فعلت للمجتمع الصهيونى).

وأضافت ليورا أن صدمة حرب يوم كيبور (عيد الغفران) دقت أول مسمار فى نعش اليقين، الذى يجسد أكبر دعامات الإيمان بأن الحكومة دائمًاعلى حق. ومع بزوغ فجر الثمانينيات، بدأ الانهيار الكبير. تغير العالم، وأصبح الفكر السائد هو: "اهتم بنفسك. يمكنك أن تكون مواطنًا صالحًا بأن تكون مواطنًا سعيدا. يمكنك جنى الأموال. وبدأ الناس فى الارتحال إلى أمريكا، ذهابا وإيابا، ليقيموا المشروعات التجارية. إنها "الخصخصة". بدأ المجتمع فى التحول إلى أفراد، وبدأت عرى المجتمع فى الانفصام. فبعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ وصف رابين (المحارب الصهيونى القديم) من هربوا إلى أمريكا بأنهم "نيفيلوت ميموشوت". لا أعرف كيف أترجمها إلى الإنجليزية، فهى شىء ما مثل "سقطوا فى الوحل". بعد أعوام قليلة كانوا هم الأفضل والألمع. ابن رابين فى أمريكا الآن. وما يحدث الآن هو عكس شعار كينيدى القائل "سل نفسك ماذا يمكنك أن تفعل لبلدك؟"

وعلى ذلك، امتزجت الخصخصة، والفردية بالتشرذم والجمود العاطفى، وكونت العازل الذى يفصل الإسرائيليين، عما يجب عليهم أن يفعلوه أو يروه، فيما عدا الجانب الأكبر الذى لا يرونه، يومًا بعد يوم، وهم غير مضطرين إلى أن ينظروا لأنها مشكلة جماعية - وليست ناتجة عن أفعالهم - وهم مشغولون بأعمالهم، وما يرونه بالأراضى المحتلة محبط، هل كتب عليهم أن يطاردهم هذا الإحساس البشع على الدوام؟ وهناك أمر آخر، وهو الأخير:

لقد حاولوا، فالأمر لم يعد مقصورًا فقط على الصقور. ولكن كل اليهود - حتى أكثرهم مسالمة وإيمانا بالسلام - كانوا على قناعة تامة بأنهم قد انتخبوا إيهود باراك رئيسًا للوزراء على أساس برنامج انتخابى يسعى للسلام. وفى عام ٢٠٠٠ ذهب باراك إلى كامب ديفيد للاجتماع مع الرائع بيل كلينتون (الذى كان الإسرائيليون يعشقونه لدرجة أنه لو رشح نفسه لديهم لانتخبوه فى غمضة عين). وقدم باراك لعرفات كل ما أراده - أو أى شىء يريده على نحو مشروع - دولة. حاول باراك أن يعطيهم دولة! وماذا فعل ذلك الحثالة؟ قال: لا. ثم بدأ فى شن الحرب. انتفاضة ثانية، حيث أرسل الأطفال لتفجير أنفسهم، قتل أطفالنا. إذن فليذهب معهم إلى الجحيم. لقد حاولنا. والآن، أى شىء يحدث هو خطؤهم. دعهم يحلوا مشاكلهم مع عرفات.

هذا أيضًا سبب أخير وكبير لتغير المعايير. أو لغياب المعايير (فى ظل الظروف الراهنة، فى هذه الحالة). لأنه ليس خطأهم. فلا يمكنهم صنع السلام. فليس لديهم شريك للسلام.

هذا هو السبب فى احتفاظ هالوتز بمنصبه، أو استطاعة شارون الحصول على مليون أو اثنين، لأن اليهود يرون الآن أنهم بحاجة إلى هالوتز. كما أنهم بحاجة إلى شارون. (وهم لا يحتاجون إلى شبيجلمان ليوجه لهم النقد على تليفزيونهم الخاص). وإذا ساءت الأمور داخل بلدهم، وإذا كان مجتمعهم قد أصبح رهينة؟ حسنًا. سوف نعالج ذلك لاحقًا. إنها الحرب.

عبرت ليورا نير عن ذلك بالقول "ما تراه هو الصراع. إنه نفاد الصبر. إنه العدوان. إنه رفض أى شىء مختلف. انظر، الإسرائيليون أبدًا لم يكونوا ضعفاء. ولكن - وهذا تعميم بالطبع - كان بإمكانك مس شغاف قلوبهم. أما الآن فلا أعرف".

الفائز الوحيد فى هذه القضية ، عبر خمسة وثلاثين عامًا منذ حرب الأيام الستة هو الصراع نفسه. ذلك الجراد الذى أتى على الأخضر واليابس. إنه يغير القلوب والعقول.

هل تذكرون ذلك القائد العجوز الذى قاتل فى حرب الاستقلال عام ١٩٤٨؟ ذهبت لرؤية إسحاق بونداك لأتحدث معه طويلاً. إنه يعرف الفلسطينيين جيدًا، ويعرف كيف يتواصل معهم ويتعامل معهم، وكيف يجعل تواصلهم مع اليهود ذا نفع. فى أثناء عمل بونداك حاكمًا عسكريا على غزة خلال عامى ١٩٧١ و١٩٧٢، قام بتوفير العمل للرجال الفلسطينيين، والرعاية الصحية للعجائز والمدارس والملاعب للأطفال. ونعم قطاع غزة كثيرًا بالهدوء، بل التقدم أيضًا. وانتقل بعض اللاجئين إلى منازل حقيقية بدلاً من المخيمات. وانخفض عدد السكان بالفعل. كان بونداك يعرف آرييل شارون أيضًا. كان هذا فى نفس وقت إدارة شارون للقطاع الجنوبى من الجيش، وتأسيس وحدات الاغتيال الخاصة (حيث ادعى أنه أعاد الهدوء إلى قطاع غزة). وفى مذكراته المنشورة عام ٢٠٠٠ يتذكر بونداك شارون على أنه ضابط عديم الشرف: كاذب، وغشاش، ومحتال،

وقاتل جبان. وثدت سياسات شارون التقدم فى غزة وخلقت جيلا من الأعداء، تلك السياسات التى فجرت الانتفاضة. وعلى ذلك، ذهبت لأسأل بونداك كيف يمكن تغيير اتجاه هذه السياسات. وكيف يمكن لإسرائيل التحرك نحو السلام؟

قال بونداك: "انظر.. هذه دولة مختلفة؛ لأن عدونا قد جعلها مختلفة، وليس لأننا جعلناها مختلفة. كان بإمكان عرفات الحصول على تسعين بالمائة من الأرض، بسهولة بالغة، فى الاتفاق الذى عرضه باراك. ولم يوافق، إذن فماذا يريد؟ ذهب ليشن حربًا حربًا قذرة على أطفالنا ونسائنا فى الشوارع والمطاعم. لذا فعلينا أولاً أن نربح هذه الحرب، وسنفعل. نصيحتى هى أن أى يهودى لا يمتلك الشجاعة، عليه أن يغادر هذا البلد". وسألت المقاتل العجوز: "لمن صوتَّ؟" قال: "شارون، لا يوجد غيره".

توجهت إلى بلدة نهاريا على الشاطئ الشمالى لأتحدث مع سمادار هاران. كانت اسمًا شهيرًا عندما ذهبت إلى إسرائيل للمرة الأولى؛ لأنه حدث فى ليلة من ليالى السبت من شهر أبريل عام ١٩٧٩أن جاء أربعة إرهابيين فلسطينيين فى قارب مطاطى من لبنان، وحطوا على شاطئ نهاريا، واقتحموا شقة سمادار وأسرتها. أمسكوا بزوج سمادار وابنتها ذات الأربعة أعوام «عينات»، وابتعدوا بهما مسافة بنايتين، إلى الشاطئ، حيث أطلقوا النيران على الأب أمام عينى الصغيرة، وكان هذا آخر ما تراه. ثم حطم أحد المسلحين رأس عينات على صخرة بكعب بندقيته حتى لفظت أنفاسها الأخيرة. كانت سمادار مختبئة مع ابنتها البالغة عامين من العمر، يائيل، فى مكان صغير فوق حجرة النوم، بينما كان يتحرك اثنان من الإرهابيين مثيرين جلبة فى أرجاء الشقة، حيث كانوا يعرفون بوجود المزيد من الأشخاص بداخلها. أبقت سمادار يدها جاثمة على فم الرضيعة، فانطلاق صوت واحد منها معناه أنهما فى عداد الأموات. أخيرًا وصلت الشرطة. قُتل اثنان منهم فى أثناء تبادل إطلاق النار. وتم القبض على الاثنين الآخرين. وقد عثروا على سمادار وأخرجوها من مكمنها. ولكن طفلتها كانت قد ماتت أيضًا. ففى أثناء محاولتها الاختباء كتمت أنفاسها.

ذهبت لألتقى سمادار ليس سعيًا لمعرفة تفاصيل الجريمة المرتكبة ضدها، بل لمعرفة ما فعلته بعد ذلك. بالنسبة لى، كانت مثلاً يحتذى به. بعد الهجوم مباشرة،

التقى بها التليفزيون الإسرائيلى ولم تهتم بإلقاء اللوم على الحكومة لعدم قدرتها على صد الإرهاب. ولم تنح باللائمة على الشرطة لتأخرها. ولم تلم العرب! أزعج سلوكها الكثيرين، لدرجة أن اتهمها عذرا وايزمان بأنها " تحط من معنويات الأمة". ما أزعج اليهود بالفعل كان شيئًا ما قالته: سألوها بم كانت تشعر وهى مختبئة؟ قالت إنها شعرت بما شعرت به أمها، التى مرت بتجربة الهولوكوست. وبعد ثلاثين عامًا كانت ابنتها تمر بنفس الأمر. كان هذا من المحرمات، إنه يدفعهم إلى الجنون، لأن حجر الأساس الذى تقوم عليه إسرائيل، الدولة اليهودية الصلدة، هو "لن يحدث ذلك ثانية أبدًا". فما الذى تخبر به أبناء وطنها الآن؟ أنه لم تكن ثمة فائدة من إقامة الدولة؟ وأن لا شىء قد تغير؟ أو أنهم قد وقعوا فى المأزق نفسه؟ أثارت إعجابى بما لم تفعله، وهو إلقاء اللوم، ولكن أعجبنى أكثر ما فعلته. لقد أرادت أن تعيش. كان رد أمها على الهولوكوست هو أن تحيا، أن تأتى إلى إسرائيل، وأن تعيش حياة مديدة وأن تبنى شيئًا جديدًا. وكانت هذه إجابة سمادار. إنها تسمى الآن سمادار هاران كيزر، حيث تزوجت ثانية، وأصبحت لها أسرة جديدة. ما زالت تبدو وكأنها أم فى العشرينيات من عمرها، كما ظهرت على شاشات التليفزيون للمرة الأولى، وإن زاد عليها بعض التجاعيد الخفيفة، لكنها تجاعيد ناتجة عن الضحك. وهى لا تزال تعيش بالقرب من شاطئ نهاريا. ولم ينجح أحد فى زحزحتها عنها. لم ترغب فى أن تصبح ضحية شهيرة. ولن تكون ضحية من أى نوع.

جلسنا إلى مائدة المطبخ، وكنت أسألها كيف تغير البلد. جاء زوجها ياكوف، وهو عالم نفس يوجد مكتبه فى البيت نفسه، ليرحب بنا ويسألنا ماذا نرغب أن نحتسى؟

كانت سمادار تحكى لنا عن دعوة إسحق رابين إلى واشنطن لها لكى ترافقه إلى البيت الأبيض، حيث سيصافح عرفات، ويجلس معه لإجراء مباحثات السلام. فى الدقيقة الأخيرة تراجعت سمادار. لم تقدر على مصافحة عرفات. قالت لرابين "أنت رجل سياسة، يجب عليك ذلك. أنا لا أستطيع". ولكن رابين أعلن فى ذلك اليوم فى البيت الأبيض أنه قد جاء من أجل صنع السلام باسم سمادار هاران.

أضافت: "الآن الأمر يختلف. حاول باراك منحهم كل شىء، وكانت إجابة عرفات هى البدء فى قتلنا."

اعترضت على كلامها قائلا "انتظرى لحظة. هل تقولين إن إسرائيل هى الضحية؟"

تدخل زوجها ياكوف فى الحوار معلنًا"سأذهب لإعداد بعض القهوة، لكن دعنى أتركك مع سؤال صغير وحاد. هل تعتقد أنه من الممكن أن نكون مكروهين دون سبب؟"

"هل تعنى أن العالم كله ضدنا؟"

هز رأسه، ليس من قبيل الرفض، بل لينفض عن رأسه اعتراضاتى. أصبح صوته جامدا وهو يقول: "انظر. دعنى أخبرك بشىء. لقد كنا بالنسبة لهتلر فاتحى شهية. أولا اليهود ثم أراد بعد ذلك أن يكون إمبراطورًا للعالم. ما زلنا فاتحى شهية لكن للإسلام الأصولى. وإن حدث ـ حاشا لله ـ وأصبح على إسرائيل أن تنحنى أمام الإرهاب، فلن نجد لنا مكانًا آمنًا على وجه الأرض. للأسف، للأسف والأسى، نحن مدرسة. نحن معمل، وأنتم تراقبوننا. فعندما اضطرت الولايات إلى مكافحة الإرهاب، وحاربت فى المدن، واستهدفت المدنيين، لم تكن أساليبها مختلفة كثيرًا عن أساليبنا".

لعله على حق. ربما جميعهم على حق، وهم مثلنا، أو نحن مثلهم أو ربما لسنا أفضل منهم. ربما نفعل ما يفعلون، أو أسوأ، ربما يفعل أى شخص ما يفعلونه.

تذكرت لقاءً آخر، هذه المرة مع رون بن يشاى، المراسل الحربى المتقاعد الذى سمع كل دقات طبول حروب إسرائيل. وأخذت أتحدث عن مقتل المدنيين فى الأراضى المحتلة. وسألته: ماذا حدث لأولاده؟ لكنه بدا وكأنه لا يسمعنى. قاطعنى بابتسامة مقتضبة قائلاً: "أهنئك، فقد نجحت السى آى إيه فى أول تصفية جسدية على طريقتنا".

وكان ما قاله حقا. ففى ذلك اليوم أطلقت طائرة بدون طيار تابعة للسى آى إيه صاروخًا على سيارة فى اليمن، وقتلت ستة أفراد ينتمون للقاعدة. (المهم أننا قلنا إنهم من القاعدة).

ربما نبوءة الكتاب المقدس القديمة صحيحة هى الأخرى: "سوف تصبح إسرائيل منارة الأمم". فى هذه الحالة، منارة أمنية تشع ضوءًا زئبقيًا ساطعًا لقد نجح عملاء السى آى إيه فى محاكاة إسرائيل فى القيام بالاغتيالات الملائمة. إن رجال الأمن لدينا يتعلمون على يد الشين بيت. وكما ذكرت صحيفة "جويش دايلى فورورد" فإن إدارة بوش ترسل بخبراء قانونيين للتشاور مع الإسرائيليين بشأن كيفية تبرير جرائم القتل. (فلقد أبلى الإسرائيليون بلاءً حسنًا فى هذا المضمار).

نحن نتعلم فى معمل صهيون القبيح. وهذا سبب آخر - وهو بالطبع أقبح الأسباب - للإجابة عن السؤال القائل: لماذا نهتم بشأن إسرائيل؟

الفصل الثانى
لماذا لا يكون لدى الفلسطينيين دولة؟

دعونا نبدأ بعرض موجز لما يحدث فى فلسطين. ويتجسد المعيار الأول لذلك فى الحاجة إلى القول بأن الفلسطينيين لم يتعلموا أبدًا من اليهود كيفية التحكم فى روايتهم القومية واستخدامها لتحقيق أهدافهم. ونتيجة لذلك، فإننا ببساطة لا نعرف قصتهم، وهو ما يعترف به غالبية الفلسطينيين بمزيج من الذهول والهلع. ولا يكتشفون أبدًا ولو للحظة واحدة السبب. مفضلين بدلاً من ذلك تفسير هذا "تمامًا كما يجرى تفسير كل شىء آخر" بأنه نتيجة للتأثير الدعائى الصهيونى الطاغى.

هناك حقيقة أولى وأساسية عاشت لأكثر من عشر سنوات هى أن المناطق الفلسطينية المحتلة هى مناطق "مغلقة". وهو ما عبر عنه قارئ إحدى الصحف بقوله بأنه يعتقد-دائمًا أن تلك الكلمة بمعنى كونها معزولة ومفصولة عن إسرائيل بفعل كتائب الدعاية الإسرائيلية (الهاسبارا). وكانت الفكرة "كما أوضحها الإسرائيليون" أن إسرائيل لم يعد باستطاعتها الوثوق بعد الآن بالفلسطينيين القادمين من الضفة الغربية وغزة للعمل داخل إسرائيل. وعلى ذلك، ويا للحسرة، سوف تحرم الهجمات الإرهابية الشريرة والمضللة، التى يحاول بعض الفلسطينيين شنها، الجموع الغفيرة من الشعب الفلسطينى من أفضل فرصة لديهم لكسب العيش. وفى ذلك التفسير - كما فى كل الدعاية الإسرائيلية الطيبة - قدر من الحقيقة الجديرة ظاهريًا بالتصديق (وهذا حتى يمكن أن يكون له معنى أكثر إنسانية لو شدد أنصار هذه الدعاية - كما فعل معظمهم - على عنصر العقاب

بقولهم: سوف نرى ما مدى شجاعتهم عندما لا يصبح لديهم أى طعام على موائدهم). وهذا صحيح بالتأكيد بدرجة كبيرة، حيث إن أكثر من مائة ألف من فلسطينيى المناطق المحتلة اعتادوا الحصول على أجورهم من العمل فى إسرائيل كل يوم. أما الآن فقد تم بدرجة كبيرة الاستغناء عنهم واستبدال عمال بهم من رومانيا ومولدوفيا وكولومبيا وأورجواى والفلبين وتايوان وتايلاند. وأصبحت الحياة فى الضفة الغربية وغزة أكثر فقرًا لدرجة اليأس.

ولكن صحيح أيضًا أن "الإغلاق" بمثل سياسة أكثر تعقيدًا وشمولاً وعقابًا من ذلك. وهى لا تعنى ببساطة الانعزال عن إسرائيل بقدر ما تعنى الانعزال عن العالم. فقطاع غزة، على سبيل المثال، مطوق تمامًا بالسياج ليس فقط من جانب إسرائيل ولكن أيضًا من جانب مصر (يتحكم الإسرائيليون فى عبور الحدود) والبحر الذى يطل عليه القطاع (حيث يمنع الإسرائيليون أو يسيطرون على الدخول والخروج من شاطئ غزة، بما فى ذلك عمليات الصيد المحلية) حتى من ناحية مطار غزة (الذى يسيطر الإسرائيليون عليه أيضًا).

وعلى جانب الضفة الغربية، تبنى إسرائيل "حاجزًا عازلاً". وهو ليس بحاجز فى الواقع، ولكنه عبارة عن حائط خرسانى هائل يبلغ ارتفاعه نحو عشرين قدمًا. وتمت إحاطة هذا الحائط الضخم نفسه (أو على الأقل الجزء الذى تم بناؤه بالفعل) بالأسلاك الشائكة وطرق أمنية على كلا جانبيه ونقاط للحراسة على طول امتداده البالغ أكثر من مائتى ميل. وهذا الحائط سوف يشطر فلسطين نصفين من الشمال إلى الجنوب ولكنهما ليسا متساويين. ولو نجح الفلسطينيون بطريقة ما فى تحقيق أهدافهم المعلنة بجعل إسرائيل تتنازل عن كل الأراضى التى تم احتلالها فى عام ١٩٦٧ والعودة إلى خط الهدنة فى عام ١٩٤٨ (أو الخط الأخضر كما يسمونه هنا). فإن الدولة الفلسطينية الجديدة سوف تشغل فقط اثنين وعشرين بالمائة من أراضى فلسطين أيام الانتداب ، أى نحو خمس الأرض من نهر الأردن إلى البحر. والآن مع هذا الحائط الجديد تضع إسرائيل يدها فعليًا على مساحة آكبر. فالحائط غير مقام على أرض إسرائيلية، ولكن على أراض تمت مصادرتها مؤخرًا من الفلسطينيين. ويجرى الجزء الأكبر من امتداده

بمسافة كبيرة إلى الشرق من الخط الأخضر القديم، وبذلك تزداد مساحة إسرائيل من الناحية الفعلية. وعندما يمر الحائط بجوار مستوطنات يهودية فإنه ينحرف إلى الخارج حيث يضم أراضى تلك المستوطنات إلى داخله، وبالتالى يضمها إلى السيطرة الإسرائيلية. وإذا مر بالقرب من قرى فلسطينية فإنه يفصل أراضيها الزراعية عن القرية نفسها ، أو يقتطع القرية بأسرها كما هى الحال بالنسبة لسبع عشرة قرية "حتى الآن" وذلك فى نوع جديد من الأراضى المشاع التى لا تتبع أحدًا بين الحائط والخط الأخضر.

تزعم الدعاية الإسرائيلية (الهاسبارا) أن هذه ليست محاولة وضع حدود جديدة "لحقيقة واقعة على الأرض" ولكنها فقط طريقة جديدة لقطع دابر الهجمات الإرهابية. ولكن المهندس الرئيسى للحائط آرييل شارون أعلن عن توسيع ما للمشروع، ويعنى بذلك أن جزءًا جديدًا من الحائط الكبير سوف يفصل الشمال عن الجنوب عن طريق حائط آخر يتم بناؤه على الجانب الشرقى من الأراضى الفلسطينية بمحاذاة نهر الأردن، بمعنى آخر بين فلسطين ودولة الأردن (حيث لا توجد تسللات إرهابية. أو لا يوجد أى شىء منها بأى حال من الأحوال بالقرب من إسرائيل) مما سيؤدى إلى تطوق الضفة الغربية بكاملها (يذكر أن قطاع غزة مطوق تمامًا بالفعل) وخلق جيتو مثالى.

حتى ذلك لا يعنى نهاية سياسة الإغلاق، لأن جيتوهات غزة والضفة الغربية تجزئها أيضًا إغلاقات فى داخلها من خلال مجموعات متفرقة من نقاط التفتيش والحواجز والمتاريس التى تستطيع منع الإنسان الفلسطينى "أى فلسطينى" من التحرك على سبيل المثال ما بين نابلس والخليل، أو الانطلاق دون مضايقة من بيت لحم إلى رام الله أو من خان يونس إلى مدينة غزة، والخلاصة أن الفلسطينيين لا يستطيعون الذهاب إلى أى مكان. وحتى عندما تعلن إسرائيل عن "انسحاب" لقواتها من مدينة فلسطينية ما، فإن هذا لا يعنى إزالة نقاط التفتيش الموجودة حول المدينة. ولذلك فالفلسطينيون عبارة عن سجناء ، وإن سجنهم يتسع أكثر فأكثر. وهذه الإغلاقات الداخلية لها تأثير اقتصادى خطير مثل خطورة العزل عن إسرائيل. فالعامل القادم من بيت لحم لا يستطيع الذهاب

إلى عمله فى القدس الشرقية وسريعا ما يصبح بسرعة دون عمل. الشىء نفسه يحدث بالنسبة للفلسطينى الذى يعمل بالتجارة بدلاً من الوظيفة التى فقدها. فذلك الرجل لا يستطيع الوصول إلى زبائنه كما أنهم لا يستطيعون الذهاب إليه، فهل نحن بحاجة إلى السؤال عن الوضع الاقتصادى؟

إن الإحصائيات تذهب العقل، فلا أحد فى العالم المتقدم يمكنه أن يدرك ما تعنيه هذه الأرقام. قدر البنك الدولى الكلفة السنوية لسياسات الإغلاق بما يتراوح تقريبًا بين ١١٪ و١٨٪ من إجمالى الدخل القومى فى الضفة الغربية، وما بين ٣١٪ و٤٠٪ فى قطاع غزة وذلك فى الفترة ما بين عام ١٩٩٤ وعام ١٩٩٦. وقدرت البطالة بين الفلسطينيين بعد عملية إغلاق تام فى شهرى مارس وأبريل عام ١٩٩٦بنحو ٦٦٪ .

وفى عام ٢٠٠٠عندما بدأت الانتفاضة الثانية، أصبح الوضع أكثر سوءًا، فقد زاد عدد الفلسطينيين الذين يعيشون تحت خط الفقر إلى نحو٥٠٪ فى الشهور الأربعة الأولى من الانتفاضة. ولم يكن فقدان العمل فى إسرائيل هو فقط السبب. فقد أصاب الإغلاق الدائم والكامل المشروعات الإنتاجية الفلسطينية فى مقتل (نظرًا إلى أن الآلات والمواد الخام تأتى كلها من إسرائيل). بالإضافة إلى ذلك، تمت إزالة ١٨١ ألف شجرة من المزارع الفلسطينية، وتدمير ٣،٧مليون متر مربع من الأراضى الزراعية وهكذا بعد ثلاثة أشهر أخرى، تضاعفت أرقام الفقر مجددًا: فقد كان ثلثا الفلسطينيين يعيشون تحت خط الفقر، ووصل ذلك الرقم إلى ٨١٪ فى قطاع غزة. وتقول الصورة الرسمية للفقر إن أسرة مكونة من أب وأم وأربعة أطفال يبلغ متوسط ما تنفقه أقل من (٢،١٠) دولارين وعشرة سنتات فى اليوم.

وها هنا بعض الآثار على مستوى إنسانى أكثر، حقائق وانطباعات تلازمنى. فلقد سمعت للمرة الأولى عن حالات انتحار فلسطينية، ليس أولئك الذين يقومون بتفجيرات انتحارية، ولكنها فقط حالات انتحار وللمرة الأولى رأيت سوء التغذية بين الأطفال الفلسطينيين، وسمعت معلمين أخبرونى عن أطفال لا يستطيعون الذهاب إلى المدرسة (حتى عند السماح بفتح المدارس)، وذلك لأنهم

جوعى أو لأن عائلاتهم لا تجد ما تسد به رمقها ، وعن أطفال خرجوا إلى العمل وهم فى سن الثامنة. ولأول مرة فى حياتى العملية أنتهك كل القواعد الصحفية عندما قمت فى نهاية أحد لقاءاتى بالبحث فى جيوبى وإعطاء كل ما وجدته فيها من أموال إلى الرجل الذى التقيته للتو، وقد تقبلها الرجل على الرغم من الإحراج الذى بدا على كلينا. وعلى كل فالإحصائيات التى فهمتها على أفضل وجه تقول إن البنزين يأتى من إسرائيل، وإنه يتطلب نقوداً. ولذلك، ارتفع ثمن الحمار فى غزة بنسبة ٥٠٠٪.

وأرى أن الآثار الاقتصادية أسوأ كثيرًا لأنها تضرب صميم المجتمع الفلسطينى المتمثل فى الشعور بالاحترام. ويبدو أن سلوك الاحتلال الإسرائيلى مصرّ على القضاء على هذا الشعور بالاحترام ، وغيابه يشكل مصدرًا للخزى والعار. فلا أحد يستطيع تحمل الوقوف عشرين دقيقة أمام نقطة تفتيش فى الضفة الغربية التى تعتبر جزءًا صغيرًا من آلية الإغلاق ، دون رؤية الذل فى أعين السكان والخزى بالنسبة لكل من قوات الاحتلال والمحتلين.

فما نقطة التفتيش؟ هذا السؤال الصغير هو لب الموضوع، لأنه يعنى أى شىء يقوله الجيش الإسرائيلى أو قوات حرس الحدود الإسرائيلية، أيا كان هذا الشىء. وبعض العوائق على الطرق الرئيسية المؤدية إلى القدس التى لها سمة الثبات والديمومة، مع غرف صغيرة للجنود وعربات نصف مجنزرة محصنة بأكياس من الرمل منتشرة لقتل المهاجمين والقضاء عليهم. فإذا كان الجنود فى حالة مزاجية هادئة، فإنهم يكتفون بإلقاء نظرة سريعة داخل سيارتك ويسألونك عن أوراقك (أو ربما لا يسألونك عنها) ولا يظهر منهم أى خوف أو عداء أكثر مما لدى خاتم الجوازات فى المطارات. أما إذا كانوا فى حالة عصبية فإنك ربما تتوقف هناك ساعات.

وهناك نقاط تفتيش كثيرة أكثر وضاعة تستخدم كل الوسائل المتاحة سواء مجموعة من البراميل أو الحواجز البلاستيكية فى الطريق مع أمر مكتوب بالإسبراى وباللغة العبرية على قطعة من الخشب (إذا كانت هناك أى إشارة على الإطلاق) بالتوقف هنا أو إظهار إثبات الشخصية وجملة واحدة شاملة لإطاعة أى

أمر ، وهى كلمة "تساهال TSAHAL" العبرية التى تعنى "الجيش" ، وفيما يتعلق بما يفترض عليك عمله، فإن الجنود سوف يتولون ترتيب ذلك بينما يؤدون عملهم، فإذا كنت فلسطينيًا فلابد من التوقف وهذا شيء مؤكد، حتى إذا لم يطلب منك أحد أن تتوقف، أو لم يقل لك أى شيء على الإطلاق. (إذا لم تبد اهتمامًا وواصلت طريقك فمن الممكن جدًا أن يطلقوا عليك النار). ولابد أن تتوقف إذا كنت سائرًا على قدميك أو كنت تقود سيارة أو كان الجو باردًا أو حارًا أو كانت السماء تهطل مدرارًا قف، حتى إذا كان أولادك جوعى ويصرخون فى المقعد الخلفى أو إذا كانت حمولتك من الطماطم فى طريقها إلى التعفن فى أشعة الشمس أو جاء المخاض لزوجتك وهى تئن فى طريقها إلى المستشفى. عليك أن تتوقف إذا كان الجنود يتناولون غذاءهم ولا يمكن ببساطة إزعاجهم. وعندما يلتفتون إليك فإنهم يرغبون أحيانًا فى رؤية تصريح السفر الخاص بك، وإذا لم يكن لديك واحد فربما يعنى هذا بضعة أيام أخرى من الإذعان والانتظار فى مركز شرطة إسرائيلى. وأحيانًا قد يرغب الجنود فى أخذ بطاقة إثبات شخصيتك و"فحصها" ، ومضاهاتها بقائمة مطبوعة بأسماء مثيرى الشغب، أو نقل بياناتك عن طريق اللاسلكى إلى الشرطة السرية التى تقرر بعد بعض التأخير ما إذا كنت مثيرًا للشك أو لا. وسواء هذا أو ذاك فإنك لا تستطيع التحرك إلا بعد أن تستعيد بطاقتك الشخصية. وأحيانًا يدعونك إلى الجلوس على حجارة تغطيها قذارة أو طين حيث يجلس بالفعل كثيرون آخرون أحيانًا ساعات. وأحيانًا يقوم الجنود بتوقيفك على مسافة خمس وعشرين قدمًا ويشيرون بأسلحتهم نحو مقدمة قميصك، وهو ما يعنى أنهم يريدون منك تعرية نصف جسمك العلوى لرؤية ما إذا كنت تحمل حزامًا ناسفًا أو لا. وأحيانًا يرغبون فى النظر إلى أجزاء أخرى منك، أو تحسسك سواء كنت ذكرًا أو أنثى. ويجب عليك أحيانًا نزع ملابسك بأكملها ، فى الغالب إذا اشتبهوا فيك، أو إذا أظهرت ضيقًا من هذه الإجراءات. أعرف ناظر مدرسة ، وهو رجل متقدم فى السن وجليل، كان يمر بنفس نقطة التفتيش كل صباح فى طريقه إلى المدرسة، وقد جعلوه يخلع ملابسه، ليس مرة واحدة ولكن مرات عديدة ، وكان يقف عاريًا بينما

تلاميذه يمرون به. ومن الطريف أن ذلك الرجل العجوز كان لديه "فيما سبق" إحساس قوى بمدى الشرف والاحترام اللذين يتمتع بهما مركزه.

إن القاعدة البسيطة المجردة هى أنه لا توجد قواعد، أو أنه ليس هناك القواعد نفسها التى كانت موجودة فى اليوم السابق. فعليك فقط أن تراقب وتطيع، هذا كل ما فى الأمر. ووظيفة نقاط التفتيش هى إظهار من الذى بيده زمام الأمور. كان لى صديق روسى مهاجر حديثًا إلى إسرائيل ويعمل جنديًا ويقيم فى تل أبيب. وقد حاول ذلك الصديق أن يشرح لى (بشكل رقيق وباللغة الإنجليزية لغته الثالثة) أهمية إيقاف بعض الأشخاص حتى لو لم يكونوا يخططون لأى عمل إجرامى. والسبب فى ذلك كما قال لى هو الوضع السيئ، مشيرًا إلى أنه لو كان الفلسطينيون يتصرفون على أنهم الأخيار والإسرائيليين هم الأشرار، فإن على الإسرائيليين أن يظهروا لهم أنهم هم المسيطرون والمتحكمون.

كان لى صديق فلسطينى من رام الله يدعى غسان الخطيب، ربما يكون قد وصلت سنُّه الآن إلى الخمسين. وعندما التقيته كان رئيس اتحاد طلبة جامعة بير زيت. وذات يوم مرضت أمه وكان عليه أن يزورها فى نابلس. ولكنه لم يستطع الانتظار لتقديم طلب والحصول على تصريح الانتقال من الإسرائيليين. ولذلك كان عليه مراوغتهم والتملص منهم. والمسافة من رام الله إلى نابلس لا تزيد على ثلاثين ميلاً يمكن أن تقطعها السيارة فى أربعين دقيقة. ولكنه بالقطع لم يكن يستطيع أن يستقل سيارته أو سيارة أجرة. وبدلاً من ذلك سافر على قدميه، وكان أحيانًا يلتمس من أصحاب السيارات الركوب معهم، إلى أن يقترب من نقطة تفتيش فيترك الطريق الرئيسى ويسير عبر القرى والحقول والوديان للدوران حولها، كثير من الأشخاص يفعلون هذا. فالإرهابيون، على سبيل المثال لا يمرون من خلال نقاط التفتيش.

وعلى كل حال فقد نجح فى الوصول إلى نابلس. وحكى لى غسان أنه عندما اقترب من نابلس كان قد استقل ست وسائل نقل منفصلة وقضى الكثير من الوقت سائرًا على قدميه. ولكنه لم يضطر إلى التعامل مع الإسرائيليين سوى مرة واحدة. فقد كان سائرًا على طريق يمر عبر وادى مجرى نهر جاف عندما أوقف

تقدمه مرتفع عالٍ من الأوحال والحجارة. فقام غسان بتسلقه وهو مرتد حذاءه العادى زاحفًا إلى القمة. وعندما وصل إليها تسمر فى مكانه. فعلى مسافة عشرين قدمًا تقريبًا كان هناك مرتفع آخر تقف عليه عربة مدرعة إسرائيلية ناقلة للجنود. وكانت فوهة مدفعها مصوبة نحو صدره. وأصدر إليه جندى إسرائيلى أمرًا باللغة العبرية لم يفهمه غسان. فأشار له الجندى بيده ببعض الإشارات كما لو كان يرفع أطراف قميصه. ولكن غسان ظل جامدًا فى مكانه. فقال له الجندى باللغة العبرية: ماذا بك، أتشعر بالخجل؟ فقال له غسان: لا. فقام الجندى بنفس الحركات مرة أخرى. ولم يتحرك غسان. وسادت لحظة صمت كان من الممكن أن تكون نهاية رحلته أو حياته. وفى النهاية هز الجندى كتفيه فقط، ونظر إلى غسان متعجبًا وأشار إليه بماسورة بندقية نصف آلية بالذهاب فى سبيله. ومضى غسان إلى أمه فى نابلس. واستغرقت منه الرحلة أربع ساعات. و أصبح غسان الخطيب فيما بعد وزيرًا للعدل فى الحكومة الفلسطينية.

وهناك الكثير من القصص التى لا تنتهى هذه النهاية السعيدة. من بينها قصة يوسف أبو عواد الذى صادفه حظ عاثر عند نقطة تفتيش خارج قريته فى التلال القريبة من الخليل. ففى السادس عشر من نوفمبر عام ٢٠٠٠ وفى نحو الساعة السابعة مساءً، كان يوسف وبصحبته أحد أصدقائه عائدين من عملهما بالسيارة. وكان على يوسف المرور بإحدى نقاط التفتيش. كان يوسف من ذلك النوع من الرجال الذى لا يكف عن العمل، حيث كان فى ذلك اليوم يقود حفارًا. وحينما يكون ذلك متاحًا، كان يعمل على أداة لقطع الأشجار لصالح مديرى الغابات الإسرائيلية بإشراف الصندوق القومى الإسرائيلى (كيرن كيميث). (إنهم أولئك الأشخاص الذين اعتادوا أخذ قروشى القليلة لزراعة أشجار الصنوبر). فى تلك الليلة - السادس عشر من نوفمبر - كان يوسف مضطرًا للعودة سريعًا إلى المنزل، لأن شقيقه غازى سيلتقيه هناك، وعلى ذلك سوف يقلان شقيقًا آخر لهما من عمله. (إن أرباب الأسر الفلسطينية يكادون يكونون الوحيدين من بين شعوب الأرض الأكثر التزامًا من اليهود فى هذا الشأن). ولكنه لكى يصل إلى منزله، عليه بالطبع أن يمر بنقطة التفتيش.

ولكنه لم يصل إليها، فعلى مسافة مائتى متر من نقطة التفتيش على الطريق السريع رقم ٦٠ المؤدى من الخليل إلى بيت لحم والقدس، ظهر ستة جنود، ثلاثة على يمين السيارة وثلاثة على يسارها وأمروا يوسف بالتوقف. من يعلم ماذا يخططون له؟ أهى سياسة وقائية جديدة أن يتفقدوهم قبل الوصول إلى نقطة التفتيش؟ لم يكن يوسف يعلم لماذا. فالبلدة كان يخيم عليها الهدوء ، ولكنه بالطبع لم يكن بمقدوره أن يطرح السؤال. أمروه بالنزول من السيارة، ثم أخذوا بطاقتى الهوية من يوسف وصديقه، وأمروه بالعودة إلى السيارة. جلس طويلاً فى السيارة، ولم يكن هناك أى شىء يدعو إلى التفاؤل، ربما باستثناء أنه يعرف التحدث بالعبرية.

ربما كان ذلك لسوء حظه. بدأ أحد الجنود فى قذف السيارة بالحجارة. لم تكن هناك وسيلة لمعرفة ماذا ألم به. ربما كان يرد الجميل الذى يدين به لبعض الأطفال فى وقت سابق. أو ربما مر بيوم عصيب، والفضل فى ذلك لزوجته دائمة الشجار، من يدرى؟ إنه حظ عثر. قفز يوسف من السيارة. كانت سيارة مستأجرة. سوف يكلفه الأمر ثروة لإصلاح هذه الانبعاجات. صاح فيه بالعبرية "ماذا تفعل؟ لماذا تثير المتاعب؟ توقف!"

"أغلق فمك يا ابن العاهرة. عد إلى السيارة ولا أريد أن أسمع صوتك القبيح".

"لست أنا من يتحدث بطريقة سيئة. أنت هو صاحب الحديث القبيح". عاد يوسف إلى السيارة. ولكنه لم يستطع أن يجعل الأمر يمر فى هدوء. كان يعترض: "لقد أردت هويتينا، وأعطيناك إياهما! ليس هناك حظر تجوال. وليست هناك تظاهرات. إنك الوحيد الذى تلقى بالحجارة!"

"اخرس يا ابن العاهرة، وإلا فسوف أرميك بالرصاص فورًا".

"أتريد إطلاق النار علىَّ، تفضل! أنت ابن العاهرة الذى يثير المتاعب".

أطلق الجندى النار عليه من مسافة أربع أقدام تقريبًا. كان رصاص بندقيته من النوع الذى ينفجر داخل الجسم. وفى المشرحة كان وجه يوسف سليمًا تمامًا

ولكن أعلى جبهته وجمجمته وشعره لم يصبح لها وجود. كان يوسف فى الواحدة والثلاثين من العمر. وقد ترك خلفه زوجة فى الخامسة والعشرين وابنة فى السادسة وابنًا فى الخامسة.

وفقًا لشهود عيان، وصل ضابط إلى موقع الحادث بسرعة فى سيارة جيب ووبخ الجندى قائلاً "هل فقدت عقلك؟ لماذا كان عليك أن تطلق النار عليه؟ ماذا كان يستطيع أن يفعل بك؟ ثم أمر الجنود الآخرين بأخذ سلاح الجندى واصطحابه فى السيارة الجيب وانصرف. ولكن عندما قامت عائلة يوسف (بمساعدة جماعة "بتسليم" الإسرائيلية لحقوق الإنسان) بتقديم شكوى وبدء تحقيق، اتضح أنهم اتهموا يوسف بمحاولة خطف سلاح الجندى، ولذلك كان إطلاق النار دفاعًا عن النفس. فلماذا يقوم رجل أعزل ليس له سجل سابق بارتكاب أعمال عنف أو المقاومة، فجأة بمواجهة قوة مكونة من نصف دستة من الجنود المسلحين تسليحًا جيدًا، ومحاولة انتزاع سلاح أحد الجنود؟ حسنا، لا يمكن توقع أن يقدم الجيش تفسيرًا لكل شىء صغير. وأعلن أحد المتحدثين الرسميين أنه من الممكن أن يكون يوسف إحدى تلك الحالات المحزنة التى تعانى من مشاكل نفسية عميقة كانت مختفية فى السابق.

هكذا تجرى الأمور فى فلسطين: أن شعبًا عربيا متعلمًا ومثقفًا ـ يزيد تعداده على ثلاثة ملايين نسمة ـ يتعرض للإذلال. وهؤلاء هم آخر الفلسطينيين المتشبثين بوطنهم. (هناك ملايين آخرون حول العالم فى شتات يذكرنا بالشتات اليهودى "والمشكلة اليهودية" التى قامت إسرائيل من أجل حلها). وهؤلاء هم الفلسطينيون الذين لم يفروا أو لم يستطيعوا الفرار. إنه العهد الذى أخذوه على أنفسهم وانتصارهم (كما قد يطلق عليه) بأن يبقوا رغم كل شىء.

ومن الناحية الاقتصادية، يجرى دفعهم بشكل ثابت وخطة واضحة إلى العيش فى ظل عصر ما قبل الصناعة. وأى جزء من أراضيهم يرغب فيه محتلوهم من الممكن أن يؤخذ منهم فى أى وقت، لأغراض عسكرية أو لإقامة مستوطنات أو لإنشاء نطاق أمنى أو طريق أو سياج. وطوال معظم فترات الاحتلال، لم يحظ أى شىء بناه الفلسطينيون بالصفة القانونية فى المحاكم الإسرائيلية ، ولذلك لا

شىء يبنى من أجل الخير. والفلسطينيون بشكل أساسى شعب أعزل. لا يملك قوة عسكرية تستحق أن يطلق عليها هذا الاسم. لا مدرعات ولا مدفعية ولا سفنًا حربية ولا طائرات، وذلك فى مواجهة يومية ضد جيش من أفضل جيوش العالم. علاوة على ذلك، هذا الجيش الذى يواجهونه يخدم سياسة مصممة لتعويق وتنغيص الحياة المدنية اليومية. التى تمثل أبسط حقوق وواجبات الوجود الإنسانى، مثل ذهاب المرء حيثما يريد أو بناء منزل أو تكوين أسرة أو كسب الرزق. وإذا اعترض أحد الفلسطينيين على هذه العوائق بشكل أكثر من اللازم أو بعنف أو بضجيج زائد، فربما تتم مصادرة أملاكه أو حريته أو حياته دون أى قيد وبلا ثمن فى أغلب الأحيان.

ومن الناحية السياسة لشعب وقضية، يجد الفلسطينيون الدعم من جانب مائة دولة. هذا إلى جانب أن خمسة شيكلات يمكن أن تشترى فنجانًا من القهوة فى القدس، هذا إذا سمح الإسرائيليون لهم بالذهاب إلى هناك. وطوال معظم الفترة التالية لعام ١٩٤٨ وضع الفلسطينيون ثقتهم فى دعم أشقائهم العرب الذين أخذوا على أنفسهم عهدًا باسترداد الأرض المقدسة (عن طريق غمرها بدماء اليهود)، وفى الخطط العربية المنمقة لاستئصال شأفة "الوجود الصهيونى الإمبريالى" (كانت كلمة إسرائيل كلمة محرمة) من على وجه الأرض. ولكن التعهدات والخطط لم تكن أيضا تساوى الكثير فهى جزء كبير من الإجلال لمقاتليهم (وعدم الرغبة فى انتقاد القادة أو المحاربين المقدسين أو الشهداء الانتحاريين أيا كان الاسم الذى يطلقونه على أنفسهم، وبغض النظر عن مدى غبائهم) حيث إن التاريخ الفلسطينى يميزه ويدفعه نوع من الشعور بالخجل والخزى: فطوال خمسين عامًا ورغم خسارة الفلسطينيين لأرضهم، فإنهم فى الواقع لم يقاتلوا أبدًا دفاعًا عن أنفسهم. لم يكونوا مزودين بالسلاح (فمن يمكنه ذلك؟) وبدا أنهم لا يعرفون كيف يقاتلون. على سبيل المثال، فى حرب ٦٧، التى فقد فيها الفلسطينيون الاثنين وعشرين فى المائة المتبقية من وطنهم، أصابت الدهشة القوات الإسرائيلية التى وصلت لغزو واحتلال نابلس لأنها لم تواجه أى مقاومة على الإطلاق، بل على العكس وجدت الترحيب من الآلاف (المدينة كلها

خرجت للترحيب بهم) إلى أن حاول جندى إسرائيلى نزع بندقية كان يحملها أحد الأهالى. وعندئذ فقط اكتشف الفلسطينيون أن هذه القوات ليست قوات عراقية. والآن لا أحد فى فلسطين ينتظر الإنقاذ سواءً بواسطة العراقيين أو غيرهم. والواقع أنه لا يوجد فلسطينى واحد لم يدرك أن "المساندة" من حكومات العالم العربى، وكل ذلك التباكى الرسمى على نكبة فلسطين كان الغرض منه فقط تحويل الانتباه بعيدًا عن إخفاقات تلك الحكومات داخل بلادها. وكل بضعة أعوام يجتمع الزعماء العرب فى قمة طارئة للتعهد بتقديم المساعدة (هذه الأيام بالدولارات، مليارات الدولارات) لفلسطين. ولكن جانبًا كبيرًا من هذه الأموال لا يأتى أبدًا. أما بالنسبة للأسلحة والدبابات والطائرات والقوات فإنها ببساطة ليست على جدول الأعمال. والقوة العظمى التى اعتادت تسليح وتشجيع العرب (وضع الفلسطينيون مثل معظم "أشقائهم" العرب قدرًا كبيرًا من الثقة فى القوة السوفيتية) لم يعد لها وجود. والآن تسدى النصائح للفلسطينيين بالتحول والثقة فى القوة العظمى الأخرى، كوسيط بينهم وبين الإسرائيليين. وهى الولايات المتحدة الأمريكية تلك التى هاجموها وشجبوها، والتى كانت ولا تزال الحصن الحصين لعدوهم، والتى لا تريد من الفلسطينيين شيئًا أكثر من التزام الصمت والتوقف عن تعقيد السياسة الأمريكية.

وعلى ذلك، فمن الذى سيدافع عن فلسطين؟ حسنًا، هناك حكومة الشعب الفلسطينى الذى لم يسأله أحد أبدًا عما إذا كان يريد تلك الحكومة التى يقودها (طوال حياته كما يبدو) ياسر عرفات الرئيس الفلسطينى وزعيم منظمة التحرير الفلسطينية. تحتفظ حكومة السيد عرفات بالسيادة فى فلسطين منذ عشرة أعوام تقريبًا. وهى نفس الفترة الزمنية التى تمتد منذ قدومه إلى فلسطين. ومع حلول عام ١٩٩٣عندما بلغت قيادته لمنظمة التحرير الفلسطينية ربع قرن من الزمان، تعرض عرفات وكوادره للنفى ليس فقط من الوطن المقدس، ولكن أيضًا من كل جيران إسرائيل. ودخل غرفة التجميد وطواه النسيان فى تونس. ثم قرر إسحاق رابين صنع السلام وبعد ذلك، تمامًا كما فى "الجمال النائم"، قام بمنحه قبلة الحياة (فى الواقع كان ذلك مصافحة باليد فى حديقة البيت الأبيض) فاستيقظ عرفات وعاد إلى الحياة.

لم يكن زواجًا رائعًا. فقد قتل رابين بسبب تلك القبلة. أطلق عليه قاتل متطرف النار فى مسيرة من أجل السلام فى تل أبيب. أما عرفات الذى استقبل استقبال الأبطال عند وصوله إلى غزة والضفة الغربية (ربما ظنوا أنهم العراقيون). فقد أحضر معه عصبة من قطاع الطرق واللصوص الذين قاموا سريعًا بتشكيل حكومة السلطة الفلسطينية، حيث بدوا كالجراد لا تميزهم فقط إلا أعدادهم وكم ما يأكلون. ويطلق الفلسطينيون المحليون على هؤلاء القادمين الجدد الشرهين لقب "التوانسة". ومهمة الحكومة الرئيسية هى قمع "الخونة". وإذا حدث أن صادفت أحد هؤلاء "التوانسة" (إن لم يكن مستقلاً سيارته اللامعة أو قابعًا فى فيلته الجديدة) ، أو إذا كنت فى نزاع مع أحدهم ، أو لم يتم الوشاية بك لديه أو إلى الشرطة السرية بوصفك منافسًا سياسيا محتملاً. أو منافسًا اقتصاديا لبعض المحتكرين "التوانسة" أو (وهو الأسوأ من كل شىء) متعاونًا مع اليهود. فإنهم سوف يشوون لحمك، فهم أسوأ من الإسرائيليين.

لقد تم استدعاء عرفات إلى فلسطين لكى يقيم لشعبه دولة، وحكومة تعمل من أجله. ولكنه بدلاً من ذلك خلد إلى الراحة وأولى اهتمامه (من أطلال مقره الذى تحاصره الدبابات الإسرائيلية) فقط لنفوذه وسلطته ومكاسبه التى يعتبرها هى والحكومة شيئًا واحدًا. وتركت عزلته الناعسة باب القيادة مفتوحًا على مصراعيه أمام الإسلاميين. وأجهضت الدولة التى كان من المفروض أن يؤسسها - رغم أنه لم يعلم ذلك أبدًا. فبعد توقيعه إعلانًا للمبادئ مع رابين، لم يمض عام إلا وأقنعه مستشاروه بأنه لم يحصل بعد على دولة. وكان عرفات قد قرأ فقط الأجزاء المتعلقة فقط بكونه رئيسًا. (جاءت تلك المعلومات من محمود عباس الذى تم فى النهاية "بشكل متأخر جدًا بعد أن تغيرت الأمور" تعيينه رئيسًا للوزراء وتكليفه بمهمة إطفاء بريق حكايات عرفات وقصصه القديمة المملة).

هناك حقيقة تاريخية كبرى، وهى الأكثر غرابة ومدعاةً للحزن من كل الحقائق، وتتمثل فى أن الفلسطينيين هم أقرب الآن من أى وقت مضى إلى تحقيق طموحهم بالحصول على دولة. وهذا نوع من العزاء والمواساة الكئيبة يذكرنى بنكتة فلسطينية يقول فيها شخص جريح لشخص آخر يحتضر فى

الفراش المجاور له فى المستشفى: حسنًا، "تلك هى عملية السلام". بالطبع عندما تسأل الفلسطينيين عن السبب فى أنهم آخر شعب فى العالم ستكون له دولة فإن الإجابة تتلخص فى كلمة واحدة: إسرائيل. ولكن القرقيز والطاجيك والأوزبك والتركمان والجورجيين لكل منهم دولة الآن، وكانت أمامهم مشكلة صغيرة مكونة من كلمة واحدة: روسيا، ولكنهم نجحوا فى النهاية. حتى الأكراد تعيسو الحظ ربما تكون لهم دولة قبل الفلسطينيين. فلماذا؟ هل كان هناك سبب لاعتقاد العالم بأنه من الممكن وضع اليهود فى فلسطين بدلا من العرب الموجودين هناك؟ ولماذا تكون الاثنتان والعشرون بالمائة الأخيرة من فلسطين هى محل إقامة أطول احتلال بالقوة فى التاريخ الحديث؟

إن الفلسطينيين شعب مضياف يستقبلونك بلطف جميل وبكرم وافر تجاه الضيوف اختفى من أماكن أكثر تحضرا. وبغض النظر عن ظروف مضيفك- حتى فى أبسط منازل أكثر العائلات كربًا فى مخيمات اللاجئين - سوف يستقبلونك بالترحاب ويدعونك إلى الجلوس فى أحسن الغرف التى تصطف فيها المقاعد أو وسائد على الأرض فى بعض الأحيان حيث تجلس القرفصاء ويقدمون لك الشاى وربما يليه مشروب خفيف أو قهوة أو فاكهة قد يقطعها مضيفك إلى شرائح ويقدمها إليك فى طبق أو مباشرة من نصل السكين بينما تتحدث. وإذا فرغت من مشروب أو طبق فسوف يصلك آخر، بلح أو تين أو بندق والمزيد من الشاى. حتى موعد تناول الوجبات وحينئذ سوف يدعونك للبقاء بالطبع.

وسوف يسألك مضيفك عن صحتك وأحوالك، ليس مرة واحدة، لأن ذلك سوف يكون تعبيرًا عن عدم الحماسة، لكن مرات عديدة للإشارة إلى اهتمامه بذلك. فإذا أردت استكشاف شىء ما عن واقعة أو قصة أو موقف معين وهناك أناس آخرون قد يفيدونك فى هذا، فإنه سوف يرسل ابنه أو ابن الجيران لإحضارهم.

وربما يأتى أيضًا أخ للمضيف أو صديق حميم له للترحيب بك. وكل هؤلاء مدعوون للانضمام إلى حلقة الشاى على الرغم من أنهم قد لا تكون لديهم معرفة بموضوع النقاش حيث يطوفون على الموجودين مصافحين لهم ثم يجلسون فترة

مناسبة لكى لا يزعجوا المضيف أو الضيف. ويمكنك أن تبقى كما تشاء. (كانوا يطلبون منى فى الغالب قضاء الليل خوفًا منهم على سلامتى عند نقاط التفتيش المظلمة). ولكن إذا أردت الرحيل فإن مضيفك سوف يصطحبك لكى يتأكد بنفسه أنك تمضى آمنًا إلى بيتك أو إلى وجهتك التالية.

هذا اللطف أو الكرم ليس ببساطة فقط مسلكًا حميدًا. وليس له دخل بمن تكون أو ما وضعك فى العالم؟ إنه رؤية مضيفك ونظرته إلى نفسه ، لواجباته وشرفه. يقول الإسلاميون إن واجبات الضيافة هذه (وكل الفضائل العربية الأخرى) هى أشياء أمر بها القرآن ودليل على حسن إسلام المرء. ولكن هناك عائلات فلسطينية مسيحية وعائلات درزية استضافتنى أيضًا بمثل ذلك الكرم واللطف. فاللطف والكرم تجاه الغرباء هى سمات حضارية بالنسبة للعربى تمثل جانبا كبيرًا من الأساس الذى تقوم عليه الذات والمجتمع. وهذا هو الهدف الأسمى، إنه موضوع يتعلق بالشرف والكرامة.

ومن السهل على أى عربى التمتع بالإحساس الفلسطينى القديم والساحر والغريب جدًا بالشرف. وقد سمعت جيلين من المسئولين الصحفيين الإسرائيليين يصفون الفلسطينيين باللطف والأدب ، وأدى ذلك إلى تعاطف جماعة بعد أخرى من المراسلين الغربيين مع القضية الفلسطينية. ولكن من الصعب علٰى أى غربى (ويبدو مستحيلاً فى نظر الإسرائيليين) أن يصدق أن الشرف مطلب ضرورى. وعندما تتعارض قوة أعلى القانون أو القوة المسلحة، أو الفطرة السليمة أو المصلحة الذاتية أو السلامة الشخصية مع الشرف، فعندئذ ينتصر الشرف الذى يعتبرونه فوق كل شىء. وهذا هو أحد أسباب عدم التوصل إلى السلام. فأى سلام لا يتم بشرف لن يكون مقبولاً لديهم. وإذا تم فرضه أو قبوله بالقوة فلن يكتب له البقاء. ولن يتم فهم أى شىء دون إدراك قيمة الشرف لديهم.

ومن متطلبات الشرف العربى التى يعرفها الإسرائيليون ويتحدثون عنها موضوع "القتل بدافع الشرف". وهو يتصل بالإناث، إذا تم اكتشاف أن إحداهن

غير عفيفة. على سبيل المثال إذا مارست الجنس قبل الزواج وحملت أو حتى إذا تعرضت للاغتصاب ولو كان ذلك بواسطة أحد أفراد عائلتها (وهذا يحدث أيضًا) أو إذا شهد شخص ما على سلوكها المنحرف، أو إذا دار ببساطة كلام أكثر من اللازم وإشاعات لا تحتمل عن سلوكها، عندئذ قد يقتلها أبوها أو إخوتها لتبييض شرف العائلة. ويتحدث الإسرائيليون عن هذا الأمر على أنه يؤكد لهم وحشية العرب ، أو حتى الأثر المفيد لاحتلالهم (قال البريجيدير بونداك الحاكم القديم لقطاع غزة: لقد كان علينا إيقاف ذلك الأمر) حقا إنه أمر وحشى، ولكن هناك ما يمكن تعلمه منه أكثر من تلك الحقيقة البسيطة.

إن ما يؤكده هذا أن الشرف شيء جماعى. فالعربى مطالب بحسن السلوك من أجل شرف العائلة ، الذى يسهم فى شرف الجماعة الأكبر والقبيلة (كلها مرتبطة ومتحدة). وتعود جذور القتل بدافع الشرف إلى عصر الجاهلية، إلى قرون جابت فيها القبائل العربية الصحراء، وزاد حجمها ونفوذها ومدى ما تستطيع الوصول إليه من أراض ومياه عن طريق الإغارة على قبائل منافسة من أجل الاستيلاء على أغنامها وجمالها ونسائها. وكان وجود نساء أكثر يعنى زوجات أكثر وأولادًا أكثر. مما يعنى محاربين أكثر وأراضى ومياهًا وأغنامًا وثروة أكثر. وتظل القبيلة على قيد الحياة ما دامت احتفظت لنفسها ، بشكل حصرى ، بقدرة نسائها على الإنجاب واستمر القتل بدافع الشرف. لأن فلسطين ما زالت مجتمعًا قبليا على الرغم من المستوى الجديد والأعلى من التعليم والعلمانية (وأجهزة التليفزيون المتصلة بالأقمار الصناعية) وعلى الرغم من العبارات الستالينية المنطوية على مفارقة تاريخية (الجماهير العربية. وبلادى بلادى). وعلى الرغم من تذمرهم ومطالبتهم بضرورة اعتراف العالم بهم شعبًا واحدًا ودولة واحدة ، فإنهم أنفسهم يعانون من مشكلة التفكير أو العمل كدولة. وحتى اللحظة الراهنة، يمكن تلخيص تاريخ كفاحهم (وخصوصًا زعامتهم) فى سطر واحد: كل شخص بنفسه، وبعشيرته.

إنك فور أن تعترف بالشرف والقرابة بوصفهما حجر الزاوية لعرب فلسطين. فإن كثيرًا من الأسرار والألغاز المزعجة، وبعضها قديم قدم الزمن، سوف تتكشف

لك تباعا. لماذا فر الكثير من العرب عام ١٩٤٨ حسنًا، إن ذلك الفرار لم يبدأ إلا بعد مذبحة قرية دير ياسين العربية ، وهى المذبحة التى ارتكبها المقاتلون اليهود والتى لم تعمل الدولة اليهودية الجديدة على إخفائها، بل كشفت عنها وسبرت غورها فى اختبار صريح للذات. فتحدثت عن قتل رجال ونساء وأطفال. وكانت هناك مزاعم عن اغتصاب فتيات عربيات بواسطة المقاتلين اليهود. وعندما انتشر خبر أعمال الاغتصاب تلك فر سكان قرى أخرى منها وهجروها ببساطة. فلماذا لم يستطع العرب القتال دفاعًا عن أنفسهم؟ ولماذا لم يكن هناك جيش فلسطينى مستعد (كما كانت قوات الهاجناه السرية لدى اليهود) عندما اندلعت حرب ١٩٤٨ فى الواقع كانت هناك ميليشيات عربية ولكنها نشأت للدفاع عن عشائرها. ولم تكن ندًا لجيش اليهود الوطنى الجاد، خصوصًا عندما استخدم زعماء العشائر ثرواتهم فى الرحيل من أجل سلامة نسائهم وأطفالهم. (ربما يكون هذا السؤال فى حد ذاته غير منصف: فعندما سألت أستاذًا جامعيا فلسطينيا وهو الأستاذ شريف كناعنة عن السبب فى عدم وجود جيش مستعد لدى الفلسطينيين فى ذلك الوقت، أجاب بأنه لم يكن هناك سبب للمواجهة بين العرب واليهود فى عام ١٩٤٨ .فقد كان الفلسطينيون آمنين فى بيوتهم فلماذا كان يجب عليهم امتلاك خطة؟ إن ذلك يشبه أن تسأل شخصًا تم اقتحام منزله: لماذا لم يكن لديك خطة؟ لماذا لم يكن لديك سكين؟).

إن الشرف والعائلة يلقيان أيضًا الضوء على بعض الأشياء التى لا تزال حتى الآن بمثابة ألغاز. كيف يمكن أن يحدث (يسأل اليهود كثيرًا جدا هذا السؤال) أن تحتفل أم فلسطينية بجنازة ابنها الذى فجر نفسه فى عملية انتحارية. يقول الإسرائيليون متسائلين: كيف يمكن لأم أن تكون كذلك؟ ويضطرون إلى الإصرار على تفسير بسيط سهل، وهو أن "الفلسطينيين حيوانات"وحياة الإنسان لا تعنى لهم شيئًا وحتى الإسرائيليون الأكثر تعاطفًا، وحتى أنصار السلام (وهذه عينة صغيرة للغاية، دعونا نَقُلْ أنصار السلام السابقون) على استعداد للاستقرار على تفسيرات ليست لديها شىء مشترك مع تجربتهم عن ماهية الناس. فهم يقولون "إن الأمر مختلف فقط، فالعائلة لدينا لديها طفل أو اثنان بينما لديهم اثنا عشر طفلا. وسوف يقومون فقط بإنتاج المزيد من الأطفال."

ولكن لا يقال أبدًا - فى الحوارات على شاشات التلفاز أو فى الصحف العبرية- أن أم الشهيد الانتحارى لا تملك خيارًا. فهى مسألة شرف، شرف المرأة وعائلتها يدور كله حول أبنائها. فواجبها وقدرها إنتاج أولاد للقبيلة ، وهذا هو السبب فى أنها بعد أن تنجب (ولنفترض أن اسم ابنها خالد) يختفى اسمها الحقيقى للأبد ويسمونها باسم ابنها أم خالد. وقد تنجب أم الانتحارى ابنها وتبكى عليه للأبد. ولكنها إذا لم تظهر فى جنازته وهى تزغرد فإنها لن تكون عندئذ قد قبلت شرف موته من أجل العائلة.

وإذا لم تقل أمام كاميرات التليفزيون إنها فخورة باستشهاد ابنها وإنها على استعداد لتقديم كل أبنائها، فإنها عندئذ تلحق العار بنضال القبيلة كلها وبعائلتها، وتنزع الشرف عن عشيرتها واسمها وحياتها (وحياة أبنائها) وهذا ما لا يخطر على بال.

هناك لغز آخر سوف نلقى الضوء عليه: ففى ربيع عام ٢٠٠٢ عندما كانت القنابل البشرية تنسف الإسرائيليين كل أسبوع، وكان على الحكومة الإسرائيلية فعل شىء حيال ذلك، قام الجيش الإسرائيلى بتطويق واقتحام مقر حكومة عرفات - المجمع الرئاسى فى رام الله - وحوله إلى أنقاض. ولكن القوات الإسرائيلية لم تنصرف بعد ذلك، بل واصلت حصار المقر ودخلته وفتشته ونقلت عبر الخط الأخضر شاحنات من الأوراق والوثائق كل حوليات السلطة الفلسطينية المسجلة. وكانت المواد الوحيدة التى نشرها الإسرائيليون من هذه الوثائق المسروقة عبارة عن سجلات أشارت إلى تأييد عرفات للهجمات الانتحارية أو الكفاح المسلح ضد الإسرائيليين. وكان ذلك جزءًا من حملة إسرائيلية لتشويه صورة عرفات "كشريك فى السلام". ولكن كانت هناك سجلات أخرى، عشرات الآلاف من الأوراق ألقت الضوء على حكاية أكبر: كانت عبارة عن رسائل إلى عرفات من فلسطينيين من جميع المناطق الفلسطينية (وبعضها من مخيمات للاجئين فى لبنان أو سوريا أو الأردن) يطلبون فيها مساعدات أو معونات طارئة أو دعمًا لعائلة أو تعليم أحد الأبناء أو المساعدة فى تكاليف إحدى الزيجات ومذكرات من مسئولين كبار وصغار يطلبون أو يوصون فيها

بوظائف أو مبالغ قليلة لهذه العائلة أو تلك، ولأسباب لم تكن هناك حاجة فى الغالب لذكرها.

على سبيل المثال، المذكرة التالية من مسئول من الضفة الغربية يدعى حسين الشيخ يخاطب فيها عرفات باسمه المستعار "أبو عمار" قائلاً له:

فخامة الرئيس المناضل،

عزيزى الأخ، أبو عمار حفظه الله، أرجو منك التكرم بتخصيص مساعدة مالية بمبلغ ٢٥٠٠ دولار أمريكى للإخوة الآتى أسماؤهم:

رائد الكرمى.

زياد محمد داعس.

عمار قادان.

ابنك

حسين الشيخ

وفى أسفل الصفحة نفسها تعليمات عرفات بخط يده:

وزارة المالية / رام الله

يتم تخصيص مبلغ ٦٠٠ دولار أمريكى لكل من المذكورين أعلاه.

هذه الآلاف من الرسائل وحقيقة موافقة عرفات شخصيا على كل مبلغ يزيد على مائتين وخمسين دولارًا إنما يوضح بالفعل عددًا من الألغاز البسيطة. على سبيل المثال: ماذا يفعل عرفات كل يوم؟

الإجابة هى أنه كان يعمل كل يوم وطوال اليوم. فعرفات لا يأخذ يومًا راحة ولا ساعة. وليس له أصدقاء. ولا يقرأ ولا يشاهد أفلامًا، وربما لم ير أبدًا مسرحية ولم يذهب إلى حفل أو متحف ولا يفعل ولا يمارس أى شىء سوى السياسة الفلسطينية.

وهذه هى السياسة الفلسطينية. وقد أجابت هذه الأوراق أيضًا على السؤال القائل: ما الذى يفعله بالأموال؟ إذا كان الإسرائيليون يحولون عشرات الملايين من أموال الضرائب التى يجمعونها من الأراضى المحتلة أو يقوم العرب بالإسهام ببضعة ملايين، فكيف لا يتم بناء شىء؟ حسنًا. لا يوجد مال يتبقى لأشياء مثل بناء مستشفيات أو إنشاء طرق أو مدارس، وهذا يحدث بعد أن تدفع السلطة الفلسطينية رواتب لأربعين ألف موظف حكومى (معظمهم كتبة لم يحصلوا أبدًا على أى تدريب ولا يعرفون فى الواقع عمل أى شىء، ولكن كل واحد منهم لديه أسرة يعولها الرئيس). ثم هناك نحو أربعين ألفًا آخرين منضمين بطريقة ما إلى "الأمن" (وهم أيضًا أرباب أسر يرتدون، بفضل الرئيس المناضل، البزات الرسمية ويحصلون على رواتب شهرية ويعملون تحت إمرة ضباط يحتلون تلك المنزلة فقط لأنهم زعماء للعشائر). بالإضافة إلى ذلك، يتصدق عرفات ببضعة آلاف أخرى من الدولارات يوميًا فى صورة صدقات صغيرة أو بقشيش لشراء "أو على الأقل تأجير" مزيد من الولاء.

تجيب هذه الوثائق بشكل إجمالى على السؤال الكبير المتمثل فى الكيفية التى يحتفظ بها عرفات بمنزلته الرفيعة زعيمًا ورئيسًا وأبًا لأمته التى لم تصبح دولة. وهو أبرع مدير وأكبر محتكر لأحاسيس شعبه بالولاء والشرف والعائلة والعشيرة والقبيلة.

ويثور هنا سؤال بارز الإجابة عليه أكثر صعوبة، وهو: إذا كان جيلان من الخبراء الغربيين والعرب والإسرائيليين قد لاحظوا منزلة الشرف والعائلة داخل المجتمع الفلسطينى، وإذا كان الإسرائيليون لا يمتلكون فقط مخزنًا مليئًا بوثائق السلطة الفلسطينية، ولكن أيضًا خمسة وثلاثين عامًا من تحقيقات وتقارير الشرطة السرية فى المناطق المحتلة (فضلاً عما يربو على خمسين عامًا من العيش إلى جوار الفلسطينيين الموجودين فى إسرائيل)، فلماذا يتصرف الجيش الإسرائيلى والحكومة الإسرائيلية وكأنهما وحدهما اللذان لم يدركا هذا؟

ولماذا تواصل الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة، رغم أن الهدف المعلن لها هو صنع السلام أو على الأقل العيش فى سلام مع الفلسطينيين، التوسع فى بناء

شبكة من المستوطنات على أراض عربية، وتواصل وتزيد عمليات التجريد من الملكية والمصادرة والهدم والاغتيال؟ ولماذا قامت الحكومات المتعاقبة بالتوسع فى سياسة الإغلاق ووضع منظومة من نقاط التفتيش المصممة لإذلال وتنغيص حياة الشعب الأسير؟

إن الأمر لا يستعصى على الفهم. فالدراسات الإسرائيلية نفسها تبين أن السبب المشترك الأعظم للتفجيرات الانتحارية هو حادث ما فى ماضى الانتحارى، كأن يكون أحد إخوته قد قتل أو تم اعتقال والده أو تعرضت أمه أو أخته للإهانة بواسطة الجنود الإسرائيليين. وكل تجريد من ملكية أو تدمير لمنزل أو اقتحام فى منتصف الليل بحثًا عن مشتبه بهم أو أسلحة، وكل إهانة عند نقطة تفتيش أو دفعة بمؤخرة بندقية أو تجريد عجوز من ملابسه بغرض التفتيش، من الأرجح أن ينتج عنه شهيد انتحارى فى المستقبل. وهذا هو السبب فى وصف أحد مراسلى صحيفة هاآرتس فى المناطق المحتلة لنقاط التفتيش بأنها "مصانع لإنتاج القنابل البشرية".

ولكن من الأيسر عند الإسرائيليين التبجح بالإعلان عن مئات الهجمات الإرهابية التى أحبطوها بواسطة "إجراءاتهم القوية". ومن الأيسر عليهم إلقاء اللوم فى كل حوادث القتل على عرفات، الذى لا بد من تلقينه درسًا بواسطة كل رئيس وزراء إسرائيلى يجىء. ويستطيعون الزعم أن كل هذا بسبب الأموال التى يتم دفعها لعائلة الشهيد الانتحارى من جانب عرفات أو الحركات الإسلامية أو صدام حسين أو يستطيعون القول - وهذا أسهل من أى شىء آخر- بأن "هؤلاء الحيوانات" ببساطة يكرهون اليهود.

لا يزال البعض هنا وهناك يرون دلائل خفية على أن الإسرائيليين ليسوا بتلك الغفلة التى يبدون عليها. كنت أتناول طعام الغداء ذات مرة فى تل أبيب مع زعيم سياسى كبير هو ياكوف بيرى، وكان فى ذلك الوقت رئيسًا لأحد أكبر البنوك فى إسرائيل. وقد سألته عن أثر الاحتلال وما فعلته إسرائيل للحفاظ عليه. فقال بيرى "أعتقد أن سياستنا تصنع لإسرائيل جيلين جديدين من الأعداء". وبيرى يحسب بالكاد على حمائم اليسار فى إسرائيل. وكان قبل توليه رئاسة البنك،

يدير تلك المنظمة التى يخشاها الفلسطينيون أشد الخوف، الشرطة السرية الفائقة الفعالية، الشين بيت.

فى الواقع، هناك دلالات أخرى على أن الإسرائيليين يعرفون تمامًا تأثير "إجراءاتهم القوية"، وهم دائمًا على علم بذلك. وكان موشيه دايان، الزعيم السياسى البارز والشخص الذى جعل إسرائيل دولة أكبر، هو الذى أشار إلى ذلك بالقول: "إن الشىء الوحيد الذى لا نستطيع القيام به هو إذلال هؤلاء البشر". وربما يعرف اليهود كل ما يحتاجون إلى معرفته عن الشرف الفلسطينى، أى يعرفون ما يكفى لاستغلاله، وجعل المنفى هو الخيار الوحيد. ألم يعرفوا ما يكفى - حتى فى عام ١٩٤٨ - لترويج ما حدث فى دير ياسين؟

لم أكن متأكدًا تمامًا من المكان الذى كنا متجهين إليه. وقد قادنا مضيفى وصديقى ومرشدى ومترجمى صفوت دياب إلى ميدان به سوق فى مخيم جباليا للاجئين. تركنا السيارة فى حفرة مليئة بالمياه. فلا شىء مرصوفًا هناك. وكل شىء محطم. وبدأت الزيارة بالطريقة نفسها التى تبدأ بها معظم الزيارات وذلك عن طريق صعود عدة درجات من الحجر الرملى، مع الحرص على عدم الوطء على عدد كبير من الأجزاء المتقلقلة. ونصف المبانى فى غزة تبدو نصف مبنية، أو نصف مهدمة، من الصعب التفرقة بينهما. وفى الأعلى، دخلنا مكتبًا به طاولة فى ركن فيه وعدد من الأشخاص جالسون يتجاذبون أطراف الحديث ويحتسون الشاى.

ولم تكن هناك معلومات عن وظيفة هذا المكتب، ولكن كانت هناك بعض الإشارات ذات الأهمية: فقد كان على الحائط صورة للمسجد الأقصى، قبة الصخرة، فى القدس، وهو شعار بطاقة البريد الرسمية الذى يرمز إلى النضال الفلسطينى. وكان هناك طبق كبير ملىء بالكعك المحشو باللوز وفطائر العسل، حيث يبدو أن هناك من أنفق المال لترتيب هذا اللقاء. كان على رأس الاجتماع رجل يجلس خلف المكتب على كرسى كبير. كان يدعى زيد ذكى زيد، وكان يبدو من الوهلة الأولى أنه ليس من السهل أن يعبث معه أحد. كان يرتدى بذلة رمادية ذات مربعات، وكان يتميز بضخامة الجسم وبشرة بنية فاتحة وشعر رمادى قصير

يكشف عن رأس مستدير وحاجبين رماديين غزيرين يعلوان عينين سوداوين ولا تتغير هيئته عندما يبتسم. وكان يبدو مثل جيمس كوبرن، فى اللقطات التى كان يبدو فيها كوبرن قاسيا. (وربما كان هذا هو السبب فى أنه بدا مألوفًا جدا وكأننى أعرفه من قبل). وقد تم تقديمه لى على أنه رئيس اللجنة المحلية لمخيم جباليا. وعندما سألت عما تفعله اللجنة المحلية أجاب زيد بأنها تهتم بالمشاكل المحلية.

اتضح لى تدريجيًا أن هذه الزيارة كانت إجراءً وقائيًا لصديقى صفوت ولى. "أعتقد أننا كنا مشكلة محلية". وكان من المهم إثبات وجود موافقة على تحقيقاتى فى مخيم اللاجئين. وقد ألقيت بضعة أسئلة هنا وهناك. وقد جاء علىّ حين من الدهر اعتقدت فيه أن هذا الكتاب سيبدأ فى مخيم جباليا بحادثة تاريخية لا يعلم بها إلا القليلون جدًا. ففى عام ١٩٧١عندما كان أرييل شارون قائدًا للجبهة الجنوبية، وقام ذات يوم بإرسال الجرافات إلى المخيم وبدأ فى هدم المنازل. وفى تلك الأيام، كان المراسلون الغربيون يمرون فقط على غزة (هذا إذا ذهبوا هناك على الإطلاق) فى طريقهم إلى سيناء وقناة السويس ومصر. وكانت القصة الكبيرة فى ذلك تتمثل فى الصراع بين دول، ولم يكن للفلسطينيين ناقة ولا جمل. ولذلك لم تتم الكتابة عن تلك الحادثة بشكل موسع أبدًا. ولكنى أعتقد أن هذا اليوم غير التاريخ.

كانت مخيمات اللاجئين حتى ذلك الوقت بعيدة عن اهتمامات الجيش الإسرائيلى، وكانت تتم معاملتها تقريبًا بوصفها منطقة تابعة للأمم المتحدة التى كانت وكالاتها هى الجهة الوحيدة التى تساعد الفلسطينيين النازحين منذ عام ١٩٤٨ .وقد أعلن شارون بجرافاته أن هذه منطقته أيضًا، وأخذ فى إزالة الأشجار من جميع أنحاء المخيم وذلك حتى تستطيع أن تمر دباباته. وأرى أنه كان يعلن أن الإسرائيليين جاءوا إلى غزة لكى يبقوا فيها.

وقد سألت فى إسرائيل عن هذه الحادثة، وحصلت على العديد من القصص "جميعها مختلفة بالطبع". وقال البريجيدير بونداك حاكم غزة القديم إن ما فعله شارون كان فقط جزءًا صغيرا من خطته الكبرى لاستئصال شأفة المخيمات

نهائيا. وقد أراد نقل كل اللاجئين من مخيماتهم، دليلا على الإنسانية من ناحية ولأغراض إستراتيجية من ناحية أخرى. (فعدم وجود لاجئين كان يعنى انتفاء حق العودة وإنكار حقهم فى أراضيهم القديمة فى إسرائيل). قال بونداك إن شارون أعاد توطين آلاف العائلات، من المخيمات إلى "منازل لائقة تمامًا" ، إلى أن أبلغته الحكومة بعدم وجود أموال لمثل هذا النوع من الأشياء. فدخلت خطته الكبرى دائرة النسيان. ويقول المؤرخ مائير باعيل، الذى يعلم كل شىء عن جيش الدفاع الإسرائيلى، إن شارون لم يعلن عن سياسة جديدة أو أى تغيير فى قرار الحكومة بخصوص غزة. والمشكلة بأسرها تتمثل فى أنه لم يكن هناك أبدًا أى قرار. فقد افترض الجميع تقريبا أن الأراضى التى تم احتلالها عام ٦٧ ستتم إعادتها إلى الدول العربية فى مقابل إبرام معاهدة سلام معها. وتجاهل موشى ديان - وهو الرجل الذى احتل كل تلك الأراضى والذى كان دخول غزة قراره الشخصى - قضية الأراضى المحتلة لسنوات وذلك من خلال هز كتفيه وجملة واحدة تقول "إننى أنتظر مكالمة تليفونية" (لابد أن العرب أضاعوا رقم تليفونه).

وعلى ذلك، الآن وبعد مضى خمسة وثلاثين عامًا من تلك الحرب، وبعد أكثر من ثلاثين عامًا من هدم شارون لتلك المنازل، لا تزال غزة ومخيم جباليا فى يد إسرائيل، ولا تزال الشوارع الترابية تقف على جانبيها الأشجار وهى التى كانت الأمم المتحدة وللمرة الأولى تخطط لرصفها. كنت أطرح الأسئلة فى المخيم، وقال زيد ذكى زيد عن تلك الحادثة "نعم، لقد جاءوا فى غياهب الظلام". وكأنها وقعت فى الأسبوع الماضى. "قالوا للناس بأن عليهم أن يتركوا منازلهم خلال أربع وعشرين ساعة، ووضعوا علامة X حمراء على منزل مدهون بالطلاء. وفى اليوم التالى جاءت الجرافات، جرافات خضراء تابعة للجيش، ومعها عدد كبير من الجنود فى عربات جيب وعلى أقدامهم". وبالنسبة لزيد، كما لو أنه حدث الأسبوع الماضى. الشىء نفسه يحدث، فقط فى مكان مختلف. وأضاف زيد "إنه نسخة مكررة من الصورة التى حدثت فى جنين" مشيرًا بذلك إلى الدمار واسع النطاق الذى لحق بالمخيم ردا على العملية الانتحارية التى وقعت عام ٢٠٠٢ . والأمر بالنسبة له عبارة عن سلسلة متصلة من الضحايا

الفلسطينيين، مثل قصص مدرسة يوم الأحد عن اليهود. كان ذلك عام ١٩٧٠ والآن نحن فى عام ٢٠٠٣ ولم يحدث شىء.

نعم، لقد حاول الكثير من الفلسطينيين المقاومة. ولكن الجنود حملوهم وألقوا بهم فى الشاحنات، بينما كانوا يشاهدون منازلهم وهى تتعرض للتدمير. وذهب بعضهم للإقامة مع أقاربهم. وتم إلقاء من كانوا فى الشاحنات فى الصحراء داخل مصر، إلى "العريش" (يقول الإسرائيليون أيضًا إنه تم "إعادة توطين" بعض الأسر فى التراب المصرى. ولكن عندما عادت سيناء إلى مصر بموجب اتفاقية السلام التى عقدها السادات مع إسرائيل عام ١٩٧٩ أعاد المصريون أولئك اللاجئين إلى غزة دون أن يطلب السادات استعادة غزة).

وهنا تدخل رجل أصلع يجلس على يسار زيد قائلاً: "كان ذلك منفى إجباريا آخر للفلسطينيين بعد عام ١٩٤٨". عند ذلك اتضح لى أن زيد قد دعا الرجال الآخرين الموجودين فى الغرفة لمساعدته فى التعامل مع الزائر الأجنبى (واكتشفت عند ذلك لماذا شعرت أننى قابلت هذا الرجل من قبل. فقد كان مثل السياسيين الذين التقيت بهم من قبل عندما كنت مراسلاً صغيرًا فى بالتيمور، وكان المحيطون بزيد أيضًا رجالاً يتصفون بالخشونة فى مجال عملهم، ولكنهم كانوا حريصين جدا على الظهور بمظهر محترم عندما يأتى زائر مثقف إلى زيد الذى عرفت أنه رئيس حرس عرفات). وكان الرجل الأصلع ويدعى محمد عبد الرحمن أبو ركبة عضوًا فى اللجنة المحلية، ومن الواضح أنه يتمتع بالاحترام. وكان يرتدى أيضًا بذلة رمادية، ولكنها ذات لون أفتح من بذلة زيد، مع وجود سويتر تحت السترة، وبدا جادا وهو يحرك حبات مسبحته. كان يحمل فى جبهته بقعة سوداء تميز الرجل المصلى، فالمسلمون الأخيار يحنون جباههم لله خمس مرات فى اليوم. وجاء كلامه تعزيزًا لما قاله زيد عن خمسين عامًا من الثبات والصمود فى وجه المعتدين الإسرائيليين القتلة. وحكى لى عن ابن عمه حسان الذى كان فى السجن فى تلك الأيام عندما كان شارون قائدًا للمنطقة الجنوبية. وقد أخرجه الإسرائيليون من السجن واصطحبوه بالقرب من مخيم جباليا، وعند أطراف المخيم أطلقوا عليه النار أمام حشد من الجماهير. فلماذا؟ "لأنهم ظنوا أنه أحد

النشطاء، وأعادوه إلى المخيم لبيان أن هذا سوف يكون مصير أى ناشط آخر فى المقاومة، وأرادوا من الناس مشاهدة مقتله لكى يكون عبرة لهم".

وقال أبو ركبة إنهم بالطبع كانوا يعرفون شارون جيدًا من قبل، ويعرفون كل شىء عنه. وقال زيد: "نعرفه منذ عام ١٩٥١، وعندما دمر منازل وسكان قرية قيبية" (حيث قامت وحدة شارون، انتقامًا من هجوم الكوماندوز عام ١٩٥٣، بنسف المنازل على رءوس أصحابها). وأضاف أبو ركبة قائلاً: "إننا نعرف وحدته المسماة الوحدة ١٠١ كما نعرف أن فرقة ريمون، مجموعة الاغتيالات التابعة لشارون كانت هنا فى جباليا". كانوا يتناولون ما فعله شارون هنا وهناك، مثل إعادة تراتيل الكنيسة، وفى غضون ذلك، قاموا بسرد قصة - غالبا ما تروى - عن شارون فى الثمانينيات، عندما كان وزيرًا للدفاع مع رئيس أركانه رافائيل إيتان، حيث كانا يتفقدان قواعدهما فى الضفة الغربية.

لكننى فقدت المتابعة فى وسط القصة، إنهم لم يستطيعوا رؤية شارون كما رأيته، رجل عجوز ليس لديه فكر، إنه فقط شخص ضئيل لا يمتلك سوى حيلة واحدة وهى محاولة ضرب العرب بقسوة حتى لا يتفوهوا ببنت شفة. وهو لم يكن أبدًا رجلاً سهلاً، فعندما يحدث شىء كبير فى إسرائيل يهز صورتها، كان يعرف كيف يتصرف. إن عقلى يعود بى إلى تلك الأيام الماضية فى الثمانينيات عندما كنت تحت تهديد مدافع شارون حبيسًا فى حصار بيروت، حيث كانت المدفعية والطائرات الإسرائيلية تسحق المدينة يومًا بعد يوم، ولمدة شهور. كانت أيامًا موحشة لكنها كانت فرصة جيدة لمحرر صحفى، فلم يكن هناك طعام طازج أو مياه نظيفة أو طاقة أو جازولين. وفى ذلك الوقت اعتدت السير فى المدينة كل يوم أميالا ، حتى أصل إلى معسكرات مقاتلى منظمة التحرير الفلسطينية فى الجزء الجنوبى من المدينة. كنا نجلس معًا بين أكياس الرمل والذباب والقاذورات مدخنًا سجائرى ومحتسيا شايهم من أكواب قذرة، وأخبرونى أنهم يقاتلون من أجل فلسطين، وكانوا يصرون على ذلك كما لو أنهم على أبواب القدس، بينما كنت أعلم جيدًا أنهم سوف يكونون محظوظين إذا ظلوا على قيد الحياة فى بيروت. وأحيانا كانوا سريعى الغضب معى (والغاضبون الذين يحملون سلاحًا يمكن أن

يفقدوا أعصابهم)، حيث إننى أمريكى، وأمريكا تدعم هذا الحصار الصهيونى. (وفى وقت من الأوقات بدأ أسطول رونى ريجان إطلاق جحيم من القنابل من بارجة قديمة، لماذا فعل ذلك؟ لم أعرف أبدًا. كان أبناء منظمة التحرير الفلسطينية يصرخون فىّ بإنجليزية ركيكة قائلين: "لماذا تساعد أمريكا إسرائيل؟" فكرت طويلا وذات يوم خطرت لى الإجابة: "لأننا أصدقاء إسرائيل، ولو كان لكم صديق جيد كما نحن بالنسبة لإسرائيل، لكنتم فى فلسطين الآن". ربما كانت فكرة خاطئة، لقد كنت أحاول فقط أن أنقل الكرة إلى ملعب السوفييت بدلاً من بلدى. وكم كانت دهشتى عندما وجدت أن إجابتى كان لها وقع السحر، وعلى الفور عدنا أصدقاء مرة ثانية واستخدمت هذه العبارة مرات عديدة. وما اكتشفته، على مدى شهور، أن هذه الإجابة كانت مصدرًا للفخر بالنسبة لهم. لقد صورت لهم أنهم فى صراع ليس فقط مع إسرائيل ولكن مع القوى العظمى فى العالم. وقد أوضح ذلك (أو فسر) الحقيقة المرة التى تقول إن المسألة تتعلق دائمًا بالشرف، وإنه عندما يصبح طرفًا فى الصراع فإنه لابد أن تكون له الغلبة.

فى مكتب غزة كانت قصة أغنية شارون تغنى: "أمسك شارون وإيتان هذا الرجل وقتلاه فى هذا المكان تمامًا، ذبحاه من عنقه. وقال الضابط الإسرائيلى الذى روى الحكاية إنه كان يصدر صوتًا يشبه صوت الغنم عندما تذبح". لقد كان قاتلاً أثيمًا يداه ملطختان بدماء الأبرياء، لكنه حفظ كرامة إسرائيل.

طرحت بضعة أسئلة عن التفجيرات الانتحارية: كيف يمكن أن يقوم أطفال صغار بتفجير أنفسهم ؟ هل صحيح أنهم يفعلون ذلك من أجل توفير المال للعائلة؟ هل صحيح أن معظمهم لديهم مشاكل فى المنزل ؟

جاءت الإجابة على هذه التساؤلات من رجل يجلس على يمينى، لم يتحدث كثيرًا من قبل. ويبدو أن زيدًا أحضره معنا ليكون عالم اجتماع اللقاء. كان له اسم جميل ـ حسن أحمد عبدالعزيز عزيز – وكان شخصًا محبوبًا من الجميع. كانت هيئته الأنيقة تشير إلى أنه أكثر من محام. كان يرتدى جلبابًا طويلاً من الكتان الأخضر على الطراز المصرى المحلى بالأزرار من الأمام ، مع وجود تطريز حول فتحات الأزرار. وكان يرتدى من فوقه قفطا فخمًا من نفس الكتان الأخضر، وفوق

كل ذلك روب المحاماة يزينه شريط ذهبى يمتد من خلف العنق. ويضع على رأسه غطاء الرأس التقليدى الأبيض، مع شريط مغزول من شعر الماعز الأسود لتثبيته فوق رأسه. (لم أندهش عندما علمت أنه يعمل حائكًا للثياب). كان يناديه الآخرون باسم أبو رمزى، وفى تلك الأيام كان فى الرابعة والستين من العمر، وكان مستشارًا محترفًا فى الصلحة.

الصلحة هى طريقة العرب التقليدية لحل نزاعاتهم وإحلال السلام. فعلى سبيل المثال، لو أن قمامة جارك (من وجهة نظرك) تسد عليك الطرق أو أنها تتراكم بجانب سياجك أو أن شجرته نمت على سور حديقتك وتعوقك عن الفلاحة أو أن زوجتك ذهبت إلى أسرتها وقررت ألا تعود، أو أن ابنك لا يكترث لرغباتك كرب للأسرة. حينئذ، تكون بحاجة إلى رجل الصلحة (المصلح). فتستدعيه أنت وخصمك أو تذهبان إليه فى منزله، ويشرح كل طرف مظلمته. ولكى تكون رجل صلحة محترفًا يتطلب بصيرة نافذة من أجل إحقاق العدالة وسمعة طيبة ونزاهة واستقامة وموهبة اكتشاف الخطأ. وفى أفضل الأحوال، ينجح رجل الصلحة فى تقسيم الحقوق والواجبات بالتساوى بين طرفى النزاع، وكل شخص يرى العدل فى التسوية التى حكم بها، ويذهب إلى بيته وقد رد إليه شرفه. إننا لسنا بحاجة إلى القول بأن أبا رمزى يعد خبيرًا فى شئون المجتمع الفلسطينى، فقد داست قدماه عتبات الكثير من البيوت وتكشفت له أسرارها.

وكما يقول أبو رمزى، فإن العائلات لم تعد تسيطر على أبنائها الآن. ودور الأب يكون متعاظمًا عندما يكون الأولاد صغارًا. ولكن عندما يكبرون ويتعلمون ويشاهدون التلفاز، يصبح لهم فكرهم الخاص بهم ولا ينصتون إليه. كان من الصعب على الأب الذى ربى ابنه أن يستغنى عنه، أما الآن فإنه يستشهد. ولكن الأبناء يمكنهم أيضًا إلقاء اللوم على الآباء. إنهم يقولون "كان يجب عليكم البقاء! لا يزال هناك أشخاص فى قريتنا القديمة، ولم يحدث لهم شىء! لقد فارقتم دياركم بسبب إشاعات، لقد هجرتم أرضكم دون مقاومة. الآن جاء دورنا".

سألت عن الأمهات، وخاصة امرأة واحدة يتحدث عنها الإسرائيليون، ليس فقط لأنها أعلنت فى التليفزيون أنها فخورة بابنها الشهيد بسبب اليهود الذين

قتلهم، ولكن أيضا لأنها صورت بالفيديو مع ابنها قبيل مصرعه المدوى. كانت تعلم كل شىء قبل أن يحدث. وحثته على الشهادة. قال زيد إنهم يعرفونها حيث تعيش فى الجوار، فى قرية الشجاعية. لكنهم تحدثوا لبرهة بالعربية ولم يستطع أى منهم تذكر اسمها، ولا حتى اسم ابنها (حتى يمكننا أن نعثر عليها نسأل عليها قائلين أم فلان). تحدث أبو ركبة وزيد فيما بينهما متسائلين عمن يمكن أن يعرفها فى الشجاعية. المشكلة أن ابنها لم يكن من أتباع حركتهم. فلم يكن تابعًا لحركة فتح التى يقودها عرفات، ولكنه كان تابعًا لحركة حماس (حيث ينسب كل شهيد إلى حركة ما من حركات المقاومة). وعلى ذلك، لم يعرف أحد من أتباع حركة فتح أو منظمة التحرير الفلسطينية هذه العائلة. وحتى ذلك الحين كان عليهم أن يطلقوا عليها أم الشهداء.

فى غضون ذلك، كان أبو رمزى يخبرنى عما يجب أن يفعله جورج دبليو. بوش بالتحديد إذا أراد أن يعقد "صلحة" بين الفلسطينيين واليهود. وأضاف قائلاً "لدينا العديد من الأمثلة التى تعبر عن ذلك فى الصلحة، إذا كنتم شقيقين وتتشاجران، فاقتسما . فيجب على بوش أن يتفهم نوعية المشاكل التى يواجهها كل طرف، وحينئذ يعطى كل طرف نصيبه بالعدل. فإذا وجدت المساواة وجد العدل، وترسخت حقوق الجوار وسهل العيش فى سلام. كما تجب مناقشة مشكلة السكان، حيث يجب أن تكون الأساس الذى بناءً عليه يتم تقسيم الأرض. ويجب على الشعوب أن ترى عدالة الحل، ويجب على بوش أن يسهم بمشروعات تؤدى إلى تحسين مستوى المعيشة على هذه الأرض، وبذلك يعيش الناس فى سعادة".

قاطعتهم للسؤال عن شىء ما غالبًا ما كنت أسمعه فى إسرائيل. فكل اليهود الذين تحدثوا إلىَّ عن الصلحة يؤمنون بأن القرآن يحرم التصالح مع الكفار. (وهذا دليل آخر لا يقبل الشك على أن إقامة سلام حقيقى هو أمر مستحيل). ورد أبو رمزى قائلاً إن هذه ليست القضية، فالصلحة ليست فكرة أو وظيفة دينية، لقد نبعت من تقاليد سبقت الإسلام ". والواقع أنه كان هناك سلام عادل ومرض لقرون طويلة بين القبائل العربية واليهود الذين جابوا الصحراء نفسها. وأضاف أن المشكلة الحقيقية هى أن إسرائيل لا تفهم معنى الشرف. ودونه فإن الصلحة تعد أمرًا مستحيلاً.

"الذى لا يفهمه اليهود هو أنهم عليهم، أولاً، أن يعتذروا لأنهم اغتصبوا الأرض وطردوا العرب وتعاملوا بوحشية مع الشعب الفلسطينى، لأنه دون استعادة الشرف، لا يمكنك أن تبدأ عملية التقسيم تبعًا للحقوق".

أومأت برأسى علامة على الفهم. ولكننى لم أتكلم. فلم أرغب أن أكون فظًا. كانت الفكرة الوحيدة التى تطن فى رأسى هى "لا تحبس أنفاسك".

إن الحقيقة المرة تتمثل فى أن الجميع يصمت فى الوقت الذى يجب أن تتوافق فيه "الحقيقة" مع الشرف بدلاً من الوقائع. إذ لم يحدث ذلك فإنهم سوف يتعلمونه بالطريقة الصعبة. يمكن أن تقول أيضًا إن ذلك يتوافق مع رأيى الشخصى (ومع الطريقة التى اخترتها لانتصار الحياة)، ولكن يبدو لى أن الفلسطينيين ينظر إليهم من منظور مزدوج: الأول - أو فى المقام الأول - بواسطة الإسرائيليين، والثانى بواسطة شبكة من الأكاذيب الملتصقة بهم. ويبدو مغريًا القول بأنه لا يمكن الفصل بين الاثنين، فإذا تحطم أحدهما يتحطم الثانى.

أحد أمثلة ذلك من التاريخ الحديث حدث فى مفاوضات السلام، أولا فى كامب ديفيد، ثم بعد ذلك فى مدينة طابا بسيناء عام ٢٠٠٠ برعاية بيل كلينتون. كان الفريقان الإسرائيلى والفلسطينى على وشك الاتفاق (وكان كل شىء مكتوبًا على ورق البيت الأبيض الفاخر، مع وجود نسخة للجنة نوبل)، إلى أن قرأ ياسر عرفات فقرة أو اثنتين. ثم هب غاضبًا مشيرًا بإصبعه إلى بقية أوراق الاتفاقية قائلاً "لا أريدها".

كانت المشكلة الشائكة هى "حق العودة" أو كما تطلق عليها إسرائيل "قضية اللاجئين". وهى تتصل بالفلسطينيين الذين تركوا بيوتهم (التى أصبحت إسرائيل الآن) فى أثناء حرب ١٩٤٨ . هل يسمح لهم بالعودة ؟ بطبيعة الحال لا يرغب الإسرائيليون فى ذلك. فهل يقبلون بالمزيد من العرب لكى يسببوا لهم المزيد من الصداع. من ناحية أخرى، فإن حق العودة يُعَدُّ مطلبًا عربيا غير قابل للتفاوض يعود إلى عام ١٩٤٨ . وبالتأكيد كان ذلك مُهمًا منذ خمسين عامًا، حيث كان الفلسطينيون قد تركوا منازلهم للتو. لقد أرادوا العودة، وحاولوا العودة. ولكن الآن

ذهبت بيوتهم القديمة أو امتلأت باليهود عبر ثلاثة أجيال. فنصف القرى القديمة اختفت من على الخريطة أو تحولت إلى مزارع أو (فى وقت أحدث) أصبحت طرقًا من أجل التنمية العمرانية. فكيف يمكن للفلسطينيين أن يعودوا الآن ليعيشوا كالغرباء بين اليهود ؟

لا أحد يدرى. ولذلك قام خليل الشقاقى، خبير استطلاعات الرأى اللامع والشجاع، ومدير المركز الفلسطينى للبحوث السياسية والمسحية، بخطوة استثنائية لاستطلاع رأى اللاجئين، وكانت غلطة كبرى. وقد اكتشف أن ١٠ ٪ منهم فقط يرغبون فى ممارسة حق العودة. وعندما نشرت نتائج استطلاعه، قام حشد من الغوغاء الغاضبين بالتوجه إلى المركز وحطموا مكتبه وقذفوه بالبيض. واتضح أنهم مأجورون من قبل بطانة عرفات للقيام بتلك المهمة. وطبعوا منشورًا (والمثير للدهشة أن يفكروا فى فورة غضبهم أن يصدروا منشورًا) اتهموا فيه الشقاقى "ببيع نفسه مقابل حفنة من الدولارات الأمريكية، والخروج على إجماع الشعب الفلسطينى". كما طالبوا السلطة الفلسطينية بالضرب بيد من حديد على "أولئك "الأكاديميين المأجورين الذين ينفثون سمومهم فى شعبنا الشعب الفلسطينى، وتقديمهم للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى".

مثال آخر أقل شهرة: فى خريف عام ١٩٩٩، قام تسعة مثقفين بارزين، واثنان من رؤساء البلديات السابقين وتسعة من أعضاء المجلس التشريعى الفلسطينى بإصدار بيان بعنوان "صرخة الوطن" يشجب الظلم والفساد فى فلسطين. كان البيان عبارة عن وثيقة تفيض بحب الوطن والإحباط بسبب ما كان يفعله عرفات: "تبنت السلطة الفلسطينية نهجًا يتسم بالفساد والإذلال والاستغلال للشعب الفلسطينى. والواقع أن اتفاقية أوسلو الآن تبدو وكأنها صفقة لبيع الوطن مقابل إثراء بعض العناصر الفاسدة والمفسدة داخل السلطة الفلسطينية". وكان يحدوهم الأمل أن يوقع على هذه الوثيقة آلاف من الفلسطينيين، باعتبارها بيانًا سياسيًا وتفويضًا للتغيير. ولكن بدلاً من ذلك قامت "قوات أمن" السلطة الفلسطينية بالقبض على هؤلاء المثقفين. وتم وضع رئيسى البلدية السابقين تحت الإقامة الجبرية. وكلف المجلس التشريعى الفلسطينى لجنة خاصة لمراقبة آراء وبيانات

أعضائه، حتى لا تتعرض السلطة الفلسطينية لتلك الإهانة مرة أخرى. وقد تم توبيخ أعضاء المجلس التسعة الذين وقعوا على البيان، وصوت المجلس التشريعى الفلسطينى على قرار يحظر نقد عرفات. فهو قبل كل شىء رمز للشعب الفلسطينى.

إن حكومات اللصوص يمكنها أن تجرم من يعبر عن رأيه، كما يمكنها أن تجرم من يفكر، كما أنها تقوم (بكل سهولة) بإخفاء الحقائق عن الصحف ووسائل الإعلام. ومع ذلك فإنها لا تستطيع أن تطمسها. فالفلسطينيون ربما يتعرضون لاضطهاد مزدوج، ولكن لا يستطيع أحد أن يجعل منهم حمقى. فكما تعلم الصحفيون قديمًا فى أوروبا الشرقية، فإنه يمكنك دائمًا أن تستخلص الأخبار الحقيقية من النكات. وقد قام الدكتور شريف كناعنة - عالم الأنثروبولوجى البارز الذى حذرنى من المساواة بين اليهود والعرب عام ١٩٤٨. بدراسة النكات التى تم تداولها فى رام الله منذ عام ١٩٨٨، وكانت المجموعة التى توصل إليها تشبه رسم القلب الكهربائى للشعب الفلسطينى.

وحينما بدأ فى تجميع هذه النكات، كانت الانتفاضة الأولى قد اندلعت للتو. وأخيرا، بدأ الفلسطينيون يرفعون السلاح (حجارة على الأقل) ضد متاعبهم، ويطلقون النكات المرحة المعبرة: كانت امرأة على وشك الولادة، ولكنها لم تستطع الذهاب إلى المستشفى، حيث كانت قريتها محاصرة بالقوات الإسرائيلية. وأخيرا أخذوها إلى المستشفى العسكرى، حيث وضعت توءمين. عندما ظهر الأول نظر حوله فرأى الجنود فى كل مكان، فنادى على أخيه قائلاً: "أحمد نحن محاصرون أحضر بعض الحجارة".

وحينما قادت الانتفاضة إلى عملية أوسلو للسلام، وتكوين السلطة الفلسطينية، بدأت النكات تتخذ منحى وموضوعات جديدة: فقد طلب أحد أفراد الشرطة الفلسطينية الحصول على إجازة، ولكن الضابط الذى يرأسه لم يرغب فى منحه إياها. وقال له "أترى ذلك الحمار هناك ؟ تستطيع أن تحصل على إجازتك إن استطعت أن تجعله يضحك". اتجه الشرطى إلى الحمار وهمس فى أذنه، فبدأ فى الضحك. فقال له الضابط "هذا ليس كافيًا . الآن، عليك أن تجعله

يبكى". توجه الشرطى إلى الحمار مرة أخرى وهمس فى أذنه فبكى. فصرخ فيه الضابط قائلاً أخرج هذا الحمار من هنا". فهمس الشرطى فى أذن الحمار من جديد، فجرى بعيدا قال الضابط "حسنًا حسنًا، يمكنك الآن أن تحصل على عطلتك إذا أخبرتنى كيف استطعت أن تجعل الحمار يطيع أوامرك؟". وأجاب الشرطى قائلاً "أولا أخبرته أننى أعمل لدى السلطة الفلسطينية، فبدأ فى الضحك. ثم أخبرته أننى متزوج وأعول ثلاثة أطفال، وأحصل فقط على ثمانمائة شيكل فى الشهر. فبدأ فى البكاء. ثم أخبرته أننى أستطيع أن أوفر له عملا لدى السلطة الفلسطينية. فأطلق ساقيه للريح."

فى رام الله، العام الماضى، كانت هناك أخبار كثيرة عن افتتاح حمام تركى جديد، وفى تلك الآونة كان الصراع على السلطة محتدمًا بين عرفات ورئيس وزرائه الجديد، محمود عباس. كانت النكات تحدد فى أى اتجاه تسير الريح: "ذهب أبو عمار (عرفات) وأبو مازن (محمود عباس) معًا إلى الحمام التركى، وظلوا هناك ساعة لتصفية خلافاتهم. وحينما هموا بالمغادرة، أعطى صاحب الحمام لعرفات فاتورته بقيمة ٢٥ شيكلاً، فسدد حسابه. ثم أعطى أبو مازن فاتورته بقيمة ٥٠ شيكلاً. فقال له "انتظر لحظة! لقد طلبت منه ٢٥ شيكلاً فقط!" فرد صاحب الحمام قائلاً "نعم، ولكنك كنت أكثر قذارة".

ثم بدأت نكات الانتفاضة تصبح أكثر قتامة. على سبيل المثال، النكتة التى تحكى عن الرجل الذى طلب منه ابنه أن يعطيه شيكلين تمثل أجرة ركوب السيارة ذهابًا وعودة إلى نقطة التفتيش لكى يلقى بالحجارة على اليهود، فرد عليه أبوه قائلاً "إليك شيكل واحد فقط، لأنك سوف تعود فى سيارة الإسعاف".

أحببت قنديلاً بسبب نكاته. لم تكن نكات قنديل تتحدث عن شخص معين، ولكنها كانت تتحدث عن الأشياء المضحكة التى يفعلها الناس سواءً كانوا عربًا أو يهودًا. كان قنديل يناهز الخمسين من العمر، ولكنه كان دائمًا مفتوح العينين: فلا تستطيع أن تحصل منه على شىء دون مقابل، مهما كانت ضآلته. جاء قنديل من قرية فلسطينية متواضعة (بمعايير الضفة الغربية) ولكنه بطريقة ما تعلم أن يصل إلى أى مكان. لم يكن يعيش فى الخيال، فقد أمضى معظم سنوات عمله

عاملاً مجدًا حتى ارتقى إلى درجة رئيس عمال فى إسرائيل. لكنه بدا لى تجسيدًا للتغيير الكبير الذى طرأ على فلسطين على مدى أكثر من خمسة وعشرين عامًا.

اعتاد الفلسطينيون، باستثناء صفوة قليلة العدد، على العمل مزارعين أجراء فى العالم العربى. (فلاحين) أو ربما أولاد فلاحين. وفى معظم الأحوال كانوا مهمشين وفى الظل وهدفًا للسخرية أو مثيرين للشفقة فى أفضل الأحوال. لكن هذا لم يعد يناسبهم الآن، وبمساعدة كبيرة من الإسرائيليين (أى عبر الاكتواء بنار الاحتلال الطويل) استطاع مئات الآلاف من الرجال السفر إلى شتى أنحاء العالم للعمل، فى الخليج أو شمال أفريقيا أو أوروبا أو الولايات المتحدة. أما بالنسبة للشباب فى الأعوام الأخيرة، فكان عدم وجود فرص عمل يعنى أن الخيار الأفضل لهم هو التعليم، وقد تمسكوا به. ولكن قنديل لم يقترب أبدا من أى مدرسة، إلا إذا كان سيقوم بكنس شوارعها، ولكنه حصل على قدر وفير من تلك الثقافة الرفيعة الجديدة. فمثل الكثير من أبناء بلدته، دون أى نوع من جوازات السفر، أصبح مواطنًا عالميا.

الحق أقول لكم، إننى تعرفت إليه عندما أردت أن أسال عن أسنانه العراقية. لقد سمعت القصة بطريقة غير مباشرة (حيث قصها قنديل على أحد أصدقائى فى أثناء إحدى الحفلات) وقام صديقى هذا بدوره بروايتها لى وكانت قصة رائعة. وسأحاول فيما يلى سرد أحداثها باختصار كما سمعتها. فى منتصف التسعينيات، حيث لم تكن الأمور قد ساءت بعد على هذا النحو فى الضفة الغربية، كان قنديل وزوجته وأولاده على خير ما يرام فيما عدا أسنانه. لقد بدأت فى التسوس وبدأت تؤلمه وأصبح فى حالة مزرية! طلب منه أطباء الأسنان الإسرائيليون ١٥٠٠٠ شيكل (نحو ثلاثة إلى أربعة آلاف دولار) لمعالجتها. أطباء الضفة الغربية كانوا يريدون مبلغًا طائلاً أيضًا، ٨٠٠٠ شيكل (نحو ألفى دولار). وعلى ذلك، حاول قنديل أن يجرب حظه فى عمان بالأردن، حيث يقيم أبناء عمومته، فربما يعقد صفقة هناك. لكنها لم تكن بالصفقة الجيدة، بل ربما أسوأ (فقد كان سيدفع ما يقرب من ٢٥٠٠ دولار). رفض الصفقة وقرر أن يشيع أسنانه إلى مثواها الأخير.

حينئذ قالت له ابنة عمه فى عمان "انظر ماذا وجدت!" ثم أعطته بطاقة طبيب أسنان فى بغداد. هب قنديل قائلاً"هل فقدت عقلك ؟ ما شأنى أنا بالعراق؟". فردت عليه قائلة "ماذا لديك لتخسره ؟ سوف يسدد أبى ثمن المكالمة". وعلى ذلك، اتصل قنديل بالعراق.

باختصار، استطاع قنديل أخيرا إنهاء مهمته فى بغداد بعد رحلته التى استغرقت ثمانى عشرة ساعة من عمان إلى بغداد والعكس، والإقامة بأحد الفنادق والطعام، كل هذا مقابل ثلاثمائة دولار. فى العراق اكتشف أن قيمة الدينار العراقى قد انخفضت بدرجة كبيرة (الواقع أن ذلك حدث للاقتصاد العراقى ككل) خاصة بعد حرب الخليج الأولى لدرجة أن شراء البضائع كان لا يكلف شيئًا تقريبا! وعلى ذلك، قام قنديل فى أول عودة له من بغداد بتحميل سيارة الأجرة التى تقله بمنسوجات يدوية وأقمشة حريرية مطرزة ومصنوعات يدوية، وهى كنوز يمكن أن تجلب له ثروة فى فلسطين. وبواسطة تلك الثروة (ومع سيارة أجرة مليئة بالقهوة. حيث كان لا يمكنك الحصول على القهوة بأى ثمن فى بغداد - إلا بالثمن الذى يحدده قنديل بعد ذلك) عاد قنديل إلى بغداد مرة أخرى من أجل استكمال علاج أسنانه. وهناك، بدأ تحميل المزيد من سيارات الأجرة بالكنوز إلى عمان وفلسطين، حتى لو لم يكن بصحبتها. كيف يمكنه أن يترك كل ذلك ويرحل؟ لقد غرق فى بحر من الأموال! (كان زبائنه الفلسطينيون يبيعون لليهود الذين بدورهم كانوا يبيعون لأوروبا. لا أحد يشبع!) وفى كل مرة يقول إنه من فلسطين، كان العراقيون يستقبلونه بالأحضان والقبلات تعبيرًا عن التضامن. على سبيل المثال، خفض طبيب الأسنان أجرته إلى النصف من أجل "شقيقه" الفلسطينى، حتى أهداه قنديل أحد الملصقات التى تصور "قبة الصخرة" (كلفته شيكل واحدًا، بما يوازى حوالى عشرين سنتًا، من أحد المحال فى القدس الشرقية) فنسى أن يتقاضى نصف الأجر هذا. وبذلك تكلف علاج الأسنان لا شىء، على الرغم من استمراره شهورًا. وعلى ذلك، كان على قنديل أن يمد فترة إقامته بالعراق، فتوجه إلى وزارة الداخلية فى بغداد حيث التقى امرأة شابة جميلة ساعدته، فقام قنديل بدعوتها للعشاء. ولكن لم يتفق ذلك مع حيائها، فإذا

أراد أن يطعمها يستطيع أن يجلب الطعام إلى بيت عائلتها. لذلك قام بملء سيارة أجرة بالطعام - فى حقيبة السيارة وعلى المقاعد وعلى السقف - ثم بعد ذلك ملأ سيارتين. كما ذبح لها خروفًا. ولماذا لا يفعل؟ لقد كان ثريا كنبوخذ نصر! كان ذهابه إلى بيتها بالطعام الوفير والفاخر بمثابة عرض للزواج، وقد قوبل بالإيجاب. كان لدى قنديل زوجة وطفلان فى قريته. وقد أصبح لديه زوجة أخرى فى بغداد، وكرجل مسلم، كان لابد أن يؤسس لها منزلاً. يحتوى على ثلاجة وتليفزيون وأثاث فاخر. وأصبح قنديل ملكًا على العراق.

على أية حال، بدا لى رجل من فلسطين الحديثة. كنت أتساءل أيضًا فى الوقت الذى كانت فيه بغداد محط أنظار العالم، وكان جورج دبليو بوش على وشك المجىء، وكنت أعتقد أن قنديل ربما يكون الشخص المناسب الذى يمكن أن يخبرنى عن رد فعل العراقيين. كان قنديل يجيد تسلق التلال وعبور الحقول للتسلل إلى القدس الغربية، حيث أصر على أن نلتقى فى مطعم يهودى، الأمر الذى اعتبرته له مغزاه الخالص، فلابد أنه اعتقد أن ذلك سوف يكون مناسبًا لى. اعتقدت أن هذا لن يكون سهلاً بالنسبة له، ومع ذلك لم يكن يبدو غريبا عن المكان، حيث كان يضع غطاء الرأس الخاص بالعمال ويرتدى سترة جلدية ضيقة (كما يفعل الإسرائيليون). كان أيضًا يتحدث العبرية بطلاقة. ومع ذلك، كان يتحدث بهمس وعيناه تتفحصان الحجرة. سألته إن كان يرغب فى الذهاب إلى أى مكان آخر - وبالطبع كنت أعنى أى مكان عربى - لكنه هز رأسه فقط وغمغم قائلاً "لا ليس الأمر هكذا".

تساءلت كيف عرف طريقه إلى اليهود، وأخبرنى بجانب من قصته. فعندما كان صبيًا، كانت الضفة الغربية وقريته جزءًا من المملكة الأردنية الهاشمية. وعلى ذلك، كانت تخصص حصتان أسبوعيا فى مدرسته الابتدائية لتدريس التربية الدينية، التى تشمل الإسلام والمسيحية واليهودية. وهناك. تعلم أن اليهود لهم قرون وذيول، وأنهم يمشون على أربع ويأكلون لحم البشر كما يتناول الناس العاديون الدجاج ولحم الضأن. وكان قنديل يبلى بلاء حسنًا وكان يحصل على نسبة ٩٠٪ أو أكثر فى الامتحانات. ولكن فى الثانية عشرة من عمره - عام ١٩٦٧ - اندلعت الحرب (على

نحو مفاجئ تمامًا ولأسباب غامضة لا يعلمها). وعلى نحو مفاجئ أيضًا انتهت الحرب، وأصبح الجنود اليهود جزءًا من عالمه.

على أية حال، كان والده يطلق عليهم " اليهود". ولكن قنديل كان يعتقد أنهم ربما يكونون سوريين أو مصريين، لأنه فحص مؤخراتهم. حيث لم يضع أية فرصة سانحة لاختلاس النظر. ولم يعثر لهم على أى ذيل. تصادف أن كان أول شخص يتحدث إليه قنديل عراقيًا، يهوديًا عراقيًا أعجبه رغيف من الخبز البيتى الذى كان يأكله. (كان من النوع الذى يخبزونه بالقرية، طازجًا ومحمصًا تغطى وجهه الفقاعات البنية التى تعطيه شكلاً مميزًا. كانت والدة قنديل معتادة على صنع هذا الخبز، تمامًا كما كانت تفعل والدة هذا الجندى أيضًا). وقد انتهى بهم المطاف إلى اقتسام الخبز. تحدث الجندى العربية بلكنته الخاصة ، ولم يبد أنه يرغب فى أكل قنديل. وبذلك أصبحا صديقين. كان أول شخص ناضج يتحدث إلى قنديل على هذا النحو. كما يقول العرب "وجهًا لوجه". لم يكن فقط رجلاً ناضجًا، ولكنه كان جنديًا يحمل سلاحًا! كان الأمر أكبر من طاقة طفل فى الثانية عشرة من عمره. ولذلك كان قنديل يسرق كل قطعة خبز فى بيته ليعطيها لليهود.

هذا هو الطفل الذى كان، لم يكن لصا، ولكنه كان متعطشًا لاكتشاف العالم الأوسع. لقد نسى الناس الآن (حيث يصفون اليهود بالكابوس الجاثم على الصدر)، أنه عندما جاء اليهود إلى الضفة الغربية، كانوا مثل عالم طازج وحديث وموسر ورحب. لا أتحدث هنا عن تلك المثل العليا الخاصة بالحريات الغربية أو رياح التغيير أو شىء من هذا القبيل، ولكن بعد أسابيع قليلة عندما تم رفع حظر التجول، سقطت كل قيود حياتهم القديمة (الحاجز الذى كان يبدو مثل حافة العالم على خرائط القرون الوسطى، المتاريس وشبكات المدافع الرشاشة وحقول الألغام). الآن عادت الحكايات القديمة. الأماكن القديمة والحياة الطيبة. يافا ورام الله وحيفا، و مئات القرى التى لم يعد لأسمائها وجود سوى على الخرائط القديمة، ولكنها كانت حقيقية وتنبض بالحياة فى أذهانهم، أكثر من أى شىء فى حياتهم. الآن يستطيعون الذهاب إلى هناك.

وخلال أيام من انتهاء حظر التجول، كان قنديل يحوم حول الخط الأخضر. وبعد يومين، كان قد عبره وانتقل إلى عالم جديد. دخل إلى إسرائيل، غالبًا إلى أقرب مدينة وجدها، وكانت تدعى ميفاسيريت صهيون. كان بها ملعب كرة قدم مخصص للأطفال فقط ومجهز تجهيزًا كاملاً ولا توجد به أية حجارة. وكان هناك أطفال يهود، كانوا ودودين، وكان لديهم دائمًا حلوى أو لبان، وسجائر فيما بعد، فتعلم التدخين. كان يذهب إلى هناك كل يوم بعد المدرسة، أحيانًا بمفرده، وأحيانًا برفقة أصدقائه، بعدد كاف للعب كرم القدم مع الأطفال اليهود. بعد ذلك، كان الصبية اليهود يأخذونه معهم إلى منزلهم ليشرب شيئًا ما، ويلتقى آباءهم. ولم يمض وقت طويل حتى عرضوا عليه العمل، ربما مقابل نصف ليرة (العملة المتداولة تلك الأيام)، أن ينظف الحديقة أو ينقل بعض الحجارة. وعلى ذلك، أصبح لديه أصدقاء، ونقود فى جيبه أيضًا، كانت ميفاسيريت بالنسبة إليه شيئًا أشبه بالنعيم. وإذا سأله والداه أين كان بعد المدرسة، كان يرد قائلاً "كنت ألعب مع بعض الأطفال"، لأنه كان يعلم أن هناك شيئًا محظورًا بشأن ما يشعر به فى تلك المدينة.

وعندما أتم قنديل الخامسة عشرة من عمره، عاد إلى بيته ذات مساء فقال له والده "جاء بعض الناس لطلب يد ابنة عمك". كان قنديل يعلم تمامًا عن أية فتاة يتحدث والده. كانت فى سنِّه نفسها تقريبًا، وكان يعلم بلا أدنى شك أن هناك شيئًا بينهما. فلم يسبق له أن مر أمام منزلها فى القرية (نصف العائلات هناك كانوا أبناء عمومة عشيرته) دون أن يبحث عنها فى الشرفة. وعندما كانت تخرج إلى هناك وتراه كانت تهرول إلى الداخل وتغلق الباب. انتظر قنديل فى صمت ليسمع رأى أبيه. قال أبوه "إننى ضد ذلك بالطبع. قلت لهم إنها يجب أن تكون لك".

رد قنديل قائلاً "عظيم! متى سأتزوج؟" ولكن كانت هناك الكثير من الأشياء التى يجب القيام بها قبل أن يحدث ذلك. كانت عائلته كبيرة، وكانت ذات سلطان فى يوم من الأيام. فجده لأبيه كان مختارًا عمدة معينًا خلال الحكم التركى وانتهى به المطاف (كما كانت حال معظم زعماء العشائر) وهو يمتلك مساحات

شاسعة من الأرض ومعظم أموال قريته، التى كانت تقع بالقرب من الطريق المؤدى من القدس إلى تل أبيب. وفى عام ١٩٤٨ ضاعت معظم أراضى العائلة، حيث تم الاستيلاء على ثلاثة آلاف وخمسمائة دونم (ما يقرب من ثمانمائة هكتار) من أجل كيبوتس شالافيم. ولكن كانت العائلة بخير، مع امتلاكها لأكثر من مائتى رأس من الغنم والماعز والأبقار للحصول على اللبن والجبن، وأشجار البرقوق، القريبة من قريتهم "الجديدة" التى تدر عليهم الكثير من المال، والتى كانت على التلال القريبة من القدس. كان هذا أحد أسباب وجوب تزوج قنديل من إحدى فتيات العشيرة. كان يجب صون الشرف، والحفاظ على مكانة العائلة. وكان هذا أيضا السبب فى إقامة حفل كبير ضم جميع أفراد العشيرة، المئات من الضيوف والكثير من الذبائح . كان يجب أن يكون حفلاً كبيرًا، لأنه كانت توجد عشيرتان فى القرية "الجديدة"، وبالطبع كانت المنافسة بينهما محتدمة. على أية حال، كان قنديل فى منتصف السادسة عشرة من عمره قبل أن يتزوج، وكان أكبر إخوته، وكان هذا يعنى أنه يجب أن يبدأ حياته العملية مبكرًا.

وفر له يهودى من ميفاسيريت عمله الأول الذى تمثل فى نقل صناديق الألبان ومنتجاتها على شاحنات لتوزيعها فى سوق الجملة لصالح مصنع ألبان إسرائيلى شهير يدعى تينوفا. اتجه قنديل بعد ذلك إلى العمل فى بلدية ميفاسيريت، يكنس ويزرع ويكنس قمامة اليهود الذين يعيشون هناك. بعد مرور أربعة أعوام، سأله يهودى آخر إن كان يرغب فى العمل فى منطقة البحر الميت، حيث كانت هناك وظيفة شاغرة فى محمية طبيعية تدعى عين فشخة. مع حلول عام ١٩٧٣ذهب قنديل إلى هناك ليلقى نظرة، كان المكان جميلا (حديقة ومنتجع به ممرات للمشى وأحواض مياه معدنية منحوتة فى أغصان البردى) وقد عمل هناك أكثر من عشرين عاما.

كان يقوم فقط بالحراسة والزراعة، محافظا على الممرات خالية من أوراق البردى، ويلتقط المخلفات التى يلقى بها الزائرون. ولكن لغته العبرية كانت جيدة، وبدأت فى التحسن، وسريعًا ما قام رؤساؤه بترقيته مرة بعد أخرى. وذات يوم، قالوا له " تأنق جيدا، سوف تذهب إلى المدينة". كانت الشركة التى تدير المنتجع

تدير أيضًا حمام سباحة فندق الهيلتون على شاطئ تل أبيب. كان عليه أن يتدرب هناك لمدة ثلاثة شهور على العمل منقذًا. ثم قام بالتدرب ثلاثة أشهر أخرى على الإنقاذ البحرى. وعندما أعادوه مرة أخرى إلى المنتجع الموجود فى عين فشخة، تم تكليفه بحراسة الأطفال اليهود فى حمامات السباحة. كان العمل سهلا وكانت علاقته باليهود على خير ما يرام. كان العرب هم من يسببون له المتاعب. فقد صرخ فيه زميل من الناصرة "ما الذى تفعله هنا بعد أن ألقوا بك خارجًا؟ هل تعتقد أنك فَور أن تعود ستحصل على العمل مرة أخرى؟" تصادف أن سمعه المدير اليهودى فانفجر فى وجهه قائلاً "لماذا تتحدث إليه على هذا النحو بدلا من أن ترحب به؟ أنت مطرود من العمل!"

قامت إحدى السكرتيرات التى تعمل فى المحمية الطبيعية بمساعدة قنديل على تعلم قراءة وكتابة العبرية. وعندما غادر المدير العمل فى عطلة، ترك كل شىء تحت تصرف قنديل، فعمل قنديل على إعداد مفاجأة سارة له عند عودته. لم يحافظ فقط على الممرات خالية من أوراق البردى، ولكنه صنع ممرا جديداً أو حوض استحمام جديدًا. أصبح قنديل بطريقة أو بأخرى مديرًا للمدير، مسئولاً عن المكان بأكمله. كان يربح ٦٥٠٠ شيكل شهريا، أى أكثر من ١٥٠٠دولار! كيف يمكنه ترك عمل كهذا؟

خلال الانتفاضة الأولى كان الناس فى قريته يقولون إنه يتعين عليه أن يترك ذلك العمل. واستخرج له رؤساؤه تصريحًا للعمل فى إسرائيل. ولكن المشكلة أنه لم ينل شرف الكفاح الوطنى: ففى الوقت الذى يتم فيه إطلاق النار على أطفال الحجارة، كيف يظل يعمل لدى اليهود؟ لم يكن يهتم بالسياسة كثيرًا. وأحب فكرة إنشاء دولة تسمى فلسطين، حيث بدت له فكرة عادلة، ولكن ليس على حساب رفاهة عائلته. كان أحد أبنائه لديه مشاكل صحية سيئة، لا يستطيع فعل أى شىء، سوى إنجاب الأطفال، وكان عليه أن يعوله. ولذلك، واصل العمل.

سرعان ما بدا أنه تم نسيان هذه الآثام، عندما بدأت عملية سلام أوسلو تؤتى ثمارها. عاد عرفات، وجلست السلطة الفلسطينية على تل من المال عامًا أو اثنين. (كان متعهدو المقاولات فى قريته يتحصلون على عشرة آلاف شيكل شهريا) ولم يكن

يهتم أحد بمن يعمل وأين يعمل. ولكن عندما قتل رابين وتحول الحلم إلى كابوس، بدأت عمليات التفجير الاستشهادية وكذلك الإغلاق، ولم يعد أحد يجد عملاً، وتجمد قنديل مشدوهًا مثل رجل ملتصق إلى صارى وسط الرياح العاتية.

ذات يوم جاء إليه رجال يرتدون الأقنعة وحذروه حتى يترك العمل لدى اليهود. لكنه كان يعلم من هم، كانوا من قريته، لكنه لم يعرهم انتباهًا. وذات ليلة، تركوا زجاجة مولوتوف وعلبة ثقاب أمام باب بيته. فزعت زوجته وتوسلت إليه أن يترك العمل. وفى ليلة أخرى، أطلق شخص ما يقود سيارة النار على منزله. لم يكن أمام قنديل خيار آخر. فكتب خطابًا إلى رؤسائه قال فيه إنه لا يستطيع الاستمرار بعد الآن. طلبوا منه أن يمهلهم أسبوعين لإيجاد بديل ومنحوه معاش تقاعد، فقد عمل لديهم أكثر من ثلاثة وعشرين عامًا.

وعلى ذلك، بحلول عام ١٩٩٦ كان قنديل بلا عمل. كان يقوم ببعض أعمال التشييد، على الأقل، عندما كانوا يقومون بالبناء فى الضفة الغربية. وكان أحيانا يتسلل إلى إسرائيل للعمل كعامل عادى لدى اليهود. ولكن رب ضارة نافعة، فقد كان لديه متسع من الوقت، وهكذا وجد طريقة لمعالجة أسنانه ونجح فى أن يصبح ملك العراق.

كان قنديل يعمل فى الخارج، عندما أتى رجل يدعى موسى ، وهو رجل معروف جيدًا من القرية المجاورة ، وأخبر أبناء قنديل بأنه يود التحدث إلى والدهم. كان ذلك فى ربيع عام ٢٠٠١ وكان لقنديل فى ذلك الوقت نظام ثابت: فأخبر أبناؤه موسى أن يأتى فى تمام السادسة والنصف وسيجد أباهم فى البيت. قال له موسى ذلك المساء وهما جالسان معًا "اسمع يا أبا حسن. إن الجميع يعلمون من أنت، وعلى ذلك ليس لديك شىء تقلق بشأنه. ولكن البعض فى شرطة رام الله يرغبون فى التحدث إليك. يجب أن تذهب إليهم غدًا وأن تحتسى معهم القهوة".

فى صباح اليوم التالى، توجه قنديل إلى ذلك المجمع الشهير فى رام الله (كان حتى ذلك الحين سليمًا لم يمسس). وفى نحو العاشرة و النصف، سلم بطاقة هويته إلى الشخص الجالس إلى المكتب، وقال له إنهم طلبوا منه الحضور

للتحدث معه. لم تكن هناك قهوة، ولا يحزنون. لم يكن هناك أى شىء سوى الجلوس على السلالم حتى الرابعة والنصف، حينما أخبروه أن الرئيس ليس لديه وقت ذلك اليوم. ردوا إليه هويته، وأخبروه أنه يجب أن يعود غدا، وقد فعل. وصل إلى المجمع (الذى يطلقون عليه المقاطعة) تقريبًا العاشرة صباحا، وكان ذلك فى الثانى من مايو من عام ٢٠٠١ ولكنه جلس على السلالم مرة أخرى حتى السادسة أو السادسة والنصف بعد الظهر، حينما جاءوا إليه أخيرًا. أخذه ثلاثة رجال يرتدون الملابس المدنية إلى الطابق الثالث، ثم إلى حجرة صغيرة، حيث ضربوه بلا رحمة لمدة ثلاث ساعات متواصلة. وفى العاشرة مساء رفعوه من على الأرض وقيدوا يديه خلف ظهره وشدوا وثاق قدميه. بعد ذلك علقوه فى خطاف ورأسه إلى أسفل، وكان وجهه المثخن بالجراح يبعد عن الأرض قدمًا واحدًا.

فى اليوم التالى، بدأ الضرب مبكرًا مع مطلع الصباح واستمر طوال اليوم. وحينما كان الجنود يشعرون بالتعب، كانوا يعلقونه فى الخطاف، ويذهبون لاحتساء الشاى. كان كل من يمر به يضربه. ومن جاءوا لزيارة الحراس، وهم فقط أصدقاء توقفوا لاحتساء الشاى، كانت تتم دعوتهم إلى زنزانة قنديل لتقديم واجب الضرب على هيئة لكمة أو ركلة. بعد ذلك، كان على الجنود أن يبينوا لأصدقائهم كيف يفعل المخلصون ذلك، بسوط سميك متصل بتيار كهربائى يعادل ألمه الضرب بسوطين دفعة واحدة. وفى كل مرة يستعملون معه السوط، كان الدم ينزف من جسده. هذا الدم الذى على الحائط كان دمه. فى المساء، أحضروا رجلاً يعرفه قنديل، أو مثل الجميع فى فلسطين، سمع عنه. كان عايش رشيد رجلاً قبضت عليه ميليشيا فتح خلال الانتفاضة الأولى. فى عام ١٩٨٨ أو ١٩٨٩. حيث كان متهمًا بالتعاون مع اليهود. كانوا على وشك شج رأسه بالبلطة، ولكنه رفع يديه دفاعًا عن نفسه، فشقت يداه إلى نصفين وبترت كل أصابعه. وفى الليلة التالية، جاءوا به إلى زنزانة قنديل، ليحذره "أخبرهم أى شىء يريدون معرفته".

لكنهم لم يسألوه عن أى شىء على الإطلاق. لم يتحدث إليه أحد على الإطلاق، بل كانوا فقط يخورون وهم يضربونه، أو يلعنونه وهم يطرحونه أرضًا كى يركلوا رأسه. ولمدة ستة عشر يومًا، لم يسأله أحد عن شىء أو يخبره بشىء،

فقط يضربونه. كان سيقول لهم ما يريدون، فقد كان مستعداً لفعل ذلك وليست لديه أية رغبة فى لعب دور البطل أو التزام الصمت. ولكن لم تكن هناك فرصة لقول الحقيقة أو الكذب، لم يكن يعرف ماذا يريدون منه، وما سبب وجوده فى ذلك المكان؟ لم يكن يدرى لماذا وكيف لا يزال على قيد الحياة؟ وفى اليوم الرابع أو الخامس أحضروا إليه ورقة - لا يوجد بها شىء، فقط ورقة بيضاء - وطلبوا منه أن يكتب "اسمه واسم عائلته وتوقيعه"، فكتب اسمه ووضع توقيعه.

كانت أسرته تسأل عنه كل يوم. وفى عطلة الأسبوع، بعد ستة أيام من القبض عليه أمروهم أن يأتوا له بملابس داخلية. ولكن عندما جاءوا إلى المقاطعة - والده وأحد أبنائه وصهره - لم يسمحوا لهم بالاقتراب منه. أخذ منهم الحارس الملابس النظيفة - ملابس داخلية وبنطلونات وقمصان وجوارب - وقال لهم "إننا لا ندرى أين هو؟، لكن لا تقلقوا سنعثر عليه ونتأكد أنه حصل عليها". غيَّر قنديل ملابسه. كانت زنزانته تبلغ المترين طولاً وأقل من متر من حيث العرض، ولا يوجد بها ماء. وعندما كان معلقًا، لم يكن أمامه سوى التبول فى ملابسه. لكنه لم يحصل على ملابس نظيفة لمدة أسابيع. ذات صباح، أنزلوه من الخطاف المعلق به، وطلبوا منه أن يغتسل وأن يحلق. كما أمروه أن ينظف زنزانته وأن يزيل الدماء الموجودة على الحائط التى جف بعضها إلى الأبد، إنها دماء أشخاص آخرين. ثم أنزلوه عبر الردهة (كانت الزنزانة المجاورة له تغطى الدماء حتى سقفها!) إلى غرفة أخرى أكثر اتساعا وذات نوافذ، وكان عليه أن ينظف تلك الغرفة وأن يحضر ثلاثة مقاعد.

فى منتصف اليوم، جاءت سيدتان من منظمة الصليب الأحمر. وكانت إحداهما ألمانية، والأخرى عربية تترجم لها. أعطوه صابونًا ومعجون أسنان ومنشفة صغيرة. ولكن الحراس كانوا قد أمروه ألا يفتح أو يلمس أى شىء يمنحونه إياه. أعطوه أيضا "عشر سجائر - كانت السيجارة الأولى التى يدخنها منذ شهر - ثم دخنها جميعًا ضاربًا عرض الحائط بما قد يفعله الحرس. أشعلها بينما كان يتحدث إلى السيدتين، فلا يستطيع الحراس فعل أى شىء فى أثناء وجودهما. كان الصليب الأحمر يعطى السلطة الفلسطينية ستة عشر دولارًا عن كل سجين فى اليوم، من أجل الحفاظ على مستوى السجن.

كان من المفترض أن يشتروا بهذا المال طعامًا للسجناء. لحومًا ومنتجات ألبان وخبزًا وخضراوات طازجة وشايًا أو قهوة. بدلا من ذلك كان الزبانية يقدمون لكل سجين ربع رغيف من الخبز وربع ثمرة طماطم وربع ثمرة خيار وربع بيضة. وكانت منظمة الصليب الأحمر تقدم للسجن خمس علب سجائر لكل عشرين سجينًا فى كل يوم. وكان يفترض أن يحصل كل سجين على خمس سجائر يوميًا، ولكن لم يحصل قنديل أبدا على واحدة منها، فالحراس كانوا يبيعون السجائر على قارعة الطريق. ولم ير أبدا شيئًا شبيهًا بالوجبة إلا عندما جاءت مندوبتا الصليب الأحمر. فبعد وصول السيدتين، جاءت صينية إلى حجرة المقابلات، بها لحم وبطاطس مقلية وخضراوات طازجة وشاى. (بالطبع كان الجنود قد أمروا قنديلاً ألا يقرب ذلك الطعام، حتى يتسنى لهم الاستيلاء عليه فور مغادرة السيدتين).

لم تستطع السيدتان فعل الكثير لقنديل. كانت مهمتهما الوحيدة هى معرفة مكان كل سجين وإبلاغ أسرته. سألوا قنديل عن اسمه وسنِّه (ستة وأربعون عامًا) وما إذا كان لديه أطفال (لديه أحفاد بالفعل!) وأين يوجد منزله، وهل هو يستأجره أم يملكه وهل تحتاج أسرته إلى مساعدة ؟

أيضًا، حذر الحراس قنديل من التحدث أكثر من اللازم، أو قول أى شىء على الإطلاق، فعليه فقط أن يدلى باسمه وسنِّه، هذا هو كل المطلوب منه. ولكنه ظل يتحدث إلى السيدتين لمدة ثلاث ساعات كاملة، وأخبرهما أنه لا يعلم سبب وجوده هنا. وكشف لهما عن آثار التعذيب فى جسده، فبدأت السيدة الألمانية فى البكاء.

كان مندوبو الصليب الأحمر يأتون مرة كل شهر. وبخلاف ذلك كان زبانية قنديل يفعلون ما يتراءى لهم. وسرعان ما كان يعرف بوصول نوبتجية جديدة من الحرس كل ساعتين. كان الضرب الأسوأ يحدث مع بداية ونهاية النوبتجية، بسبب وجود الضباط أو الجنود الآخرين، حيث يتفنن الجميع فى بيان مدى ملاءمتهم للعمل. كان يعلم كل أنشطة الحراس التجارية المنحرفة، على سبيل المثال، من منهم يبيع زيت الزيتون والطعام الطازج الذى تحضره العائلات إلى المجمع. (لم يكن يحصل أى من السجناء على أى من هذا الطعام). تعلم قوانين المكان، هذا إذا

أطلقنا عليها قوانين. فكل أسبوع، تحصل على موسى حلاقة من النوع الذى يتم التخلص منه بعد الاستخدام (متطلب آخر للصليب الأحمر)، ولكن يجب عليك دفع عشرة شيكلات إذا أردت استخدامه. (غير المستخدمة منها يمكن بيعها بالشوارع). ولكن بعد استخدامه، يجب أن تضعه فى غلافه البلاستيكى (فحتى المستخدمة يمكن أن تباع مقابل نصف شيكل أو نحو ذلك) وكان الله فى عونك إذا لم تقم بتخزينه على النحو الصحيح أو لم يتم العثور عليه. (مأمور السجن بنفسه له من الحب جانب). ذات مرة، اختفى موسى أحد السجناء. استولى عليه أحد رجال الشرطة. فتم اقتياد كل السجناء المائة وستة وتسعين إلى الفناء وجردوا من ملابسهم وتم تفتيشهم. كان الوقت شتاءً، وكان المطر يشبه الجليد عندما يصطدم بك، ولكن السجناء وقفوا عرايا لعدة ساعات، وتم استدعاء فرقة من الشرطة المستقلة للدراجات النارية لكى يسوموهم العذاب عبر ضربهم بالهراوات والمواسير. بينما يتم تفتيش كل قطعة من ملابسهم. أخيرًا، جاء الشرطى الذى سرق الموسى مهرولاً وصائحًا "وجدته تحت إحدى الموائد". وقام مأمور السجن بمعاقبته بتجريده من ملابسه فى الصقيع الماطر، وأمره بأن يبتاع علبة مياه غازية وعلبة سجائر لكل أفراد وحدة الدراجات النارية. (لقد كلفهم ذلك المزيد من العمل). ارتكب أحد السجناء غلطة لا تغتفر حينما اقترح أنه يجب أيضًا منح كل سجين سيجارة، فعوقب بالوقوف عاريا فى زنزانة مساحتها متر مربع واحد لمدة خمسة أيام.

استمرت الحال على ما هى عليه يومًا بعد يوم. الضرب والبرد والقذارة والمجاعة. ولم يخبره أحد ما هى تهمته. حتى جاء يوم (بعد زيارة قام بها الصليب الأحمر) حضر فيه رجل مهم، وهو محقق من الصفوف العليا، وفى أعقابه اثنان من المساعدين يتبعانه كظله، وجلس فى حجرة المقابلات فى مواجهة قنديل.

بالمناسبة، كانت قدما قنديل موثقتين بقيود حديدية ويداه مربوطتين أمامه بشريط من البلاستيك، خشية أن يؤذى المحقق، سليل العائلة الكبيرة، وصاحب المركز المرموق فى السلطة الفلسطينية.

قال له "الآن أريدك أن تخبرنى حقيقة ما هو مدون فى تلك الأوراق"، وكانت أمامه رزمة من الأوراق، التى ربما كانت تحمل اعتراف قنديل.

أجاب قنديل"لا توجد أية حقيقة. كل ما فعلت هو أننى وقعت على ورقة بيضاء تمامًا".

"انظر إن توقيعك هنا. لقد وقعت هذه".

فأجابه قنديل "إننى لم أكتب أى شىء هنا، فأنا لم أضع توقيعى سوى على ورقة بيضاء".

قال المحقق - ودعنا نطلق عليه أشرف - "حسنا إنك لم توقع هذه الأوراق". فى غضون ذلك، نهض من مكانه، وخلع معطفه ووضعه على الكرسى. ضربه مساعداه الواقفان خلف قنديل بقبضتيهما وهو جالس إلى المائدة. وقام أشرف بفتح حقيبته وأخرج منها سلكًا غليظًا وقام بجلده على مؤخرة عنقه.

ولكن قنديل لم ينبس ببنت شفة، ولم يقر بأنه صاحب هذا الاعتراف. توقف أشرف عن جلده وشغل نفسه بتعرية طرف السلك. وقام المساعدان بجذب يدى قنديل على المائدة. وقاما بالضرب عليها بقطعة من الخشب تشبه الجاروف حتى تهشمتا. وأخذوا يضربونه بعصا طويلة. وغمغم أشرف قائلا "أمازلت لم توقع؟" ثم وصَّل السلك بالكهرباء، ولمس بطرفه العارى رقبة قنديل ثم انتقل إلى قاعدة عموده الفقرى.

انتفض قنديل من على كرسيه وسقط على الأرض مغشيا عليه. لم يدر كم لبث فاقدًا الوعى، وعندما أفاق، كان عاجزًا عن الحركة، متجمدًا من الألم والصدمة. ولكن تناهى إليه صوت أشرف - لا يزال هناك - وكان مشتبكًا فى محادثة محتدمة مع رجل آخر كان يناديه باسم "الدكتور".

"هل فقدت عقلك؟" كان هذا صوت الدكتور. "لقد أعطيته الكثير من الكهرباء، لقد كنت على وشك أن تقتله".

قال له أشرف "وماذا فى ذلك؟ كلب ومات. هل تستطيع أن تجعله يقف على قدميه؟"

اضطر الطبيب إلى الانتظار ساعة كاملة، قبل أن يستطيع قنديل التحرك والنهوض. كانت يداه عاجزتين عن الحركة. قام بتدليك أصابع قنديل، ثم راحتيه بلطف، وخاصة اليمنى. كان على قنديل استخدام يده اليمنى ليوقع على ورقة تقول إنه بصحة جيدة. ولم يستطع الدكتور الانصراف حتى وقع هو أيضا. أقسم قنديل مرتين على أنه بصحة جيدة.

إنه لم يقم أبدًا بذلك "الاعتراف". ولكنه اكتشف ماذا يوجد به. فبعد أربعة أو خمسة أيام من معالجته من الصدمة التى ألمت به، أمر نائب مأمور السجن بإحضار قنديل إلى مكتبه، وأمره بأن يقرأ عريضة الدعوى الموجهة ضده بصوت مرتفع "حتى أستطيع أن أفهم كل ما فعلت". كان نائب المأمور زميلاً لقنديل فى المدرسة، وكان ذلك من قبيل الإذلال له. وبالمناسبة، دعا نائب المأمور خمسة ضيوف - اثنين من عائلته وثلاثة من المنطقة التى يعيش فيها قنديل - حتى تصبح فضيحة قنديل مدوية، تمامًا كما لو أنه تم نشر ذلك "الاعتراف" فى الجرائد اليومية.

تم الكشف عن أن قنديل كان مشتركًا فى حادث الاختطاف الشهير لكل من مصطفى الديرانى والشيخ عبد الكريم عبيد، وهما اثنان من أهم قياديى حزب الله الذين اختفوا فى لبنان قبل ذلك بأكثر من عشرة أعوام. (بالطبع، كان من المعروف جيدًا أن إسرائيل قد اقتنصتهما، ولكن السؤال الذى كان يقض مضجع الثورة الفلسطينية هو: من الذى وشى بهما؟ والآن يمكنهم أن يعالجوا القرح الذى مسهم). كما أن قنديل هو الذى خطط لاختطاف اثنى عشر جنديا من الفيلق الأردنى (وهذا يمكنه الآن أن يسدل الستار على النزاع الطويل الذى كان بين منظمة التحرير الفلسطينية والمملكة الأردنية بخصوص هذا الموضوع)، كما أنه أيضا قام بتدبير عملية اختطاف جندى مصرى من سيناء بالقرب من الحدود مع غزة بمدينة رفح (فالسلطة الفلسطينية لا تستطيع أن تنسى أشقاءها المصريين)، وهو أيضا الذى قتل طفلين من سكان التلال بالقرب من قريته، وهو أيضا الجاسوس الذى وشى بخمسة وعشرين ناشطًا فلسطينيا قتلهم الإسرائيليون، كما أنه الواشى الذى قام بالكشف عن عصابتين لتهريب الأسلحة من الأردن، وهو أيضا من قام بإطلاق النار على أحد أفراد إحدى العائلات الكبيرة بقريته.

وعندما قرأ قنديل آخر التهم الموجهة إليه، علم من الذى دبر له هذه المكيدة، وألقى به فى تلك الحفرة من النار. إنها العائلة المنافسة لهم فى قريتهم، حيث قتل أحد أبناء عمومتهم رميا بالرصاص، وكان يجب أن يدفع شخص ما الثمن ليستردوا كرامتهم. لكن بالطبع لم يكن مسموحًا له تفسير ذلك أو تفسير أى شيء. وبعد انتهائه من قراءة قائمة الاتهامات، تم اقتياده إلى زنزانته مرة أخرى، حيث تم تعليقه من قدميه. أوضح نائب المأمور لضيوفه أن هذه القضية من النوع الذى يتطلب مراقبة دقيقة من قطاع الأمن. لأن قنديل، قبل كل شيء، رجل خطير. وكما اعترف بصوته شخصيًا فإنه ذو رتبة عسكرية كبيرة لا تقل عن رائد فى وحدة الكوماندوز الإسرائيلية المسماة "دوفيدفان". (وقد سمعوا ذلك بآذانهم التى سيأكلها الدود!).

وعندما سمع قنديل صوته وهو يقرأ الاتهامات الموجهة إليه قال فى نفسه "رائد! لو كان بالفعل جاسوسا للإسرائيليين لأصبح يمتلك سيارة ونصف مليون فى البنك! إنه الآن لا يستطيع أن يساعد أبناءه حتى لو بكسرة خبز". إنه يعلم أن حياته قد انتهت. وأنه سوف يظل معلقا فى ذلك الخطاف إلى الأبد. يراقب الصراصير وهى تزحف على طعامه، المكون من ربع ثمرة خيار، ساعات طويلة كل يوم، حتى يتم إنزاله لتناول الطعام. كان يتجمد من البرد فى زنزانته طوال الليل، يتضرع إلى الله كى ينعم عليه ببعض النوم حتى يشفى من بعض آثار الضرب الأليم. وتتناهى إلى مسامعه أنات السجناء الآخرين. وضجيج إطلاق النار خارج المقاطعة (لماذا كل هذا الرصاص؟) ومع مطلع الفجر. يتم إيقاظه بواسطة نوبة جديدة من الحراس الذين يجب عليهم ضربه ضربا مبرحًا على نحو أقسى من النوبة السابقة، أو اليوم السابق. فى بعض الأيام، لا يدرى إن كان ذلك مدبرًا أو بمحض الصدفة، كانوا يقومون بجلده حتى ينزف نزيفًا شديدًا، أو يركلونه فى ظهره حتى تكاد كليتاه تخرجان من مكانهما، أو يضعون قضيبًا من الحديد يكاد يخترق رأسه. ثم يقولون "من العار أن يموت خائن مثلك قبل أن تكتمل كل الأدلة الكافية لمحاكمته. ولكننا نحمد الله أن لدينا اعترافك. كما أننا أمطنا اللثام عن الكثير من الجرائم المروعة!"

كان حيا - على الرغم من أنه فقد نصف وزنه، لم يتبق منه سوى عظام بارزة تحت جلده الشاحب - وذلك فى الثامن والعشرين من مارس عام ألفين واثنين، حينما توقف العذاب. كان معلقًا فى زنزانته طوال اليوم. حينما توقف كل شىء الطعام والصراخ والأوامر. لا شىء! لم ير حارسًا طوال اليوم! ولم يدر أحد ما الذى يحدث، ولكن تحولت الطلقات النارية بالخارج إلى انفجارات كبيرة - قنابل أو دانات مدافع - شىء هائل. استمر ذلك بلا توقف طوال الليل والنهار. وفى الليلة التالية، يوم ٢٩ مارس فى السابعة مساءً، سمعها: إنها كلمات عبرية! حطم الجيش الإسرائيلى المقاطعة، وأخذ الجنود يبحثون فى حطام المجمع تلك الليلة.

كان هناك ١٩٦ سجينًا، وكان قنديل آخر من وجدوه. كان يصرخ بالعبرية مناديا عليهم، لكن زنزانته كان يخفيها باب من وراء باب، ولم يحرروه من خطافه حتى أخبرهم السجناء الآخرون بوجوده. تم نقل كل السجناء بالشاحنات إلى أحد المعسكرات الإسرائيلية، الذى لم يصلوا إليه حتى الرابعة صباحا، وهناك لم يصدق قنديل ما حدث. فى الرابعة والنصف صباحا، وفى أثناء هطول المطر، جلب الجنود الإسرائيليون الطعام وحصل كل سجين على شطيرتين إحداهما بالجبن الأبيض والأخرى بالجبن الأصفر، وعلبة زبادى حديث الإنتاج وزجاجة مياه معدنية وبرتقالة وخمس سجائر! لم يذق فى حياته شيئًا أشهى من ذلك الطعام.

ومع شروق الشمس، أحضروا الخيام والأسرة، وحصل كل منهم على مرتبة وبطانيتين وإفطار. كان مكونًا من الخبز اليهودى غير المختمر المسمى (ماتساه) والخاص بعيد الفصح، وجبن أبيض وطماطم وفلفل وخمس سجائر أخرى وشاى. وفى ذلك الصباح قاموا بنصب الخيام، لتقيهم من المطر، ووضعوا الأسرة. وحينما جاء موعد الغداء، جاءوا بالدجاج، إلى جانب الخبز اليهودى الذى كان فى رأى قنديل أشهى من لحم الضأن. واستمرت الحال على ما هى عليه عشرة أيام حتى أخبره الإسرائيليون أنه حر ويمكنه العودة إلى منزله.

وبعد مرور عام، كان قنديل مندهشًا وقال لى "أتمنى لو أن عُشر الفلسطينيين فقط يتصرفون كما فعل الإسرائيليون". وأضاف "أريدك أن تذكر فى كتابك أننى

لا أتمنى لأى شخص، حتى لو كان من العائلة الأخرى، أن يقع فى أيدى هؤلاء الحيوانات. إنك تعلم أننى اعتدت أن أكون إلى جانب الدولة الفلسطينية ومن المؤيدين لإقامتها، أما الآن فأنا أتمنى أن يقوم الإسرائيليون بسحقهم وإرسالهم إلى الجحيم".

إن مشاكل قنديل بلا نهاية. فهو يعلم أنه إذا تحسنت الظروف لصالح السلطة الفلسطينية، فسوف يأتى زبانية الأمن من أجله مجددا. ولكن هذه المرة سوف يقتلونه. لماذا يبقون على حياته؟ فى قريته، لا أحد يتكلم إليه الآن. فالجميع يعلم أنه مشبوه، "خائن". وإذا أتى زوار إلى منزله لزيارة أبنائه، توجب عليه أن يترك المكان. حتى لا يدنس اللقاء، لقد أصبح رجلاً غير مرئى. هذا هو السبب الرئيسى الذى دفعنى لوضع قصته فى هذا الكتاب، وهذا هو السبب أيضا فى أنه كان ينظر بعين متوجسة إلى كل من فى المطعم، فربما كان هناك عرب يعملون فى ذلك المطبخ.

لا تزال يداه تفتقدان الإحساس، وأحيانا لا تعملان جيدا، وهذا ما وقف حائلا أمام عمل قنديل حتى لو تسلل إلى إسرائيل للعثور على عمل. لم يعد يرغب الإسرائيليون فى منحه أى تصريح، ولا جواز سفر حتى يستطيع مغادرة قريته. (فهو لا يستطيع الذهاب إلى أى مكان عبر الأردن. لأن السلطة الفلسطينية أدرجت اسمه فى قائمة غير المرغوب فيهم). كما أن جواز السفر الإسرائيلى لن يمكنه أيضا من دخول العراق لرؤية زوجته الشابة. إنه يشعر بالقلق بشأنها، ولكن ماذا يمكنه أن يفعل؟ هل يمكننى مساعدته من خلال الحصول على تصريح من الأمريكيين لكى يرحل هو وزوجته الأولى إلى تركيا ثم يتسللا بعد ذلك إلى كردستان؟

لم أسأله أبدا عن العراقيين، فلم يبد ذلك لائقًا. ولكننى تطرقت إلى سؤال عن أسنانه: هل تقلقلت من مكانها وهل ضربوه فى فمه؟ رد قنديل قائلا "لقد ضربونى فى كل جزء من جسدى. هؤلاء الحيوانات ركلونى فى فمى! ولكن هذه الأسنان". وابتسم ابتسامة جميلة. "قوية كالصخر. هذه الأسنان سوف تكون آخر جزء منى يعيش إلى الأبد".

استغرق الأمر أقل من ساعة لكى نعثر عليها، على الرغم من أنها لم تعد تقيم فى قرية "الشجاعية". فقد نقلها أصدقاؤها فى حماس إلى مكان آخر فى غزة، لأنها كانت مستهدفة من قبل الإسرائيليين. تبين أن اسمها لا يزال "أم الشهداء" وكان كافيا لاقتفاء أثرها، فهى ذائعة الصيت لدى الفلسطينيين، أيضًا. فقط خلال الأسابيع القليلة الماضية، علمنا أنها "قدمت ابنًا آخر للكفاح".

اسمها الحقيقى مريم فرحات، على الرغم من أنها تعرف باسم "أم نضال" وهو اسم ابنها الأكبر. آخر الشهداء. (واسم نضال فى اللغة العربية يعنى الكفاح بالإنجليزية، وكأنها كانت تعرف عندما أطلقت عليه هذا الاسم. بأنه سوف يكون اسمًا على مسمى).

لقد أنجبت عشرة أبناء، منهم ستة ذكور. استشهد اثنان منهم. وهناك ابن معتقل فى السجون الإسرائيلية. ومع ذلك، كان ابنها وسام فرحات (الذى فقد بعض أصابعه بسبب انفجار قنبلة يدوية فى يده قبل أن يرميها) جالسًا معنا يصب لنا الشاى منصتا فى احترام لوالدته وهى تتحدث عن أبنائها. كانت تقول لنا بأنها فخورة بأبنائها جميعًا، وخاصة الشهداء منهم، لأنهم استشهدوا فى سبيل الأمة الإسلامية والعدالة الحقة.

وأضافت "إن الألم يعتصر قلبى، ولا ينتهى أبدًا. إننى أبكى كل يوم لفقدى أبنائى. ولكن الهدف الذى استشهدوا من أجله أكثر قيمة وأهمية من آلامى. إننى لم أفقدهم، بل سيغيبون عنى فقط بعض الوقت. إننى أحتسبهم عند الله شهداءً".

لم تكن امرأة شابة، ولكنها كانت تتحدث بحماس باذلة قصارى جهدها كى تبدو هادئة. كانت ترتدى حجابًا أسود اللون يغطى شعرها وجبهتها ووجنتيها، وكان مشدًا بقوة (كما لو كان صلبًا) بواسطة مشبك تحت ذقنها. كانت ذات شفتين ممتلئتين ووجنتين مستديرتين. لابد أنها كانت ذات يوم فتاة جميلة. ولكن وجهها الآن الذى يطل من حجابها الأسود يبدو شاحب اللون ممتقعًا، تحوطه الهالات السوداء تحت عينيها، إنه وجه إنسان لا يريد الحياة.

"لا أحد يصدق أن هناك أما تود أن تفقد أبناءها. ولكن بما أن أرضنا محتلة ويعاملوننا بمنتهى الوحشية، يجب علينا أن ندافع عن أنفسنا. وإلا فسوف نخسر وجودنا وإحساسنا بوطنيتنا. إننى راضية باستشهاد أبنائى".

كان لزاما علينا أن نتوقف عن الحديث من وقت لآخر لأن المنزل كان ملاصقًا لأحد المساجد. (ماذا تمتلك تابع حماس أيضًا؟). وكل ساعتين تقريبًا كان المؤذن يدعو المؤمنين للصلاة. فى الواقع، كان صوته يصل إلينا عبر مكبرات الصوت المعلقة على المئذنة. من على البعد، كان هذا النداء (الله أكبر) فائق الجمال والروعة، وهو إحدى سمات العالم العربى. أما إذا كان ملاصقًا لك، وفى مستوى المئذنة، فإنه يدخل الغرفة مثل سارينة الإنذار فى الغارات الجوية. كانت عائلة فرحات - مريم وابنها وسام وزوجها فتحى - يلتزمون الصمت. لا يذهبون للصلاة، ولكنهم فقط ينتظرون حتى ينتهى الأذان. لم يكن ذلك يزعجهم مثقال ذرة. عندما حدث ذلك للمرة الثانية، قلت فى نفسى، لو أننى كنت أقيم فى هذه الشقة لمدة يوم واحد، لبحثت عن ذلك المؤذن (حتى لو كان يقيم فى المملكة العربية السعودية) وقتلته بيدى العاريتين هاتين، ولكنها كانت فقط فكرة راودتنى. (لا شىء على وجه البسيطة مثل الحج إلى الأراضى المقدسة يجعل الإنسان يمقت الدين).

انتهزت فرصة لحظات الأذان، لألقى نظرة على قاعة الاستقبال. كانت هناك صورتان معلقتان على الحائط يحيطهما الفخر والبهاء. فالمسلمون الملتزمون لا يعلقون لوحات تضاهى الطبيعة. (فالمسجد لا يحتوى على زجاج ملون يشتت انتباه المصلى، ولا زخرفة. ولكن فقط آيات قرآنية وأشكال مجردة). ولكن هذه الصور التى تخلد كل منها ذكرى أحد شهداء العائلة كانت لها فلسفتها الدينية. كانت ترمز إلى أشياء معينة. كانت صورة محمد فرحات، على اليمين، وكان يبلغ التاسعة عشرة من عمره عندما توفى، وبدا غير ناضج بما يكفى لحمل البندقيتين اللتين كان يلوح بهما جذلاً بكلتا قبضتيه. على اليسار، كانت صورة الابن الأكبر، نضال، الذى كان يبدو أكثر جدية، وكان يبلغ الثالثة والعشرين من العمر، ولكنه كان يبدو صغيرًا بالنسبة للأسلحة التى يحملها، (إننى لم أر مثل هذه البنادق من قبل - فلم تكن من نوعية إيه كى ٤٧ أو إم ١٦- ولكنها كانت أكثر

خطورة، إنها أشياء سوداء ضخمة). كان كل ملصق (بوستر) يحمل اسم الشهيد، وبحروف بنفس الحجم والإضاءة واللون الذهبى، شعار المنظمة التى ينتمى لها عز الدين القسام، وهى تمثل الجناح العسكرى لحركة حماس. والواقع أن المنظمة أنفقت الكثير (لقد طبعت كل البوسترات، بحيث تبدو مفعمة بالحياة وليست فقط صورة طفل ميت). كان مكتوبًا على البوستر "بكل فخر واعتزاز، نعلن استشهاد الشهيد القسامى محمد فتحى فرحات".

رأيت العديد من هذه الملصقات فى كل مكان فى غزة. وكانت هناك لوحات كبيرة معلقة باحتراف على أعمدة الإنارة بالشوارع الكبرى فى المدينة. كما كانت هناك نسخ مصغرة منها على أغلفة كشاكيل وكراسات المدارس، وكانت ذات ألوان مبهجة ومقسمة على مجموعات، مثل بطاقات البيسبول. وذلك لتشجيع الأطفال على تكريم أبطالهم والتعبير عن ولائهم لحماس أو حركة الجهاد الإسلامى أو فتح. فى منزل عائلة فرحات، كانت هذه الصور رمزًا للمهابة والإجلال، تعبر عن الشرف والأسى معًا. يقول فتحى فرحات "أحيانا أجلس طوال الليل بمفردى، أحدق فى صور أبنائى وأجهش بالبكاء".

هذا تقريبًا كل ما قاله خلال فترة ما بعد الظهيرة. هذا إلى جانب ما أخبرنا به (بمرارة) عن طرده من الخدمة فى قوات شرطة السلطة الفلسطينية بعد استشهاد ابنه محمد، أول شهداء العائلة. ربما لأن مهمة محمد الانتحارية، لسبب أو لآخر، قد وضعت عرفات فى مأزق. أو ربما لأن السلطة الفلسطينية قد خشيت من رد الفعل الإسرائيلى الوحشى، أو لأنها ببساطة كانت نائمة فى العسل ولا تعرف علاقة عائلة فرحات بحماس. وأيًا كان السبب، فقد تلقى الرجل العجوز خطاب الفصل. كان يومًا عاديًا من أيام الأسبوع، عندما زُرناه فى فترة ما بعد الظهر، كان يرتدى الجلباب ويسير حافى القدمين. كان من الواضح أن مهمة صناعة الشهداء لم تكن جيدة بالنسبة له كما هى لزوجته.

قالت مريم فرحات للمعزين الذين جاءوا إلى منزل العائلة القديم فى الشجاعية لتعزيتها بعد جنازة محمد "إننى لا أريد تعازى، ولكننى أريد التهانى. إنه انتصار".

وعندما طلبت منها أن تصف لى مهمة محمد، أخبرتنى أنها كانت تعلم بالمهمة قبل شهر من تنفيذها، كانت تحنو عليه مثل الطفل الوليد وكانت تشد من أزره، حتى حانت لحظة الوداع الأخير. وفى ليلة تنفيذ المهمة، وقفت فى منزلها القديم مترقبة بخوف شديد وهى تنصت إلى التليفزيون، حتى أخبرتها الأنباء أخيرًا أنه قد نجح، أى أنه مات. فما كانت تخشاه هو أن يجرح أو يؤسر، ويحرم من بطاقة دخول الجنة.

سألتها مرة أخرى: ماذا كانت مهمته؟ قالت "كان محمد بمفرده، وقد تسلل إلى مستوطنة "أتسمونة" وقتل عددًا من الجنود".

لم يكن هذا ما حدث. توجه محمد إلى تلك المستوطنة الواقعة فى جنوبى غزة، فى ليلة الخميس من أوائل مارس ٢٠٠٢. وقام بقطع السلك الشائك وتسلل من تحته مسلحًا بمدفع رشاش وبعض القنابل اليدوية. ولكنه لم يهاجم جنود الحراسة هناك. وتوجه إلى المدرسة الموجودة داخل المستوطنة، ولم يقتل أى جندى على الإطلاق. كان بالمدرسة مائة وأربعون طالبًا تخرجوا فى المدرسة الثانوية (كان معظمهم فى مثل سنِّه، فى التاسعة عشرة من العمر) حيث فضلوا تأجيل انضمامهم إلى الجيش، حتى يكملوا دراستهم لليهودية ومهارات القيادة. كانت هناك منافسة شديدة للالتحاق بتلك المدرسة، وكان هؤلاء الطلاب لديهم الكثير من الملكات. كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة والنصف ليلاً، عندما دخل إلى أحد عنابر النوم وألقى داخله إحدى القنابل اليدوية. اشتعلت النيران فى المبنى، واحترق طالب يدعى أريك كروجلياك حتى الموت، وهو أحد طلاب المدرسة الدينية (اليشيفا) واعتاد التطوع مع فرق الإسعاف. بعد ذلك، بدأ فى إطلاق النار بشكل عشوائى داخل العنبر المشتعل. تلقى طالب يدعى إيران بيكارد، وهو ابن طبيبين فرنسيين هاجرا إلى إسرائيل، رصاصة فى عنقه ومات بالمستشفى. خر طالب آخر لمهاجرين فرنسيين يسمى أرييل زانا صريعًا عندما أفرغ محمد فى جسده خزنه كاملة، نحو تسع عشرة رصاصة. انتقل محمد بعد ذلك إلى عنبر آخر، كان بداخله ستة طلاب لكنهم أغلقوا الباب على أنفسهم، فلم يستطع الدخول إليهم. كان هناك طالب يدعى آشر ماركوس، وهو من منطقة

بجوار القدس تسمى كيريات موشيه. احتجز فى الخارج فأطلق عليه النار فأرداه.

كان هناك أربعون طالبا مختبئًا تحت المناضد فى قاعة المحاضرات، حيث كانوا يستمعون إلى محاضرة عن قصة الخروج من مصر والخاصة بعيد الفصح، وهى قصة عمرها ثلاثة آلاف عام تحكى كيف قام موسى بقيادة اليهود للخروج من مصر. فقام محمد بإطلاق النار على نوافذ قاعة المحاضرات، ثم ألقى داخلها بقنبلتين يدويتين. تلقى تال كورتزفايل، وهو صبى من منطقة "بنى براك"، الذى كان يتمنى أن يصبح طيارًا، معظم قوة القنبلة. وعلى الرغم من أن الطلاب الآخرين هرعوا لمساعدته، فقد لفظ أنفاسه الأخيرة فى غضون دقيقة واحدة. بعد ذلك، وصل إلى المدرسة أحد الجنود، كان قادما للتو من منزله فى المستوطنة، وأطلق عليه النار فأرداه قتيلاً. قتل ستة أولاد فى سن المراهقة، وأصيب ما يزيد على عشرين. أحدهم أصيب بالشلل، وفقد أحدهم قدمه، وكم من الملايين فقدوا الأمل، حتى ذلك الحادث البشع لم يرق إلى رد فعل أريئيل شارون وحكومته، الذين يمتلكون آلة قتل أكثر بطشًا من محمد فرحات بدرجة تفوق الخيال. فقد نشرت جريدة "هاآرتس" بعد يومين من الهجوم الخبر التالى:

" قتل حوالى ٤٢ فلسطينيا فى عطلة نهاية الأسبوع، فى الأراضى المحتلة، نتيجة للعمليات التى قامت بها قوات جيش الدفاع الإسرائيلى بعد الهجوم الإرهابى الذى تم يوم الخميس الماضى ضد مستوطنة "أتسمونا" فى حوش قطيف. وقد قامت قوات مشاة جيفاتى بتنفيذ العمليات فى قطاع غزة، وقامت قوات المظلات بالسيطرة على العديد من المناطق فى بيت لحم ومحاصرة معسكرات اللاجئين.

وفى طولكرم قام لواء جولانى بالسيطرة على معسكر اللاجئين. ونتيجة لتلك العملية، قتل أكثر من ١٧ فلسطينيا وأحد جنود جيش الدفاع الإسرائيلى وقام حوالى ١٣٠٠ لاجئ فلسطينى بتسليم أنفسهم إلى جيش الدفاع. وقد بقى المئات منهم رهن الاعتقال، حسبما ذكرت مصادر الجيش.

وقام الطيران الإسرائيلى بإطلاق خمسة صواريخ، على الأقل، على أهداف بالقرب من المنطقة التى تضم مقر عرفات فى مدينة غزة."

إننى لا أعرف كيف أخبر أم محمد بذلك، لكننى لا أستطيع أن أرى أين يكمن الانتصار، أو كيف دافع ابنها عن أهله. ولكننى جبنت، وبدلا من ذلك سألتها كيف استشهد شهيدها الثانى نضال؟

وفى لهفة، انتقلت إلى الحديث عن ابنها البكرى. قالت إنها كانت مرتبطة به، لدرجة أنها إذ لم تره يومين كانت تشعر أنها سوف تجن. وأضافت "ولكننى لم أستطع أن أمنعه من الدفاع عن وطنه، بل شجعته على ذلك".

سألتها مرة أخرى، ماذا حدث له؟ ماذا كانت مهمته؟ أجابتنى قائلة "إنه لم يكن من ذلك النوع المحارب، بل كان رأينا محبا للتعلم ويميل إلى النواحى التقنية. أخبرتنى أنه كان متزوجا ولديه أربع فتيات وفتى. ثم نظرت إلى صورته، وقالت كان هادئا وقورًا ومرحًا وأمينًا. ثم ابتسمت ـ ربما كانت تلك أول ابتسامة تصدر عنها منذ لقائنا ـ والتفتت إلى الصور مرة أخرى حتى أتبعها لأرى ما تراه، وقالت: "إن شهداءنا ليسوا مجرمين. إنهم ليسوا كما يبدون مع هذه الأسلحة".

حاولت أن أتحدث معها بهدوء كما تتحدث قائلا: هل مات نضال وهو يحمل السلاح؟

روت لى القصة دفعة واحدة على نحو استغرق دقيقة أو اثنتين. لم يستطع مترجمى صفوت أن يطلب منها التوقف حتى يقوم بالترجمة. لذلك رفع يده طالبًا منى الصمت، ثم قص علىّ القصة دفعة واحدة. قال لى إن نضال كان رئيسا للطاقم الفنى لحركة حماس، يمكننا أن نطلق عليه طاقم القنابل. وصفت أمه ذلك قائلة "كانوا يفكرون فى وسائل جديدة للنضال". كانوا يطلقون الصواريخ المصنوعة فى المنزل (التى كانوا يطلقون عليها صواريخ القسام تبعًا لاسم مجموعتهم) على الجنود والمستوطنين فى غزة. ولكن قام الإسرائيليون بضم وتأمين المزيد من الأراضى المحيطة بالمستوطنات والمعسكرات واعتبروها "مناطق أمنية" وكانت أبعد من مدى إطلاق الصواريخ. لذلك كان نضال يحلم بطريقة

جديدة لكى تصل الصواريخ إلى أهدافها. كانوا يسعون للحصول على طائرة لاسلكية، تعمل بالتحكم عن بعد. تجتاز المنطقة الأمنية وتطلق الصواريخ على اليهود. المشكلة هى أنه لا توجد فى غزة متاجر تبيع ذلك النوع من الطائرات. ولذلك كان يجب أن تأتى من إسرائيل.

كان نضال مجتهدًا وصبورا. وقد فكر فى أن إرسال طلب من غزة لشراء هذه الطائرة قد يثير الشكوك. وعلى ذلك، لم يطلب الطائرة مباشرة. بعث أولاً طلبًا إلى متجر للألعاب فى تل أبيب لشراء أجنحة الطائرة كقطع غيار بديلة. وبعد ذلك انتظر عدة شهور قبل أن يقوم شخص آخر من مجموعته بإرسال طلب آخر، أرسل طلبًا لشراء جسم الطائرة والمحرك أيضًا باعتبارهما قطع غيار. وعندما وصل جسم الطائرة أخيرًا، كان يوما مشهودًا. واجتمع ستة أعضاء من المجموعة فى إحدى الشقق، لوضع أجزاء الطائرة معًا. وكان يجب عليهم تجربة جهاز التحكم عن بعد الذى قاموا بتطويره. كما كان يجب عليهم اختبار مدى الوصول. وأخيرًا فضوا أغلفة الأجنحة وثبتوها فى الجسم، فانفجرت، وماتوا جميعًا.

كنت منكفئًا فوق أوراقى وأنا أقوم بتدوين القصة. ثم تظاهرت بكتابة المزيد، فلم أدر كيف أستطيع النظر إليها. ولم أعرف ماذا أقول لها؟ كان ذلك هو الاستشهاد المجيد لابنها الأكبر. إننا نعلن بكل فخر وإعزاز، أن الشين بيت قد اغتاله بطائرة لعبة.

فكرت فيما بعد بأننى كان يجب علىَّ أن أخبرها عن حقيقة شعورى تجاه ما حدث. ولكن مشاعرى لم تكن هى جوهر الموضوع. فقد كنت أفكر فى الآخرين الذين يشاطرونها الفكر نفسه. إن معظم الناس يحرثون فى البحر. لقد فكرت فى أن أقول لها أنه لا جدوى من إخبارى شيئًا عن شخصيته اللطيفة. فالأموات لم تعد لهم شخصية على الإطلاق. ليس لديهم أى شىء، لا "شعور بالوطنية". لكننى لم أعرف كيف أقول لها أيا من ذلك. لم أخبرها . لم أكن أستطيع النظر فى عينيها وإخبارها . إننى فى النهاية، لا أستطيع أن أرى أى فخر واعتزاز فى ذلك، فى هؤلاء الأطفال الموتى أو فى كومة الجثث التى اعتادوا أن يطلقوا عليها أطفال العدو.

ما جعلنى أشعر بانعدام الأمل، هو أنه لن يكون هناك وجود لدولة فلسطين، مادام يوجد أناس يعتقدون أن الله سيكافئهم إذا قَتلوا أو قُتلوا، ضعف الطالب والمطلوب. فلا يمكنك أن تقيم دولة على جثث الموتى أو على جثث الأعداء، ولا على الشهادة ولا على التضحية، ولا على أى جانب آخر لهذه العملة (فنتازيا الذبح والقتل). كان يجب علىَّ إخبارها بنفس الشيء الذى أخبرت به شارون: "يبدو لى أنه لا يمكنك أن تبنى دولة - قوية أو جيدة - على من تكره أو عدد الأشخاص الذين تقتلهم".

لكن لم يكن لدى الفطنة أو الشجاعة لقول ذلك لها. لقد فعلت فقط ما يفعله أى مراسل صحفى آخر: سؤال أخير من فضلك، إذا كان نضال قد قتل فى الانفجار، كيف أمكنهم التقاط تلك الصورة له ومعه كل تلك الأسلحة؟

لم تسمع أم الشهداء ذلك السؤال من أحد من قبل. وقد أوضح لى ذلك مدى قلة درايتى بالفلسطينيين وأحلامهم. ربما فاتنى هذا الشرف. قام صفوت، المترجم الخاص بى، بإنقاذى. لقد هب واقفًا وبدأنا فى تحيتهم استعدادًا للرحيل. وبعد قليل، شرح لى الأمر: "هذه ليست أسلحة حقيقية. إنها مصنوعة من الخشب وكل استوديوهات التصوير لديها مثلها".

الفصل الثالث
ما المقصود بدولة يهودية؟

فى أوائل أبريل عام ١٩٤٩ تصدى الكنيست الإسرائيلى فى أول اجتماع له لموضوع جوهرى وعظيم، كان الأعضاء المائة والعشرون لهذا البرلمان قد حصلوا على مقاعدهم قبل شهرين فقط من ذلك الوقت. والآن، كان عليهم أن يصدقوا على اتفاقيات الهدنة التى أسدلت الستار على حرب ميلاد إسرائيل عام ١٩٤٨. ومن خلال تصويتهم، كانوا سوف يضعون حدودًا لدولتهم فى ظل القانون الدولى. كما تبين أيضًا، أنهم سوف يصوتون أيضًا لتعريف أمتهم.

كانت هناك ثلاث اتفاقيات للهدنة لدراستها. فلم تكن الحدود الشمالية تمثل مشكلة كبرى، فالجانب الأكبر منها، سيتبع الخط المتفاوض عليه بينها وبين البريطانيين والفرنسيين، حينما استولت الدولتان على هذه المنطقة من الأتراك، بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى. أما فى الجنوب، فقد كان هناك جدل بسيط حول مكان خط الحدود، وغالبا ما كان سيتبع الخط القديم الذى رسمته بريطانيا كقوة انتداب فى فلسطين. ولكن المشكلة الكبرى كانت تكمن فى الجدود الشرقية بين دولة إسرائيل والمملكة الأردنية.

وقد تعرج هذا الخط الأخضر (الذى سمى بذلك الاسم بسبب لونه الأخضر على خرائطهم) عبر فلسطين القديمة، من قرية إلى أخرى. وأحيانًا من مزرعة إلى أخرى عبر قلب القدس دون أى منطق. سوى تحديد آخر مكان توقف فيه الجنود عن إطلاق النار، حينما أصدرت الأمم المتحدة أخيرًا قرارها بوقف إطلاق النار. وعلى ذلك، كانت كل بوصة بين الخط الأخضر وحدود فلسطين تحت الانتداب بمثابة فشل للقوات المسلحة اليهودية فى هزيمة الجيوش العربية وفى

التسابق مع الزمن. كان كل عضو من أعضاء الكنيست شاهدًا بصورة أو بأخرى على تلك الحرب اليائسة، وكانت قوائم المصائب التى ألمت بالجميع طويلة. وعلى ذلك، فإن أى بوصة بين الخط الأخضر والحدود القديمة كانت تمثل أرضًا قاتل ومات من أجلها الأصدقاء، فكيف لهم أن يتخلوا عنها الآن؟

ولم يكن بن جوريون، وزير الدفاع فى ذلك الوقت، فى موقف يسمح له بالدفاع عن قضيته أمام الكنيست. فإذا كان يلعب دور موسى، فإن هارون سوف يكون موشى شاريت، وزير خارجيته، الذى يمكنه التحدث عن طلاء الجدران (بحوالى سبع لغات، أيضًا). ولكن عندما تطرق الحديث إلى موضوع الخط الأخضر، قام حزب حيروت المعارض اليمينى بتقديم طلب لسحب الثقة، وعلى ذلك كان مستقبل حكومته على المحك، وكان على بن جوريون نفسه الدفاع عنها. وقد أصر على أن الدولة الوليدة يجب أن تظهر للعالم رغبتها فى التوصل إلى تسوية. وأن الخط الموجود على خريطة الهدنة أفضل حيلة يمكن أن تلجأ إليها إسرائيل فى الوقت الحالى.

"لا! لا! لا! " تصايح أعضاء حزب حيروت، الذين ينتمون إلى جناح من الحركة الصهيونية يعتبر أن أرض إسرائيل مقدسة وغير قابلة للتجزئة. والآن، كان يحاول الأعضاء الأربعة عشر فى المجلس التشريعى الجديد الإطاحة ببن جوريون قائلين "أكاذيب! إن القوات المسلحة للشعب اليهودى يمكنها الاستيلاء على كل أرض إسرائيل!"

اتجه بن جوريون نحو المعترضين وأسكتهم جميعًا قائلاً "إنكم على حق. يمكن للهاجانا (الجيش الوطنى الجديد) أن تغزو كل أرض إسرائيل. ولكن تذكروا أن دير ياسين ليست سياستنا". إنها القرية التى اكتسحها المحاربون اليهود وذبحوا كل أهلها العرب. (الواقع أن القتلة كانوا ينتمون لمجموعة الكوماندوز المسماة "أرجون" التابعة لحيروت). واستطرد بن جوريون قائلاً "وعلى ذلك إذا قمنا باحتلال كل أرض إسرائيل سنتحول إلى أقلية فى الكنيست فى أول انتخابات يتم إجراؤها".

ولكن لم يقتنع أعضاء حيروت بذلك وتصايحوا " لا! لا! لا!". وصرخوا قائلين "سوف يأتى ملايين اليهود من كل أنحاء العالم حينئذ!"

قال بن جوريون مرة أخرى "نعم ولكن سوف يمنعهم الكنيست الجديد من الحضور". كانت تلك نهاية المعركة، وأسدل بن جوريون الستار على القضية برمتها. كان عليهم الآن الاختيار بين كل الأرض دولة أوسع، ودولة يهودية. وبأغلبية ساحقة، تم إنقاذ الحكومة، وأصبح الخط الأخضر قانونًا. وبصرف النظر عن الشكل الذى أظهرته الخرائط متعرجا أو يتعذر الدفاع عنه، فقد صوتوا على أن يمثل حدود "الدولة اليهودية".

الآن ماذا يقصدون بذلك؟

فى عصر بن جوريون، لم يبد الأمر كثير التعقيد: فالدولة اليهودية يجب أن تكون مكانًا يمكن لليهود المجىء إليه والعيش فيه، ليس كضيوف أو غرباء (يسمح بوجودهم حتى تحين المذبحة)، ولكن مالكين لأرضهم ومصيرهم. وبما أن سنواتهم المائة الماضية قد جعلت اليهود رافضين للنظم الاستبدادية (حيث تعرضوا لبعض التجارب السيئة من نوعية القيصر، الدوتشى، الفوهرر)، كان يجب على الدولة اليهودية أن تكون ديمقراطية، بمعنى بالطبع أن الغالبية يجب أن تكون من اليهود.

وقد بدت هذه الفكرة للعالم بسيطة ولطيفة بالقدر الكافى لتأييدها. وكان ذلك أيضًا هو السبب الذى جعل الأمم المتحدة تصوت لصالح وجود إسرائيل، وهو أيضا ما جعل العالم يغض الطرف. على الأقل فى السنوات الأولى. عن طرد اليهود للكثير من العرب، وإبقائهم خارج أراضيهم. (ولم يكن صمت العالم عن جهل بالمشكلة ولكنه لم يهتم بفعل أى شىء حيالها فيما عدا جعل الأمم المتحدة ترسل لهم حفنة من الخيام). وقد بدت فكرة دولة من اليهود ولليهود يحكمها اليهود، فكرة صائبة (بل بدا أيضًا أن هناك حاجة ماسة لها بعد الهولوكوست) لدرجة أن اليهود لم يستطيعوا الجدل بشأنها.

ليس لأنهم لا يتجادلون بالطبع، فهم يتجادلون بلا توقف ، ليس فقط بشأن حدودهم، ولكن أيضا بشأن ما إذا كانت الأراضى الموجودة داخل تلك الحدود

يمكن أن يملكها أفراد أم لا؟ وفى حالة كونها مزارع جماعية (كيبوتسيم). فهل يمكنهم استئجار عمال أم لا؟ وماذا بشأن العرب الذين لم يقوموا بالفرار، هل سيسمح لهم بامتلاك أى شىء؟ كانوا يتجادلون أيضا بشأن الدستور أو باعتبار ما سيكون (وهذا الموضوع لم يصلوا فيه إلى شىء، فحتى اليوم ليس لديهم دستور). كما كانوا يتجادلون باللغة اليديشية بشأن لغتهم الجديدة القديمة (وهل يمكنك العثور فى أحد مخطوطاتها العتيقة على كلمة "تنكيم"، التى تعنى بالعبرية دبابات؟) كما كانوا يتجادلون بالعبرية حول اليديشية (تلك اللغة التى كانت رمزا لعبوديتهم وهل ينبغى التخلص منها؟) كما كانوا يتجادلون بشأن العملة القومية (ماذا يجب أن تسمى؟) وكم سينفق منها على الهجرة أو الشوارع أو المدارس أو المياه الخاصة بالزراعة أو الباصات المكتظة بالركاب فى تل أبيب. كان هناك أيضا نزاع مضن حول اضمحلال الثقافة الذى انعكس فى فرض ضريبة جديدة على السجلات التقليدية. وبالطبع، كانوا يتجادلون بغضب شديد بشأن من سيفعل ماذا؟ بل أكثر من ذلك. من سيدير ماذا؟ (لماذا يجب على فلان أن يتحمل مسئولية هذا العمل؟) ولكنهم لم يصلوا أبدا إلى موقف موحد، ولم يتطرقوا أبداً إلى موضوع ما المقصود بالدولة اليهودية.

لم يحاول إثارة ذلك الموضوع سوى القليل من المفكرين، كان من بينهم مارتن بابر الفيلسوف الشهير. فقد كانت لديه قناعة راسخة بأن هدف اليهود على هذا الكوكب (وفى دولتهم) يجب أن يكون تحقيق العدل، وأن نجاحهم فى ذلك سوف يكون أولا وأخيرا مرهونًا بمعاملتهم لغير اليهود، بمعنى تحقيق العدل لعرب فلسطين! وقد أنشأ حزبًا سياسيًا لتعزيز تلك الفكرة. حظيت كتابات بابر بالاحترام وكان يتم تدريسها فى جميع أنحاء العالم، ولكن فى إسرائيل لا كرامة لنبى فى وطنه. فمن كان يمكنه التفكير فى تحقيق العدالة للعرب، فى الوقت الذى يحاولون فيه إلقاء اليهود فى البحر؟

فى ذلك الوقت لم يكن هناك أو لم يبد أن هناك أى تشوش بشأن من هم اليهود، أو ماذا يجب أن يكون هدفهم؟. كان ينظر إليهم على أنهم الضحايا المساكين لأهل أوروبا المثقفين، حيث كان العالم بأكمله يشاهدهم فى نشرات الأخبار ، يحيط بهم الهم والغم، كل أسبوع أو أسبوعين، بعدما فعل هتلر بهم

الأفاعيل. وبعد ذلك، ظهروا على شاشات التلفاز مرة أخرى، وهم يتدفقون من المراكب التى حملتهم إلى ميناء حيفا، يحملون أسلحتهم استعدادًا لصراعهم الجديد، صراع حتى الموت مع الجيوش العربية الغازية. لم يكن لدى الدولة الصهيونية الوليدة الكثير الذى يمكن أن تقدمه لمواطنيها، لا المال ولا الراحة، ولكن كان لديها ما لا يستطيع أن يشتريه المال. ألا وهو مهمة إنقاذ الشعب اليهودى.

ولكن هذه المهمة قد طرحت موضوعًا آخر للنقاش، ألا وهو موضوع الدين. ولم يقصد المؤسسون التصدى لهذا الموضوع، ولكنه ببساطة أقحم نفسه على الساحة. لأن اليهودية، قبل كل شىء، ليست فقط عرقًا- منظومة معينة من الجينات - أو كمًا من تلك المنظومات الجينية تمت إبادتها على يد أحد الطغاة أو زبانيته فى أفران الغاز. ولكن اليهودية تتصل أيضا بمدى الالتزام (أو عدم الالتزام) بعقيدة ما وقوانين معينة وبعض التقاليد التى تمثل قانونًا، وكذلك بعض الحيل التى تمثل التقاليد. وعلى ذلك، إذا أردت إنقاذ الشعب اليهودى، يجب أن تنقذ معه العقيدة على المركب نفسه. وفور أن تقرر أنك دولة يهودية، سيأتى إليك موضوع آخر وهو اليهودية، وهذه الديانة تلتصق بك كالقطران مهما حاولت التخلص منه فلن تفلح. والله يعلم كم حاول الصهاينة ذلك.

وكان كثير من مؤسسى الدولة ملحدين (أو يمكنك تسميتهم علمانيين مشاكسين) لا يرغبون فى تعكير صفو جنتهم الفاضلة الحديثة بأى من خزعبلات الحاخامات. ومن الصعب الآن تذكر زعم الشعب الأرثوذكسى المستوطنين المتدينين بأنهم ورثة وأبطال الحلم الصهيونى. ولكن اليهودية الأرثوذكسية والحاخامات والمدارس الدينية اليهودية كانت تمثل العدو الأول للصهيونية.

ومع مطلع القرن العشرين، عندما بدأ الرواد الأوائل فى المجىء إلى فلسطين، وجدوا بعض اليهود المقيمين هناك بالفعل وخاصة فى القدس ولم يكن هؤلاء سوى بعض المتشددين السابحين فى الأحلام، الذين يقيمون فى أماكن خربة تشبه أحوال القرون الوسطى بالقرب من أطلال المعبد القديم، حتى يمكنهم سماع أجراس الحمار الذى سيمتطيه المسيح فى طريقه إلى المدينة المقدسة. وكان هؤلاء الملتحون ذوو السترات السوداء المجعدة والقبعات العالية، فى نظر أنصار

الصهيونية. (على أفضل الأحوال) عائقًا. حيث يمثلون بالتحديد ما يفترض لليهودى الجديد أن يحل محله. وعلى أسوأ الأحوال. كان هؤلاء اليهود يمثلون مشكلة خطيرة، لأنهم لا يرغبون فى إقامة دولة يهودية. كان كل ما يرغبون فيه أن يقيموا ويصلوا بين الأحجار المقدسة فى وئام مع العرب والحكام الأتراك (أو بعد ذلك البريطانيين). وجودهم وتاريخهم الطويل فى تلك الأرض، كان مناقضًا للمهمة الصهيونية الملحة، الممثلة فى الهدف الجوهرى للحركة وهو أن الدولة اليهودية، التى يديرها اليهود، هى السبيل الوحيدة لنجاة الشعب اليهودى.

أما فى أوروبا، فقد كانت المواجهة بين الصهاينة والعقيدة الأرثوذكسية أكثر احتدامًا ففى الأحياء اليهودية، كان الحاخامات يشعلون حربا ضروسًا، من منزل إلى آخر (أو من ابن إلى ابن). من أجل وقف الهجرة إلى فلسطين. كانت معركة بين الرؤى المختلفة للمستقبل، وما يجب أن يفعله اليهود فى غضون ذلك. فمن وجهة النظر الأرثوذكسية، كان يفترض على اليهود أن يعيشوا تبعًا لشريعة موسى، ويدرسوا التوراة وبضعة آلاف ورقة لشرحها، وأن يبتهلوا إلى الرب لكى يرسل إليهم المسيح مخلصهم (الوحيد). وكانت فكرة الدولة اليهودية، التى لا تعتمد على الصلاة ولكن على العمل (بيديك)، ولا تقوم على تعاليم الرب ولكن على مبادئ التنوير التى وضعها روسو(أزال الله اسمه من على شفاه البشر للأبد)، وأن يقوم اليهود بالكفاح والقتال من أجل الحصول على أرض خاصة بهم حيث يضعون قوانينهم الخاصة فى نظر الحاخامات، هرطقة تستوجب اللعنة.

وبالطبع كانت العداوة متبادلة. وقد كتب ثيودور هيرتزل، مؤسس الصهيونية الحديثة، عن الدولة القادمة بأنها دولة يقبع فيها الحاخامات فى معابدهم (كما يقبع الجنود فى ثكناتهم). وكان الصهاينة المتقدون حماسًا يطالبون طوال العشرينيات والثلاثينيات "بدولة عبرية" وليس بدولة يهودية (حتى لا يعكر الدين صفو حركتهم). وبالنسبة لناموس الحاخامات الذين يدعون إلى تقديس السبت والفصل بين الجنسين وتناول الطعام الحلال (الكوشير) حسب الشريعة اليهودية فقد اكتمل الآثم. وفى كتابه المهم"الإسرائيليون: المؤسسون والأبناء" الذى صدر

عام ١٩٧١ كتب آموس إيلون عن مجموعة من الصهاينة الرواد الذين احتفلوا بيوم كيبور أو عيد الغفران (يوم التكفير والصيام. وأقدس الأعياد لدى اليهود) برحلة إلى الحائط الغربى (حائط المبكى)، لتناول شطائر لحم الخنزير.

وفى وقت تأسيس الأمة، بدا وكأن هذه المعارك قد أسدل عليها الستار، وأن العقيدة الأرثوذكسية قد ضاعت إلى الأبد. وكان السبب فى ذلك مرة أخرى هو هتلر الذى لم يبال بما إذا كان اليهود يعملون يوم السبت أو يدرسون بجوار الحائط الشرقى للمعبد. وفى كل الأحوال، كانوا يساقون إلى معسكرات الإعدام (حيث لقى معظم الحاخامات حتفهم أيضا). وبعد ثلاث سنوات من هلاك هتلر، عندما كتب المؤسسون إعلان الاستقلال، لم يكن هناك أى ذكر لتعاليم موسى، ولكنهم زعموا أن إسرائيل ستعرف كيف تحمى نفسها. كان هناك تعهد بحماية الأماكن المقدسة والمساواة بين المواطنين كافة، "بصرف النظر عن ديانتهم". كما كان هناك تعهد بالإخلاص لميثاق الأمم المتحدة. أما الإشارة الوحيدة (فى الفقرة الأخيرة) إلى "الإيمان بالله القادر" فقد أعيدت صياغتها بواسطة مجلس الدولة المؤقت فأصبحت على نحو غامض "الإيمان بإسرائيل".

و كان بن جوريون، رئيس ذلك المجلس وأول الموقعين على إعلان الاستقلال، نادرًا ما يلجأ للحاخامات وتعاليمهم. على سبيل المثال، تزوج زواجًا مدنيا فى نيويورك. وبعد ذلك هجر زوجته (الحامل) من أجل حبه الحقيقى فلسطين والأمة التى أراد بناءها هناك. وعندما دعاه أحد الأصدقاء إلى الصلاة فى المعبد ليشكر الله عشية الاجتماع الأول للكنيست، علق على ذلك قائلا إن تلك كانت المرة الأولى التى يدخل فيها معبدًا على أرض إسرائيل. (فى ذلك الوقت، كان قد أقام فى تلك الأرض لمدة تزيد على أربعين عامًا). وعلى ذلك، كان عقد بن جوريون صفقة مع متشددى الأرثوذكس بمثابة صدمة لرفاق حركته والمواطنين الجدد فى الدولة الوليدة. والواقع أنه فى أثناء توقيع إعلان الاستقلال كان بن جوريون مستغرقًا فى مساومة الحاخامات. ومن وجهة نظر الصهاينة العلمانيين فإنه بالفعل كان قد تخلى عن أفكاره القديمة.

وقد حدث قبل الاستقلال بعام، أن كانت لجنة من الأمم المتحدة فى طريقها إلى فلسطين لبحث إمكانية التقسيم وإنشاء دولة لليهود. فخشى الصهاينة أن

يقوم المتشددون بإخبار مبعوث الأمم المتحدة (الذى ينتمى للأغيار. أى غير اليهود) بأنه لا داعى لدولة يهودية، لأن هذا المبدأ يتنافى مع العقيدة. ويعتبر عصيانًا لله. وعلى ذلك، كتب بن جوريون خطابا إلى حزب "أجودات إسرائيل"، الجناح السياسى للمتشددين، تعهد فيه أن تقوم الدولة الجديدة باعتبار يوم السبت يوم عطلة رسمية، وأن تقدم الحكومة فقط الطعام الحلال (الكوشير)، وأن ترفع وزارة التعليم الجديدة يدها عن مدارس الحزب. كما أحال أيضا كل أمور الأحوال الشخصية - الميلاد والتبنى والموت والدفن والزواج والطلاق - إلى الحاخامات والمحاكم الدينية.

وكما رغب بن جوريون، فقد سارت الصفقة على ما يرام. والتقى حاخامات أجودات لجنة الأمم المتحدة، وعلى الرغم من أنهم لم يطالبوا بدولة يهودية، فإنهم لم يعارضوا قيامها أيضا. كان بن جوريون يرغب فى احتواء المتشددين، لأنه كان يخشى أن يتسبب الشقاق بين الدولة اليهودية والعقيدة اليهودية فى تمزيق المجتمع الذى كان يحلم به. ولأن اليهود الأرثوذكس كانوا منتشرين فى جميع أنحاء العالم، فقد أراد بن جوريون أن يشعرهم بأن تلك هى دولتهم أيضا. (كان البعض منهم أثرياء ويمكنهم إرسال الأموال). ومن الناحية العملية (حيث كان سياسيًا عمليًا)، أراد استغلال أصوات المتشددين فى الكنيست الجديد. ولكى يدمج حركة أجودات فى ائتلافه، لم يكتف فقط بضمان استقلال مدارسهم، ولكنه منحهم أيضا معونات مالية حكومية ويا لها من غنيمة. وحينما طالب المتشددون بوحدات خاصة بهم فى الجيش (حيث يجب أن يأكل أبناؤهم الطعام الحلال المباح حسب الشريعة اليهودية)، منحهم بن جوريون ما هو أفضل من ذلك، أن يتناول الجيش كله الطعام اليهودى الحلال (الكوشير). كما قام بن جوريون أيضًا بغض الطرف عن (ولا نقول بلى ذراع) مبدأين أساسيين وهما المساواة فى الحقوق والواجبات بين الرجال والنساء، ووجوب التحاق الجميع بالجيش، فالآن، تم إعفاء أبناء أجودات الملتحقين بالمدارس الدينية (اليشيفا) باعتبارهم معلمى الكلمة المقدسة، وكذلك كل بنات المتشددين، من أداء الخدمة العسكرية.

باختصار، أعطاهم كل ما يمكنه إعطاؤه لهم. وكانت النتيجة أن أنفق الكنيست الوليد، فى مناقشة موضوع الأحكام الشرعية ليوم السبت، وقتًا أكثر من أى موضوع آخر. (والآن بعد أن أعلنت الدولة أن يوم السبت يوم راحة، ما الذى كان يجب عليهم فعله لفرض ذلك؟). بعد ذلك، أراد المتشددون تحريم القيادة يوم السبت رضوخًا للشريعة اليهودية وكذلك العمل والطهو بالنار وأى نوع من أنواع التسكع أيضا). وبعد ذلك، أرادوا أن يتوقف الجيش والخطوط الجوية والإذاعة. وبعد ذلك، ظهرت مشكلة التخريب المتعمد للممتلكات. حيث اختفت أغطية بالوعات الصرف الصحى وما أشبه، التى كان مكتوبًا عليها بالعبرية، حيث لا ينبغى كتابة اللغة على أشياء غير طاهرة! وعلى ذلك كانت الغالبية العظمى من المتشددين تتحدث اليديشية، ويحتفظون باللغة العبرية للأمور الإلهية. وفى عام ١٩٤٩حدثت أعمال شغب بالقدس حينما فتحت دور العرض السينمائى أبوابها قبل ساعة من غروب شمس السبت. وقد حاول أحد المتشددين خنق مشاهد فى إحدى دور العرض السينمائى فانكسرت ذراع الأخير وهو يدافع عن نفسه.

اتضح الأمر، هذا ما يحدث عندما تدخل الحاخامات إلى خيمتك، حيث سرعان ما يصيحون: ماذا يفعل أعداء الرب هؤلاء داخل خيمتنا؟

وقد ظللت أعوامًا أنزل فى الفندق نفسه كلما دعانى عملى الصحفى للذهاب إلى إسرائيل. وكان ينتمى إلى سلسلة فنادق أمريكية، كإحدى البنايات الأسمنتية الشاهقة الارتفاع المصطفة على طول الشاطئ فى تل أبيب، مثل صف أسنان سيئ الترتيب. وبمرور الوقت، أصبح لى أصدقاء فى ذلك الفندق، وبدأوا يقصون علىَّ كيف يعيشون كيهود فى دولة يهودية.

كانت هناك عاملة تليفون تدعى أفيفا، وكانت تبدو فى الستينيات من عمرها. وذات شعر أحمر كثيف. وقد أطلعتنى على مسرحية زواجها الحزين فصلاً وراء الآخر. فى ذلك الوقت كان زواجها قد انتهى. ولا أذكر الآن تمامًا ما إذا كان زوجها قد توفى أو اختفى، المهم أنه ابتعد عن الصورة سنوات. وما أتذكره هو الرحلة المأساوية الطويلة التى قطعتها أفيفا لتثبت أنها أصبحت غير متزوجة. فقد كان عليها أن تستدعى شقيق زوجها (السابق) من البرازيل إلى تل أبيب بالطائرة على حسابها. (كلفتها تذكرة الطائرة شهرًا من أجرها، هذا بخلاف

الأموال التى منحتها له تعويضا عن إزعاجه وإهدار وقته). والحقيقة أن ما أذكره جيدًا، هو كيف شرحت آفيفا لى الأمر. قالت إنها كان يجب عليها أن تستدعى شقيق زوجها بالطائرة لكى " يقذف الحذاء". وفى ذلك الوقت لم يكن لدى أدنى فكرة عما تعنيه بتلك الكلمات فقد اعتبرت هذا التعبير تعبيرًا مجازيا ولكن اكتشفت بعد ذلك أن الأمر لا علاقة له بقذف حدوة الحصان، وإنما كان يتصل بحذائه هو. فقد أصبحت أفيفا باختفاء زوجها ملكًا لشقيقه، ولم يكن الحاخامات ليخلصوها من زواجها دون أن يقذفها شقيق زوجها بحذائه، ويعلن بطريقة ترضى الحاخامات عن عدم رغبته فى اتخاذها زوجة، وعن عدم نيته فى أن يحل محل أخيه فى فراشها. (ولم يكن ما تكبدته أفيفا سوى جزء ضئيل من ثمن الصفقة الصغيرة التى أبرمها بن جوريون).

كانت هناك عاملة تليفون أخرى فتاة صغيرة ولطيفة وغير متزوجة ، اعتادت أن تصطحبنى فى الرابعة صباحا إلى جنوب تل أبيب فى أحد الأحياء الشعبية، حيث نتناول الإفطار المكون من شرائح لحم الخنزير الرائعة. وبالطبع لم يكن أحد يستخدم كلمة لحم خنزير، فقد كان الشخص يطلب "شرائح لحم أبيض". ولم أستطع أن أعرف فى ذلك الوقت لماذا كان لذيذا لهذه الدرجة. هل كان السبب هو الفتاة والوقت الذى قضيناه معًا فى ذلك الحى أم أنه الإحساس بالخطيئة لعدم تناولنا الطعام الحلال وفقًا للشريعة اليهودية أم أنه كان فى الواقع فقط وجبة ممتازة؟ وحينما سألت مدير المطعم عن السبب جعلنى أقسم أولا على أن أحفظ السر ثم أخبرنى عن كيبوتس، مزرعة جماعية فى الجنوب يربون فيها الخنازير، وقال بكل فخر "إن اليهود هم أفضل من يربون الخنازير فى العالم".

وكان علىَّ الاتصال بذلك الكيبوتس لاستطلاع الأمر، كيف يمكنهم النجاة بفعلتهم؟ فعلى حد علمى، كان هناك قانون (صفقة أخرى مع المتشددين) يحظر على اليهود تربية الخنازير فى أى مكان على أرض إسرائيل. وقد اتضح لى أن هذا الكيبوتس لا يربيها على أرض إسرائيل. كانت الخنازير تعيش على منصات فوق أرض إسرائيل. سألت أحد المسئولين هناك: كيف يمكن لكيبوتس يهودى لطيف أن يتورط فى نشاط تجارى مثل هذا؟ فرد علىَّ بحزم "إنه ليس نشاطًا تجاريًا بتاتًا، ما كان يقوم به الكيبوتس هو بحث علمى. دراسة عن كيفية نمو

الخنازير. (كانت مهمة هذا الكيبوتس هى تحسين الإنتاج الزراعى و الحيوانى). وعلى ذلك، كان يتم إحضار الخنازير الصغيرة إلى الكيبوتس ودراستها حتى يكتمل نموها. وبالطبع، بعد اكتنازها باللحم، تصبح غير مفيدة للدراسة، فيتم بيعها بأسعار السوق من أجل تمويل المزيد من الدراسات. ومن أجل العلم كان يتم جلب المزيد من الخنازير الصغيرة. وهكذا تواصلت البحوث.

بعد ذلك اندمجت أنا فى البحث أيضا، ليس فى تربية الخنازير ، ولكننى أدركت أن مسألة الاتجار بالتعاليم اليهودية وكيف يعيش اليهود حياتهم العادية عبر (أو رغم أنف) تلك التعاليم هى حكاية رائعة عن إسرائيل الحديثة. فى تلك الأيام، لم يكن للجرائد العبرية موضوع كل يوم أحد سوى الصدامات العنيفة الأخيرة التى تحدث يوم السبت بين المتشددين (الأرثوذكس) وسائقى السيارات الذين يحاولون القيادة عبر القدس. (فالأرثوذكس هم أول من حاول تثبيط عزيمة الدولة اليهودية بإلقاء الحجارة).

كانت هناك أيضًا منازعات مستمرة، وقبيحة فى أغلب الأحيان بشأن من هو اليهودى؟" (الذى يكون جديرًا بمزايا الهجرة والمواطنة والمعاملة باحترام فى إسرائيل). على سبيل المثال، فلنتخيل أن هناك شابًا كان ابنًا لامرأة يهودية، ولكن الأم ولدت مسيحية أمريكية. ولكنها اعتنقت اليهودية لتتمكن من الزواج من رجل يهودى. وشهد على هذا التحول حاخام غير أرثوذكسى أو فقط حاخام محافظ أو (حاشا لله) حاخام ينتمى لليهودية الإصلاحية. ولكن نشأ الطفل يهوديًا، وشعر بأنه كذلك. والواقع أنه من فرط إحساسه بيهوديته، انتقل للعيش فى إسرائيل وذلك من خلال حق العودة (لأنه قبل كل شىء، كان أبوه يهوديًا، وكذلك أم أبيه، وهكذا وهكذا دواليك. على أية حال، كان فى السن المناسبة للتجنيد، فأخذوه دون مشاكل). وقبل كل شىء فإن أباه وأمه يهوديان. المهم أنه كان فى السن المناسبة للالتحاق بالجيش فالتحق به مباشرة ودون أى مشاكل. بعد ذلك، خرج الفتى من الجيش حيث التقى فتاة لطيفة، وقررا الزواج. ولكن مافيا الحاخامات فى إسرائيل لم ترغب فى أن تمنحه مباركتها كيهودى، لأن أمه فى نظرهم ليست يهودية، لأن تحولها لم يشهده حشد منهم. وعلى ذلك، فكيف يتزوج فتاة يهودية لطيفة فى إسرائيل، فى حين أنه لا توجد طريقة أخرى لإتمام تلك الزيجة. إلا

عن طريق ذلك الحشد، وهم الآن يطلبون رشوة للاعتراف بيهوديته؟ فأى ابتزاز بعد هذا يمكن أن يخضع له ذلك الفتى؟ هل يأخذ القضية برمتها إلى المحكمة العليا ؟ ولكن الحاخامات لا يعترفون بسلطة المحكمة العليا! لأن الساسة فى إسرائيل، فى ذلك الوقت، كانوا قد أبرموا الكثير من الصفقات مع الحاخامات مما مكنهم من احتكار تجارة "من هو اليهودى؟"

وعلى ذلك لم يكن ذلك الفتى المسكين فقط هو من يتم التحكم فيه، ولكن الدولة بأسرها كذلك، حيث إن اتباع الحاخامات وتعاليمهم يكلف الملايين. ولنضرب مثالاً أكثر بساطة، حيث نفترض أن بعض العاملين فى شق طريق جديد قد جرفوا بعض الأطلال. (وهذا يحدث غالبا فى أى مكان يتم الحفر فيه). وفى هذه الأطلال، تم العثور بالصدفة على رفات بعض المدفونين، فلنقل مثلاً عظاماً بشرية. فى هذه الحالة فإن الطريق بأكمله يجب أن يقوم على دعامات. فحسب الشريعة اليهودية، يجب أن يغطى موقع المقابر المدفون بالتراب لمنع النجاسات من الهرب، لأنه حدث فى أيام الهيكل (منذ نحو ألفين أو ثلاثة آلاف سنة فقط) أن كان هناك كهنة ـ الذين يدعون كوهين يعتقد أنهم منحدرون من هؤلاء الكهنة ـ والكهنة لا يجب أن يدنسوا بواسطة نجاسات الموتى. وعلى الرغم من أنه لا يوجد كهنة، فإن دافعى الضرائب عليهم أن يدفعوا المزيد من المال لكى يشيدوا الطريق على أعمدة (على هيئة جسر لمسافة نصف ميل) حتى يمكن للأفراد الذين يسمون كوهين القيادة عليه.

ومن خلال كل الأمثلة السابقة يمكننا استخلاص العظة. فيبدو دائماً أن الوصول إلى اتفاق مع الحاخامات أسهل من مجابهتهم. وبالنسبة للعلمانيين، فإن هذه القضايا حتى مع خسارة كل معركة من هذه المعارك فقط تزيد الأمر سوءاً، فهناك أماكن لا يمكنهم القيادة فيها أيام السبت أو شراء الوقود، أو أنهم مضطرون إلى دفع المزيد من الضرائب لأن المتشددين (الحريديم) يمتطون حمار الدولة طوال حياتهم أو يقضى العامة فترات أطول فى الجيش، لأن هناك الكثير من الحريديم لا يرغبون فى الالتحاق بالجيش مطلقا. فعندما أعفى بن جوريون طلاب المدارس الدينية الخاصة بالأرثوذكس من الخدمة العسكرية، لم يكن هناك سوى ثلاثة أو أربعة آلاف فتى من هؤلاء. أما الآن، فقد بلغ عددهم ثلاثين أو أربعين ألفا، ومازالوا لا يقضون فى الخدمة يوماً واحداً. وهذا يضايق الكثير من المواطنين، بل يجعلهم يتميزون من الغيظ. وقد زاد عدد مقاعد حزب شينوى

فى الكنيست الأخير على الضعف، بعد أن تعهد بوضع حد لذلك "التطفل" الأرثوذكسى.

لم يبال المتشددون باتساع رقعة المعارضة ضدهم أو ضد تعاليمهم، فقد كان دائمًا دافعهم أكبر. وسبب ذلك أنهم يؤمنون بأن الله إلى جانبهم، تبعًا لما تقوله لهم التوراة. فهم منقذو الأرواح مهما كان عدم رغبة أصحاب هذه الأرواح، وعلى ذلك فهم لديهم الحق الإلهى فى حماية الأمريكيين أو النازيين المناوئين للتدخين، فالجميع يجب أن يعيش فى ظل مخافتهم. (كلمة المتشددين أو "الحريديم" تعنى من يخافون الله أو المتقين). على أية حال، من يجرؤ على مجادلة هؤلاء الحاخامات؟ إنهم يتكسبون عيشهم من الجدال. وما الدراسة اليهودية إلا صراع متهافت مدى الحياة بلا توقف. إن الأمر أكثر من فقط لقمة العيش، إنها حياتهم. فإذا قررت أن تجادلهم، عليك أن تكون خلى البال. فالأمر يبدو وكأنك فى رهان على سباق خيل جائزته الأولى تناول الغداء مع ألان ديرشويتز (المتعصب لإسرائيل تعصبًا أعمى). (والجائزة الثانية وجبتا غداء معه أيضًا). والواقع أن المتشددين لا يجادلون من أجل العدل أو المساواة أو الديمقراطية. فهم يعتقدون أنهم لو خسروا جدلاً بشأن يوم السبت على سبيل المثال، سيكون أول ما يتبادر إلى ذهنهم هو أن الله سوف يخسف بهم الأرض. وفى أول ظهور لكتابه المهم (الإسرائيليون الأوائل) عام ١٩٤٩نقل المؤرخ والصحفى توم سيجيف عن رئيس حزب أجودات إسرائيل، الحاخام أى إم ليفين قوله فى إحدى معارك الكنيست المبكرة: "ألا تفهمون أن السبت بالنسبة لنا يرمز إلى وجود الشعب اليهودى، وأن انتهاكه يعنى نهاية الدولة وتدمير الأمة؟ إنه بالنسبة لنا مسألة حياة أو موت".

وتظهر هنا موعظة أخرى . يمكن أن نطلق عليها عادة ذهنية ، وهذه العادة الذهنية قد تكون يهودية مثلها مثل التوراة نفسها. إنها قدرتهم على الحياة وسط تلك الأزمات والانتقادات التى تزداد حدتها مع كل تنازل أو تسوية أو أى ممارسة للقوة بواسطة الخصم. ومع كل هذا لم يفعل أى شخص أى شىء لتغيير ذلك الأمر (بشكل جوهرى) الذى وصل إلى درجة من الفوضى والتعقيد جعلت أى شخص من الخارج ينظر إلى الأمر لا يستطيع منع نفسه من الصراخ قائلاً "لماذا لا تفعلون شيئًا حيال ذلك؟" إنها عادة الحياة مع المستحيلات. قد تعتبر ذلك سلوكًا تكيفيًا، نتاج تجارب ألفى عام أو نحوها، حيث كانت الأمور تتجه دائما نحو

الأسوأ. تستطيع حتى القول،إنه بدون تلك العادة الذهنية. لما كان لليهود وجود اليوم. (أو ربما كان هناك الكثير منهم: دون هذه الرغبة فى الحياة من سيئ إلى أسوأ، ولما كان هناك ستة ملايين يهودى تركوا فى أوروبا لكى يذبحهم النازى).

هناك عبارة نسمعها فى إسرائيل من آن لآخر، تلخص تلك العادة الذهنية، وهى مثل يديشى قديم ترجم إلى العبرية يقول "إما أن يموت صاحب الأرض أو كلبه". وهذا يعنى أن شيئًا ما سيحدث ليغير الوضع الحالى. فلماذا نشغل أنفسنا به؟ فالأسهل أن نعيش اللحظة على الرغم من تلك الصعوبة أو ذاك المستحيل. وكل ما علينا هو الالتفاف على الأمر والعيش هنا أو هناك. وإليكم مثال صغير، فى زيارتى الأخيرة لتل أبيب، انتقلت للسكن فى عمارة مكونة من أربعة طوابق وثمانى شقق. إنه مبنى لا بأس به فى منطقة جيدة، ولكننى دهشت عندما رأيت مقلبًا للقمامة أمام شقة بالدور الأول، وازدادت دهشتى عندما اكتشفت أن الممر المؤدى للمدخل الرئيسى محطم وليس هناك قناة لصرف المياه، فإذا أمطرت السماء فان الداخل إلى المبنى سيخوض عبر بركة صغيرة. واكتشفت بعد ذلك أن هناك خلافًا بين مالك الشقة واتحاد الملاك. وظل الأمر على ذلك سنوات. ودفعنى اعتقادى الأمريكى بأن ذلك الأمر يمكن إصلاحه إلى تساؤل عما يجب فعله. فهز كتفيه بلا مبالاة وقال لى " إما أن يموت مالك الأرض أو كلبه. حتما سيحدث شىء ما ".

والمشكلة هى أن تلك العادة لا تنطبق فقط على الأمثلة الصغيرة، فإجابة موشى ديان التقليدية على كل الأسئلة المتعلقة بالأراضى المحتلة "إننى فى انتظار مكالمة هاتفية"، لم تكن سوى طريقة أخرى لقول الشىء نفسه. والحقيقة، أنك تجد مثل هذا الاتجاه تقريبًا فى كل القضايا الإسرائيلية الكبرى، كلما كان الحل يتطلب تنازع اليهود مع اليهود. فلو افترضنا على سبيل المثال، أن هناك بعض المستوطنين فى الضفة الغربية يطلقون أعيرة نارية على قرية عربية مجاورة وبالتالى يمكن أن تنشب معركة، سوف يأتى الجيش الإسرائيلى ولن يفعل شيئا سوى احتلال المزيد من الأراضى "مناطق أمنية". ويمكنك فهم فحوى ما يحدث من خلال ساعة من العمل المركز. وإذا كنت لا تمانع فى خوض معركة مع اليهود، يمكنك وقف ذلك أيضًا. ولكن لا أحد (فى الحكومات الحالية على أية حال)

يرغب فى الدخول فى نزاع مع المستوطنين. فالأسهل دائمًا إرسال الجيش مجددًا، أو مواصلة إرسال الأموال والماء والكهرباء والآلات والمدرسين وكل ما يحتاجونه. وبالطبع، فإنك توافق على أن اليهود من حقهم أن يقيموا فى أى مكان يريدونه فى كل أرض إسرائيل، ولكن للأسف فإن ذلك يمكن أن يخلق مشكلة مع الأمريكيين. لأنهم يقولون بأنهم يرغبون فى أن تتوقف عن بناء المستوطنات. وبالطبع لا يمكنك مجادلة الأمريكيين، وإلا فسوف يتوقفون عن إرسال الأموال وبالتالى، ما عليك سوى القول بأنك تحاول وقف هؤلاء المستوطنين المعتوهين. ولأن الهدف هو السلام، فإنك بالطبع متفق مع أصدقائك الأمريكيين. والمشكلة أن الجماعتين اللتين تتفق معهما، غير متفقتين معًا، ويمكنك أن تدعو ذلك "خارطة الطريق" إلى الكارثة. ولكن فى بعض الأحيان، لا يكون هناك شىء يمكن عمله سوى كسب المزيد من الوقت، من خلال بعض الأكاذيب الطريفة. إذا دعت الحاجة إلى ذلك، فإمَّا أن يموت مالك الأرض أو كلبه. إنها طريقة يهودية لطيفة لمواصلة الحياة.

وقد سألت باتيا جور عن تلك الحكمة الشعبية. وهى روائية إسرائيلية بارزة فى أدب الجريمة تجيد البولندية واليديشية على نحو يمكنها من معرفة أصل بعض الكلمات العبرية. سألتنى مباشرة "إنك بالتأكيد تعرف القصة. أليس كذلك؟ ولكننى بالتأكيد لم أكن أعرف.

فقالت "كان هناك إقطاعى عظيم فى منطقة "بال" (منطقة فى روسيا ، جزء منها الآن يشكل بولندا ، حيث كان يسمح لليهود بالإقامة فى أثناء حكم القياصرة). "وفى يوم ما استدعى يهوديه أو اليهودى الذى يملكه" (وكلمة "يهوديه" هنا تستحق وقفة. ففى تلك الأيام كان الفلاحون ينتمون إلى صاحب الأرض، الذى كان يملك حياتهم). "وقال له، أريد منك أن تعلم كلبى اليديشية وإن لم تفعل سوف أقتلك".

فقال اليهودى "حسنًا، إنها مشكلة مثيرة للاهتمام. يجب علىَّ التفكير فيها" وتوجه إلى منزله، حيث أخبر عائلته. وعلى الفور أعلنت الحداد. فلا أحد يمكنه أن يجعل الكلب يتكلم، ناهيك عن تعليمه اللغة اليديشية. لقد انتهى أمره. وبدأت امرأته فى تمزيق ملابسها حزنًا عليه".

و"فى اليوم التالى ذهب اليهودى للإقطاعى وقال له: لقد فكرت فى الأمر يا سيدى، سوف أعلم كلبك اليديشية فى خمس سنوات".

"قال صاحب الأرض 'موافق'. وعاد اليهودى إلى منزله، وما أن رأته زوجته حتى انتابتها فرحة عارمة. ونزعت ملابس الحداد وسألته 'ماذا قلت له؟'".

"فأجابها 'قلت له سأعلم كلبك اليديشية فى خمس سنوات'. فارتدت ملابس الحداد ثانية، وقالت له 'كيف يمكنك أن تعده بذلك؟ هل فقدت عقلك؟ لقد جعلتنى أرملة'".

"قال اليهودى 'لا تقلقى، إنها خمس سنوات! فإما أن يموت صاحب الأرض أو يموت كلبه، لابد أن يحدث شىء'".

كانت تلك دائمًا الطريقة الأسهل فى تناول الأمور عندما يتعلق الأمر بالحاخامات أو بأمور العقيدة، فليس هناك موقف آخر. فالأسهل دائما الانحناء للريح وكسب المزيد من الوقت. وإليكم قصة أخرى علمت بها، منذ زمن بعيد فى ذلك الفندق، ولكنها علقت بذاكرتى لأنها علمتنى إلى أى مدى يمكن للأمور أن تؤَوَّل. فى الواقع، المدى الذى آلت إليه الأمور عبر ثلاثين عاما منذ اتفاق بن جوريون مع الحاخامات، بينما ينتظر الجميع موت صاحب الأرض أو كلبه.

فى ذلك الفندق، مثل معظم الفنادق الكبرى الأخرى على الشاطئ، كانت هناك بعض الاستفادة التجارية من يوم السبت، حيث تقام مأدبة فخمة ورائعة تكتظ بكل أنواع الطعام. وبأمر القانون بناء على الاتفاق مع الحاخامات، يجب على كل الفنادق أن تقدم الطعام الحلال حسب الشريعة اليهودية. ولكن ما كان يحدث هو أنه كان يتم إعداد الطعام يوم الجمعة، قبل الغروب ويقوم البعض من غير اليهود غالبًا بإعداد الموائد وتجهيز الأطباق يوم الأحد وإشعال المواقد تحت الأوانى. وكل ذلك كان يتم تبعًا للتعاليم اليهودية. وعلى ذلك كانت قاعة الطعام فى الفندق تكتظ بما لذ وطاب من ألوان الطعام والزوار بحلول ظهيرة يوم السبت. كان يأتى الجميع من سائحين ومحليين حتى المتدينين الذين لم يكونوا ليقوموا بارتكاب خطيئة الطهو فى منازلهم، حيث تسألهم المضيفة على الباب "لحوم أم منتجات ألبان؟". لأنه بالطبع تبعًا لأحكام الطعام الحلال لا يمكن مزج اللحوم بمنتجات

الألبان. فلا يمكنك على سبيل المثال تناول البسطرمة مع الجبن. وكان هذا الأمر محسومًا تمامًا.

كانت الأمور تتم كما يلى: حينما تجيب المضيفة الموجودة لدى الباب، بناءً على إجابتك تعطيك طبقًا كبيرًا وفارغًا، من مجموعة اللحوم أو من مجموعة منتجات الألبان. وبعد ذلك تتجه إلى أحد جانبى القاعة، حيث تملأ طبقك بما لذ وطاب من الأطعمة الحلال (سواء لحوم أو منتجات ألبان). وعلى المنضدة تجد أدوات المائدة الفضية والزجاجية. وعلى ذلك يحدث الأمر كله كالسحر. ولكن فى أحد أيام السبت المدرة للربح هذه، اعترض أحد الزبائن ونشبت الأزمة.

كما قصوا علىَّ الحكاية، كان ذلك الشخص سائحا متدينا قام بالشكوى لدى الإدارة. (لكى أكون دقيقًا كان "أحمق من كليفلاند"). وقد زعم أن البخار المتصاعد من أطباق اللحم السويدية ينتشر فى القاعة عبر الممر المؤدى لمكان أطباق منتجات الألبان فيدنسها ويجعل الكعك المحشو بالجبن الذى يتناوله غير شرعى. إذن فالفندق يرتكب خطيئة.

يا للكارثة! الآن بالطبع يجب استشارة الحاخام، الذى يدفع له الفندق مقابل تأكده أن أطباق اللحوم لا تختلط مع أطباق منتجات الألبان وأشياء من هذا القبيل. هذا الحاخام كان يتمزق بين ولائه لجهتين: عرفانه بالجميل لمن يطعمه وإخلاصه لتعاليم موسى، ومافيا الحاخامات التى كانت السبب فى حصوله على العمل. على أية حال، وعلى الرغم من أنه كان يمتلك العلم، فإنه لم تكن لديه فرصة للعمل فى فندق آخر، وكانت النتيجة أنه لم يدر ماذا يفعل. كان يوم الأحد قد جاء، فلا يمكنك مهاتفة حاخام يوم السبت، وكان قد تم رفع المائدة منذ وقت طويل. فكيف كان يمكنه أن يعرف ما إذا كان البخار قد انتشر؟ ولذلك قرر أن يتحدث إلى رئيس الحاخامات فى تل أبيب عبر الهاتف.

وعلى ذلك فإن الحاخام المعين بشكل رسمى. دلالة على علو منزلته وتعليمه الجيد، كان يثق فى أن حكمة الحاخامات العظام فى العصر الذهبى ستجيب على ذلك السؤال. قبل كل شىء، حتى لو سلمنا بأن البخار قد انتشر بالفعل. دعنا نسلم بذلك - فهذا لا يغير حقيقة واضحة وهى تحريم خلط منتجات الألبان مع اللحم. وبالتالى فإن تلك المشكلة - هذا الاحتجاج العنيف من "ذلك الأحمق من

كليفلاند" كانت تتعلق بالطعام فقط. وهذا يدفعنا إلى تساؤل مهم"هل البخار طعام"؟ كان لدى رئيس الحاخامات الفطنة الكافية التى دفعته إلى عدم وضع رقبته تحت حد السكين من خلال إغلاق كل موائد السبت فى كل فنادق تل أبيب الكبرى. وعلى ذلك، فقد اتصل بمجلس حكماء التوراة.

الآن، هاهم الحاخامات - دستة منهم، حسبما أذكر - الذين تم تعيينهم على المستوى القومى اعترافًا بمعرفتهم الهائلة الراسخة وسمعتهم المدوية التى لا تشوبها شائبة، ولحاهم الطويلة الكثيفة المتدلية التى تدل على عقود من الدراسة والعلم. والآن (باعتباره كبير حاخامات تل أبيب) كان مسرورًا بلا شك عندما أدرك أنهم وافقوا على أن الموضوع المطروح للنقاش هو: هل البخار يمكن أن يعتبر طعامًا؟ ومع ذلك، فقد أدى هذا السؤال (شأنه شأن كل الأسئلة المطروحة على الحكماء العظام للشريعة اليهودية) إلى سؤال آخر يجب بحثه ألا وهو ما هو الطعام؟ ولتحرى الدقة، كان على الحكماء أن يحددوا، ما المعيار المناسب الذى تتم به معرفة ما هو الطعام؟ وهذا السؤال بدوره، ككل أسئلة الشريعة اليهودية التى تطرح على الحكماء كان يتطلب الكثير من البحث والمناقشة الحامية.

فى ذلك الوقت، كان الأسبوع قد انتصف. وأوشك العاملون بالفندق على الإصابة بالجنون. فكيف يقومون بالدعاية لحفل يوم السبت؟ وكان الرجل الموضوعة رقبته تحت السكين شابًا لامعًا من بروكلين، دعنا نطلق عليه إسحاق، وكان يعمل مديرًا للأطعمة والمشروبات، والذى قال أشياءً غير طيبة عن الحاخامات، عمومًا، وذلك الأسبوع على نحو خاص، حيث تخيل أن عمله قد أصبح قاب قوسين أو أدنى للتضحية به على مذبح الطقوس اليهودية. فمائدة السبت هذه كانت بقرته المقدسة أو الدجاجة التى تبيض له ذهبًا. ولكن (الحمد لله) سرعان ما جاءت الأنباء الطيبة، فقد توصل مجلس حكماء التوراة إلى اتفاق. كان السؤال فى الواقع هو: هل البخار طعام؟ وعبر حكمة العصور الماضية جاء اختبار مناسب لمعرفة ما هو الطعام؟. وكان هذا الاختبار يتلخص فى الآتى:

"إذ لم يأكله الكلب، فهو ليس بطعام" .

والآن، يجب ملاحظة (كما لاحظ الحاخامات) أن العكس ليس صحيحًا. لأن هناك أشياء عديدة يأكلها الكلب لا تصلح أن تكون طعاما مناسبًا. ولكن إذا لم يأكلها الكلب، فهى ليست بطعام.

وعلى ذلك، فى آخر ذلك الأسبوع المزعج، صدرت الأوامر للعاملين بالفندق بإعداد المائدة. وتحت إشراف الحاخامات، تم إشعال الموقد تحت إناء كبير مملوء بكرات اللحم السويدية. ولكن تم وضع خيمة من السيلوفان فوق الإناء، حتى يمكن تجميع البخار الناتج عنها، تحت إشراف حاخامى. الحقيقة أن كبير حاخامات تل أبيب كان موجودًا. وترك البخار للتجمع فى الخيمة، حيث يمرر من قمة الخيمة عبر أنبوب ملفوف بفوط مرطبة باردة حتى يتكثف البخار ويتساقط على هيئة قطرات (كما يفترض أن يكون) داخل سلطانية موضوعة على الأرض.

وأمر رئيس الحاخامات "أحضروا الكلب!" وتركت الأبواب المؤدية للمطبخ مفتوحة حتى يكون الصغير على راحته. وفى لهفة، أخذ يتشمم أركان الحجرة وأقدام المقاعد والمائدة. غالبًا بدت رائحتها مثل الطعام بالنسبة إليه. وأخيرا وصل إلى مائدة اللحم، وكانت السلطانية على الأرض. وقد اقترب منها وتشممها ثم استدار وتابع تشممه فى مكان آخر.

لم يأكلها الكلب! إذن هى ليست طعامًا، وهم لا يرتكبون خطيئة. وعادوا إلى عملهم مرة أخرى! كانوا يمطرون الحاخامات بالشكر ، وبالطبع بالدعوات إلى مائدة السبت. وهم يتصافحون فى كل أرجاء المكان، وذهب الحاخامات ليحرسوا تعاليم موسى فى مكان آخر. وبالطبع لم يتوقف أحدهم لفحص إناء تسخين الطعام ، ولا أعنى بذلك كرات اللحم الموجودة به، ولكن قاع الإناء حيث يوجد السائل الساخن لتسخين الطعام فوق البخار، الذى كان يحمل مفاجأة. فلو فعل لقطع عنق إسحاق مدير الأغذية والمشروبات، هذا بلا أدنى شك. لقد كان يضع أحد المنظفات القوية المحتوية على الصنوبر فى هذا القاع.

المشكلة هى أنه بينما تنتظر الغالبية العظمى من الإسرائيليين وفاة صاحب الأرض أو كلبه، تواصل الأشياء الحدوث، باستثناء بعض التغيرات التراكمية الطفيفة. فها هو شارع آخر تم إغلاقه فى القدس (ليس ذلك بالمشكلة الكبرى، فلن يهم ذلك الشارع فى أيام السبت). بعد ذلك، استولى المتشددون على أحد

حمامات السباحة التابع للدولة (حسنًا، علينا أن نتفهم حساسيتهم، فالرجال والنساء يجب ألا يسبحوا معًا). بعد ذلك طالبوا بنظام خاص فى الباصات: فالرجال والنساء يجب أن يجلسوا بشكل منفصل. ثم قام المدير العام للآثار بالاتفاق على عدم القيام بأى حفريات، بينما يحوم المتشددون حول المكان، لكى يتأكدوا من عدم تأذى أى مقابر. (يقول المدير العام للآثار بأن اتفاقية السلام التى أبرمها مع المتشددين هى "أعظم إنجاز" قام به فى عمله). ما حدث تبعًا لهذه التراكمات هو أن الدولة اليهودية قد أجبرت على العمل وفقًا للشريعة اليهودية.

ما حدث أيضًا هو بالضبط الانشقاق الذى خشى بن جوريون أن يحدث (إذ لم يبرم الصفقة)، فهناك الآن مجتمعان من اليهود فى إسرائيل. أحدهما مجتمع المتشددين الأرثوذكس، والآخر يسمح برؤى متعددة للعقيدة، ولكنه لا يرغب فى فعل أى شىء تجاه المتشددين. وقد قمت بزيارة لتل أبيب مع يورى أفنيرى، الناشر اليسارى الشهير والعضو السابق فى الكنيست، وهو الآن الأب الروحى لجماعة جوش شالوم (كتلة السلام)، تلك التى استفزت دان هالوتز قائد القوات الجوية). قال لى يورى "أتعرف، حينما أرى أحد هؤلاء اليهود الذين يرتدون المعاطف والقبعات السوداء، أجدنى أنظر إليه كما لو كنت أنظر إلى رجل بدائى من قبائل غينيا الجديدة، ولا يوجد شىء يربطهم بى أكثر من ذلك". وفى هذا المثال النادر، يتفق أفنيرى مع الأغلبية، فقد كانت استطلاعات الرأى غالبا ما توضح أن الإسرائيليين العلمانيين يعتبرون المتشددين (الحريديم) يشكلون خطرًا على إسرائيل، أكثر من العرب.

العداوة متبادلة بالطبع، فالحاخامات لا يكفون عن اتهام قادة المجتمع العلمانى فى إسرائيل بأنهم أعداء لدودون لليهود واليهودية. وهذا النوع من الخطاب هو ما أسهم فى اغتيال إسحاق رابين رئيس الوزراء الإسرائيلى عام ١٩٩٥، ذلك الحادث الذى جعل الحاخامات يعبرون عن دهشتهم وإحباطهم وبراءتهم (فلا يعنى إطلاقهم عليه اسم عدو الرب، أنهم يرغبون فى أن يمسه أحد!). وبمزيد من الصلاة والتدبر، ذهبت نوبة الأسف العميق، وعاد المتشددون إلى رسم الصليب المعقوف على معاهد اليهودية الإصلاحية أو إطلاق النار على المعابد التى لم تكن

أرثوذكسية بالقدر الكافى، وإدانة السياسيين. وقد أعلن الحاخام عوفيديا يوسف، الزعيم الروحى لحزب شاس (كبير الحاخامات الأسبق)، فى حديث إذاعى مخاطبا أتباعه فى الأمة وحول العالم قائلا: "لقد ابتلانا الرب بشكل موجع وأرسل لنا يوسى ساريد، هذا الشيطان لعن الله اسمه" (كان ساريد، ذو التوجه اليسارى، وزيراً للتعليم فى ذلك الوقت قبل عيد البوريم مباشرة فى ربيع عام ٢٠٠٠) كيف يمكننا الاستمرار فى كبح جماح أنفسنا؟ وكيف يمكننا تحمل المعاناة التى يسببها لنا هذا الشرير؟ فلينتقم منه الرب! كما انتقم من هامان الملعون؟ (هامان هو قاتل اليهود فى قصة عيد البوريم) فليلعن الله يوسى ساريد وليفضح خططه ويخرب أفكاره وينتقم منه كما انتقم من هامان. وعندما تقولون فليلعن الله هامان بعد قراءة سفر إستير، قولوا أيضا فليلعن الله يوسى ساريد".

أما بالنسبة ليورى أفينيرى، فلم يشغلوا أنفسهم بإلقاء اللعنات عليه. ولكنهم ظلوا سنوات يطلقون عليه اسم " الكنعانى" والجميع يعلم حتى اليهود غير الصالحين كيف يجب أن يعامل الكنعانيون، فهم يجب أن يساقوا خارج الأرض كما أمر الرب فى سفر العدد فى الإصحاح الثالث والثلاثين.

والواقع أن هذا الإصحاح هو ما يستشهد به المستوطنون المتدينون وكل أرثوذكسى يمينى باعتباره برنامجهم السياسى والشخصى ومنهاج عملهم. فهو يأمر اليهود بأن يستوطنوا الأرض ويطردوا السكان القدامى. وهو الإصحاح نفسه الذى استشهد به أحد وزراء آرييل شارون عندما سافر إلى واشنطن لكى يحشد المعارضة ضد خارطة الطريق التى اقترحها جورج بوش لتحقيق السلام. (بالطبع أخبر شارون بوش أنه مع خارطة الطريق، ولكنه طريق طويل، وفى غضون ذلك إما أن يموت مالك الأرض أو كلبه).

"كلم الرب موسى فى عربات مواب على أردن أريحا قائلا: كلم بنى إسرائيل وقل لهم إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم و تمحون جميع تصاويرهم وتبيدون كل أصنامهم المسبوكة وتخربون جميع مرتفعاتهم وتملكون الأرض و تسكنون فيها لأنى قد أعطيتكم الأرض لكى تملكوها".

والآن، هذه ليست كلمات معقدة ولا توجد طريقة أخرى لفهم فحواها. فهذا هو أمر الرب. وهذه هى الشريعة اليهودية. وبالنسبة للمتدينين ليس لهم خيار فى ذلك، ولا الدولة اليهودية. لأنه فى الإصحاح نفسه يقول الرب لموسى:

"إن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكن الذين تستبقون منهم أشواكا فى أعينكم و مناخس فى جوانبكم ويضايقوكم على الأرض التى أنتم ساكنون فيها فيكن أنى أفعل بكم كما هممت أن أفعل بهم".

وعلى ذلك "إما نحن أو هم" كما يقول شعار حزب حيروت. فكيف يمكننا تسميتها دولة يهودية إذا انتهكت الشريعة اليهودية؟

ولكن إذا تغيرت طبيعة مهمة الدولة اليهودية عن أصلها، من دولة يهودية يعيش فيها اليهود فى أمان معتمدين على أنفسهم، إلى دولة تعمل وفق الشريعة اليهودية وتفرضها. فإنى هنا سأحتاج إلى بعض المساعدة فى الإجابة على سؤال لا أستطيع تجاهله.

وعلى ما يبدو فقد فاتنى فهم تلك النقطة فى مدرسة يوم الأحد، ولتسامحنى يا حاخام، فهل يمكننى الرجوع إليها؟ لو أن الدولة اليهودية ستسير وفقًا للشريعة اليهودية فكيف يختلف ذلك عن أى جمهورية إسلامية بأى حال من الأحوال؟

كانت كنيته تعنى الذهب الحريرى أو الحرير الذهبى (لم أستطع أبدا قولها بالطريقة الصحيحة) ولكنه على أية حال يدل على موقعه فى بلده وفى العالم. إنه أحد الأرستقراطيين المتدينين، ويسمى يهودا ميشى زاحاف. وهو يهودى أرثوذكسى يعيش فى القدس. وتبعًا لتقديره الشخصى، فإنه أحد أبناء القدس من الجيل الحادى عشر. كان أسلافه من أوائل المهاجرين الذين جاءوا (من منطقة بال التابعة لروسيا والتى أصبحت بولندا) ليسوا صهاينة، فقد جاءوا قبل الصهاينة، ولكنهم ببساطة يهود.

ترعرع ميشى فى الجوار القديم، على النمط التقليدى ، كيهودى وليس كإسرائيلى، على الرغم من أن الدولة فى وقت ميلاده كانت راسخة بالفعل (تقريبًا فى سن البلوغ أو البار ميتزفاه). وكانت الحياة فى حى "ميا شاريم" وفى

المناطق الأرثوذكسية الأخرى المجاورة للقدس، بينما ميشى لم يزل صبيا. تسير على نهج الحياة القديمة للتوراة (أو تلك التى تفتقد الزمن). فالرجل الصالح لم يكن لديه ما يفعله بشأن الدنماركى أو السويدى الملحد الذى بدا أن الصهيونية العمالية تصنعه فى هذا المكان الذى يجب أن يكون مقدسًا والذى كان كذلك فى عيون الرب.

الواقع أن ميشى قد جاء من عصر جعله يشعر بالعداء تجاه الدولة. الشر المتمثل فى الشرطة الصهيونية، بنسائها غير المتدينات (ذوات الأذرع العارية!) والرجال الذين يقفون أمام الرب برءوسهم حاسرة، وأناس يزعمون بأنهم يهود، ومع ذلك يقودون سيارتهم عبر القدس (أمام ناظريه!) فى أيام السبت. كانوا جميعًا رمزًا للشر. كانت تلك هى الأيام الأولى لإلقاء الحجارة لفرض قدسية يوم السبت . على الأقل فى شوارعهم القليلة، ولكن الحريديم لم يكونوا منظمين. كان الاتصال يتم بينهم، على نحو أساسى، عن طريق الملصقات التى كان يقوم أتباع الحاخامات بلصقها على الحوائط الحجرية القديمة، داعين فيها المخلصين للعقيدة إلى شجب هذا، أو محاربة ذاك، فيقوم بعض الرجال بمؤازرتهم والخروج معهم لإلقاء الحجارة. كان كل ذلك غير فعال ، مجرد عمل عشوائى ناجم عن الإحباط يقوم به أشخاص مهمشون ليس لهم ناقة ولا جمل ، أو هكذا بدا الأمر لقوى المجتمع الصهيونى المحيط بهم، حتى تولى ميشى زمام الأمور. فمنذ أن بلغ الحادية عشرة أو الثالثة عشرة من العمر. وهم يطلقون عليه فى المنطقة "ضابط العمليات". كان المتدينون وحاخاماتهم يستدعونه ليقود مظاهراتهم. حتى أصبح يشكل لأولئك العلمانيين الذين تشوشت علاقتهم بالرب تهديدًا خطيرًا، من خلال كتيبة من مرتدى المعاطف والقبعات السوداء ذات الفراء التى يقودها. وعند بلوغه السن التى يمكن فيها مساءلته قانونيا عن جرائمه، أقامت الشرطة ضده أربعًا وثلاثين دعوى قضائية.

إن ما يجعل الأمر أكثر بروزًا هو ما حدث الآن وموقفه منه، ففى منتصف الأربعينيات، أصبح ميشى زاحاف بطلاً من أبطال الأمة الصهيونية. فهو مؤسس وزعيم الزاكا، وهى جماعة غير هادفة للربح من المتطوعين الأرثوذكس الذين يظهرون فى ساحات التفجيرات الإرهابية (أو حوادث السيارات الكبرى، أو أية

فاجعة) ليجمعوا الجثث ويعتنوا بها وكذلك الأشلاء المتناثرة في الواقع، كل قطعة أو شظية عظام أو مخ أو دماء وذلك وفقا لتعاليم التوراة.

إنه عمل رهيب، فمشاهد التفجير هذه، كما يقول البريطانيون، دموية شنيعة، ولكنها أيضًا أصبحت فى الأيام الأخيرة (بعد أن تفجرت فقاعات التكنولوجيا العالية والسلام، فى نفس الوقت تقريبًا) تمثل إحدى الصناعات الإسرائيلية النامية. شيد ميشى إمبراطورية، فقد كون قوة من مئات، بل آلاف المتطوعين بطول البلاد وعرضها. كما أصبح لديه مكاتب لجمع التبرعات عبر البحار. (واشتهر فى كل أنحاء العالم، فتمت الاستعانة به فى نيويورك فى أعقاب هجمات الحادى عشر من سبتمبر، وبعد تفجير الملهى الليلى، فى مالى بإندونيسيا). وهو يدير أحدث (وأسرع) شبكة أخبار فى إسرائيل وأكثرها ضجيجًا. كما جمع أسطولاً من سيارات الجيب والإسعاف والدراجات البخارية لفرقته الطائرة الجديدة. وبهذا فقد سحق كل منافسيه (الذين اعتادوا تكوين ثنائيات)، فميشى هو ميكروسوفت الأشلاء فى إسرائيل.

وهو لا يعتبر نفسه فقط مقاولاً، كما يقولون عنه. فكما يذكرون الجماهير من وقت لآخر، إن العمل الذى تؤديه الزاكا هو عمل خيرى أو واجب دينى (ميتزفاه) أمر به الكتاب المقدس. (والحقيقة أن هذه الدعاية تلاحق الجمهور أينما كان. ففى أى موقف يرتدى فيه التليفزيون الإسرائيلى عباءة السى إن إن، ناقلاً الأحداث على الهواء، مرارًا وتكرارًا، من المستشفيات وأقسام الشرطة وعائدًا إلى فريد فيروبرو فى موقع المأساة، يكون هناك شيء واحد دائمًا يترنم به مع تجول آلات التصوير باحثة عن اللقطات المروعة: "وبالطبع، تشاهدون الآن رجال الزاكا وهم يؤدون عملهم المقدس"). فوق ذلك، هناك سبب آخر أكبر يجعل من ميشى بطلاً تنهال عليه قصائد الثناء من السياسيين من كل نوع، من أقلهم شأنًا حتى رؤساء الوزراء، وهو أنه الرجل الذى أدمج المتشددين فى التيار السائد لإسرائيل الحديثة. لقد منحهم دورا يلعبونه فى الحدث الرئيسى، ألا وهو الصراع.

وقد التقيت معه فى مقابلة صحفية على الغداء، استغرق الإعداد لها شهرين كاملين، وكانت معدة برنامجى الرئيسية امرأة عصرية عارية الذراعين تدعى بونى

بيرزنيسكى. على الرغم من أنها كانت تعرف كل أفراد الصفوة العلمانية، فإنها لم تكن تعرف ميشى أو أيًا من حاشيته. (وبطريقة ما، كان هذا ما عنينا البحث فيه بالضبط). على أية حال، فقد نجحت أخيرا فى الوصول إليه، وكان ذلك بمثابة مكافأة لها على مثابرتها. ومكافأة لميشى على المسافة الطويلة التى قطعها فى طريقه إلينا، حيث يتناول الطعام ويحاول التعبير عن نفسه لامرأة غير متدينة ويهودى من الولايات المتحدة يأكل لحم الخنزير.

وبالطبع فإن الطعام الذى تناولناه كان طعامًا حلالاً وفقًا للشريعة اليهودية، خبزا مطهوًا على البخار مع طبق مملوء باللحم كامل النضج وشرائح السلطة والكثير من المقبلات. وكان ميشى هو الذى اختار ذلك المطعم الذى يقدم المشويات الكوشير ويرتاده الحريديم لتناول الطعام بشهية كبيرة. واستقبل ميشى بكثير من الترحاب من مالك المطعم والنادلين والطهاة والزبائن. واتضح بعد ذلك أن ذلك المطعم كان أحد الأماكن التى يصحب فيها ميشى رجال الزاكا بعد حوادث التفجير المروعة التى يعملون فيها ساعات طويلة فى جمع الأشلاء وأجزاء اللحم المحترق من على الأسفلت. ففى تلك الأوقات كان ميشى يشعر بأنهم بحاجة إلى ما يخفف الضغط عنهم، ولذلك كان يأتى بهم جميعًا حيث يحتلون ما يقرب من عشرين منضدة ويطعمهم حتى الامتلاء، وكثيرا ما كان يجعلهم يضحكون قائلاً على سبيل المثال "إن رائحة هذا اللحم المحترق أسوأ من اللحم السابق".

وقد سألته إلى أى مدى قد تغير، فقال لى إنه قد حدث له تغير جذرى يعود إلى أيام إلقاء الحجارة. كان يلقى القبض عليه كل سبت، ويضعونه فى سيارة الدورية ويتجاذب أطراف الحديث مع الشرطة. وبمرور الوقت، أدرك أن آخر شىء يرغبون فيه هو النزول إلى الشارع وقمعه هو وأتباعه، فما كانوا يرغبون فيه هو العودة للمنزل والاستمتاع بالسكينة فى يوم السبت مع عائلاتهم. وشيئا فشيئا، اعتاد البقاء بعد المظاهرات، حتى إن لم يتم القبض عليه، لكى يتحدث إلى أصدقائه من أفراد الشرطة. وربما بدأ أيضا فى فهم أن السيدة حاسرة الذراعين التى تقود سيارتها، تلك الآثمة الشريرة، ربما تكون ممرضة مضطرة للعمل نوبة مسائية وكل ما ترغب فيه هو العودة إلى أسرتها فى المنزل. وأضاف

ميشى "اكتشفت أن هذه الآثمة الشريرة إنسانة لطيفة. إن الكراهية جاءت من عدم معرفة الآخر. إننى أعتذر عن الكراهية وليس عن المظاهرات". وأضاف موجهًا كلامه لبونى، ليس للنشر ، "كنا نكرهكم أكثر مما تكرهوننا، لأننا لم نكن ندرى شيئًا".

فى الوقت الذى أصبح فيه شابًا يافعًا، شعر أنه أكثر تسامحًا تجاه ذلك، حيث كان يقوم بجولات سياحية مصطحبًا مجموعات من الإسرائيليين العلمانيين فى أنحاء ميا شاريم. كان يصحب هؤلاء اليهود عبر الأحياء اليهودية، حيث كانوا يفغرون أفواههم كسائحين غرباء. (قالت إحدى السيدات "أشعر وكأننى ذاهبة إلى آميش!) وحينئذ، توقف ميشى عن إلقاء الحجارة. وفى كل سبت، كانت الشرطة تغلق الشوارع حول معاقل الأرثوذكس. على أية حال، أدرك ميشى أن المظاهرات ليست بغيته. لقد بدأ فى تعلم القليل عن العالم الأوسع، وأصبح ما يهتم به هو الإرهاب.

كان ميشى فى الثلاثين من عمره، عندما بدأت التفجيرات فى تخريب القدس وكان أحد أوائل وأسوأ هذه التفجيرات انفجار أتوبيس صباح يوم الجمعة فى ساعة الذروة خارج إحدى المدارس مباشرة. كان المشهد مريعا، حيث كان الأطفال يبكون بين أجساد الموتى على الأسفلت، وكانت الأشلاء متناثرة فى كل مكان، وأصوات عربات الإطفاء والشرطة والإسعاف تصم الآذان وهى تجاهد لشق طريقها وسط تلك الفوضى على نحو يؤدى إلى فقدان المزيد من الأرواح. كان هذا عام ١٩٩٥ ولم يكن الإسرائيليون مؤهلين بعد للتعامل مع ذلك الرعب. نقلت إحدى السيدات إلى المستشفى مبتورة الساق. فاتصل الأطباء بموقع الحادث، بالشرطة ورجال الإطفاء ورجال الجيش والدفاع المدنى، لمحاولة البحث عن هذه الساق حتى يعيدوها إلى مكانها، فقد كان بإمكانهم إنقاذها، إذا ما وجدوها فى الحال. ولكن لم يتمكن أحد من العثور على شىء فى تلك الفوضى واليوم، وهذه المرأة تعيش معاقة حتى اليوم. وفى وقت لاحق بعد الظهيرة، مع اقتراب شمس ذلك السبت الحزين من المغيب، توجه أحد الحريديم، بقبعته السوداء ومعطفه المميز إلى مركز الشرطة، وهو يجر خلفه إحدى عربات التسوق التى يفضلها الإسرائيليون والمصنوعة من كرتون الفينيل الصلب المرتكز على إطار من الألمونيوم

يتحرك على عجلات. على أية حال، قدم هذا الرجل المتدين نفسه إلى مكتب الاستقبال وأخرج للشرطى المتواجد به ساقًا بشرية. وبالطبع كانت الشرطة على علم تام بصاحبة هذه الساق. فقال له "من أين حصلت على هذه؟".

فأجابه رجل الحريديم "كنت مارا بجوار موقع ذلك التفجير صباح اليوم، ووجدتها هناك. ولكننى كنت فى عجلة من أمرى لكى أشترى كعك السبت، لذلك وضعتها فى عربة التسوق، وظلت معى طوال اليوم حتى تمكنت من إعادتها".

بالطبع، استشاط رجال الشرطة غضبًا. ولكن ماذا يمكنهم أن يفعلوا؟ إن هؤلاء المتشددين مخيبون للظن ولا أمل فيهم كالأطفال لا يعرفون شيئا! ولكن إلى من يشكون؟ ومن يمكنه المساعدة؟ الحاخامات؟ إنهم أسوأ من الحمقى، يعرفون الكثير بلا طائل. ولكن كان هناك شخص متدين واحد يمكنهم الحديث إليه. اشتكوا إلى ميشى زاحاف، وفهم قصدهم بوضوح ، ليس قولهم بأنهم حمقى ولكن أنهم جاهلون بما يجب فعله فى حالة الطوارئ الحديثة. (فتعليم المدارس الدينية لا يغطى هذا النوع من المواقف). وإذا أرادوا البقاء هنا، يجب أن يتعلموا شيئًا ما. يجب أن يكونوا مفيدين. وعلى ذلك، نظم ميشى برنامجا لتدريب خمسة وعشرين رجلاً من الأرثوذكس على ما يمكنهم فعله عندما يحدث انفجار. وكان هؤلاء الخمسة والعشرون متطوعيه الأول. وكانوا نواة لجماعة الزاكا.

وفى الحال، كانت هناك ملصقات على الجدران الحجرية القديمة تشجب ميشى المتواطئ مع الصهاينة الملحدين الذين أقاموا الدولة مما يعطل مجىء المسيح والخلاص. وتصاعدت وتيرة غضبهم عندما أعلن ميشى أن الخطوة التالية لجماعته هى إعداد برنامج لتعليم نساء متشددى الأرثوذكس كيف يتصرفن وكيف يقدمن المساعدة. وهنا بدأ الحاخامات فى صب اللعنات عليه وجها لوجه. فقد كانت فكرة خروج الزوجات والفتيات خارج المنزل للتعلم فكرة محرمة. حيث إن جمع الأشلاء لدفنها يعتبر قبل كل شىء من تعليمات التوراة، ونساء متشددى الأرثوذكس لا يدرسن التوراة. كما أنهن سوف يتحدثن إلى أشخاص من خارج أسرهن، الأمر الذى يعتبر خطيئة. كما قد يكون هناك مدرسون من الرجال أو يضطررن إلى مساعدة رجال غرباء، مما يؤدى إلى اختلاط الجنسين، وهذا فسوق! وتعهد ميشى بتخصيص فصول التعلم للرجال

فقط، وعدم السماح للنساء بالخروج للشوارع للعمل جنبا إلى جنب مع الرجال المتطوعين، وهذا كان جيداً بما يكفى. وأخيرا قال للحاخامات: " انظروا، لا تتجادلوا معى. إننى من المنزل نفسه الذى ترعرعتم فيه". ثم وضع إعلانه الذى يطلب فيه متطوعين. فتقدم ألفا شخص من ميا شاريم وحدها. فعاد ميشى للحاخامات وقال لهم وهو يلوح بالورقة المسجل فيها الألفا اسم "والآن هل أبدأ الدرس أم لا؟". فاستسلم الحاخامات وانطلقت الزاكا.

وعلى الرغم من أن ميشى ما زال يتعرض للشجب من آن إلى آخر، فإن وقوفه إلى جوار المتشددين لم يتغير. لقد منحهم إحساساً بالانتماء لإسرائيل لم ينتبهم من قبل. ولا يزال المتحدث الرسمى للجماعة المحتضنة لمتشددى الأرثوذكس الذين يتساءلون دوما عن شرعية الدولة اليهودية، وهو موقف يتفق معه إلى الأبد. وتوجهت له بسؤال عن نظريتى الخاصة بأن المعايير فى إسرائيل قد تغيرت ، وأن كل شىء قد تغير منذ عام ١٩٦٧ عبر الاحتلال الطويل للأراضى الفلسطينية. وبعد انتهاء بونى من ترجمة السؤال، كان ميشى يهز رأسه علامة النفى.

وقال "المشكلة لم تكن فى عام ١٩٦٧وإنما كانت فى عام ١٩٤٨ حينما ابتعدنا عن تعاليم التوراة وحاولنا استبدال قوانين الدولة بها. فقد حصل شعب إسرائيل على التوراة فى سيناء دون أن يكون لدينا شبر واحد من الأرض. وسمع العالم عن الشعب اليهودى دون أن يكون لدينا سنتيمتر من الأرض. ولذلك فإن كونك يهودياً يجعلك لا تحتاج إلى دولة، فيمكنك أن تكون يهودياً فى ألمانيا أو أمريكا أو المغرب وما أعنيه ببساطة هو أنه يجب أن تحفظ تعاليم التوراة. وهذا هو المعنى الوحيد لذلك.

" فمنذ ثلاثة آلاف عام، كانت لدينا تلك التعاليم، والآن بدلا من ذلك نعتمد على مائة وعشرين عضوا فى الكنيست. فالبعض منهم يتبع التوراة، والبعض لا. بعضهم روس، ولا نعرف إن كانوا يهوداً. وعلى ذلك فماذا تتوقع؟"

"فحتى لو لم تتغير الأمور هنا، فأنا لا أحتاج إلى الأرض. أستطيع أن أكون يهوديا فى أى مكان. لقد عقدنا اتفاقا مع الرب، منذ سنوات عديدة بأن هذه الأرض تنتمى لليهود. وبعد ذلك، بدأنا فى عصيان الأوامر، وهذا هو سبب غلبة الفلسطينيين الآن".

وطوال ذلك الغداء الطويل، ظللت أدون ما يقوله ميشى زاحاف، ذلك الرجل ذو المظهر اللافت للنظر، ولكن لم يَفُتنى تسجيل تفاصيل قميصه الأبيض بعد أن نزع معطفه ذا الجيب المملوء بالرسائل التى يجب عليه الرد عليها، وكذلك حواف القميص المتدلية خلف شعره البنى الذى كان يشوبه بعض الخصلات الرمادية الفاتحة والذى لامس كتفى القميص، ووجهه الشاحب الضخم ناتئ العظام وذقنه البارزة غير المستدقة،والتى تنمو بها بعض الشعيرات الرمادية التى تشبه شعر الماعز أو الجمال. ولكن هذه التفاصيل لا تضيف كثيرًا إلى ما يبدو عليه ، أو ما حاولت وصفه فى هذه الملاحظات ، أى مظهره القوى. فإذا كان على أن أمنح اسمًا لما عجزت عن وصفه. فأنا أسميه قوة يهوديته. فالواقع إننى رأيتها وهى تعمل. وعبر المائدة، لمحت بونى وهى تأخذ شالها من على المقعد المجاور وتلف به نفسها، قائلة إنها تشعر بالبرد. بدت درجة الحرارة وكأنها ثمانون درجة فى ذلك الفندق. وقد بدأت بلف كتفيها وبعد ذلك قالت "لا أدرى لماذا أشعر بالبرد الشديد". ثم جذبت الشال على رأسها حتى إنه لم يبد منها سوى وجهها. وشيئا فشيئا أصبحت تعمل وفقا لما تعرفه من قوانين ميشى ، أو لما اعتقدت أنه كذلك.

وأضاف ميشى " سوف نلتصق بهذه الأرض مادُمنا بقينا على عهدنا، وإذا لم نفعل فسوف نفقدها ".

ثم سألته بونى سؤالا خاصا بها قائلة " إذا اعتبرت هذه الأرض ملكى، فهل أكون يهودية؟"

فأجاب بطريقة يهودية جدا، بسؤال أكثر حدة. فى الواقع. كان هذا السؤال الذى تحدى به المتشددون إسرائيل لأكثر من خمسين عاما حيث قال: "هل يمكنك الهروب من كونك يهودية ؟"

أخبرته أنه باعتباره ليس صهيونيا، فإنه يبلى بلاء حسنا فى الدولة اليهودية، ووافقنى على ذلك. وقال إن رئيس مكتب رئيس الوزراء اتصل به فى الأيام القليلة الماضية، وطلب منه أن يبقى رئيس الوزراء على علم دائما بأى تفجير يحدث وأن يمُدَّه بتقارير عن المصابين. وعلى ذلك، فإن الزاكا تعرف ما يحدث أسرع من أرييل شارون. حينئذ قلت لميشى "تبعا لحساباتى الشخصية، فإنك أكثر شعبية من شارون. فهل من الممكن أن تفكر فى أن تحل محل ذلك العجوز". فهز ميشى رأسه نافيا وابتسم قائلا "بالنسبة لشارون فإنهم سيتخلصون منه بعد عامين. أما أنا فسيحتفظون بى طوال العمر".

وانتهى الغداء بصورة مفاجئة عندما توقفت سيارتان جيب تومضان بالأضواء أمام المطعم. وكانت السيارتان مكتظتين برجال الحريديم بطريقة غريبة كعربة مهرج فى سيرك. ولكن كان المقعد الأمامى فى السيارة الأولى فارغا فى انتظار ميشى. لم ألتق به ثانية ولكننى كنت أتابع أخباره، ولم يكن هذا صعبا، حيث كان فى نشرات الأخبار طوال الوقت.

وبعد شهور قليلة من تلك المقابلة. أعلن اسمه كواحد من أربع عشرة شخصية بارزة ستقوم بالمشاركة فى الاحتفال بأشهر المناسبات الصهيونية ألا وهى يوم استقلال إسرائيل، عن طريق إضاءة المشاعل فوق جبل هرتسل. كانت هذه المناسبة، كما هو متوقع، سببًا فى فتح النار عليه من المؤمنين الحقيقيين من كل الجبهات. وقد شجبه جده شخصيا باعتباره عميلاً للصهيونية، وشجبه الصهاينة الحقيقيون باعتباره متطرفًا دينيًا، وعدوا لدودًا للدولة. ولكن كعادته دائمًا، ربح ميشى معركته مع الجماهير.

قال إنه يوقد الشعلة بكل سعادة، وأكد (كما تتطلب الطقوس) أنه فعل ذلك "على شرف دولة إسرائيل". وفى حقيقة الأمر، أنه اعتبر تلك المشاركة تقديسا لاسم الرب، وبالتالى فإنها كانت واجبا ملزما له باعتباره يهوديا. "إننا يجب أن نتعلم أن نعيش معًا، وليس جنبًا إلى جنب". وقال إن تجربته مع الزاكا قد علمته شيئًا عظيمًا: أن أعداء الشعب اليهودى لا يفرقون بين المتدينين والعلمانيين، فلماذا يفعل اليهود ذلك ؟

سألخص الأمر كما رأيته فى عبارتين. لقد عاد ميشى بالقضية إلى أكثر من خمسين عامًا مضت، إلى الأيام التى جعل فيها هتلر اليهود يعملون معًا. وكسب الجماهير فى صفه لأنه وضع يديه على الشىء الذى يمنع اليهود من مقاتلة بعضهم البعض. الآن، ماداموا يواجهون صراعًا خارجيًا، فإنهم سيظلون متماسكين.

وعلى ذلك، سأسحب كلامى السابق بخصوص المجتمعين الموجودين فى إسرائيل، فقد كنت مخطئًا، فهناك ما هو أكثر من ذلك. فى الواقع هناك مجتمعان داخل مجتمع المتشددين وحدهم، ذوا اتجاهين متباينين وتاريخين متباينين، كل منهما له عرفه الخاص به، ويمكنك تسميتهما قبيلتين.

الأولى، وهى الأقوى والأطول عمرًا، قبيلة الأرثوذكس الإشكيناز. وهم البيض الذين جاءوا من أوروبا، كما جاء حاخاماتهم وموسيقاتهم وتقاليدهم وعباداتهم، إلى جانب عدم ثقتهم فى الصهيونية والدرس القاسى الذى لقنته لهم الهولوكوست. وهم القوة المحركة للأجودا. الجانب الآخر للعملة الخاصة بالمؤسسين الصهاينة الذين هم، كما يقول ميشى، من المنزل نفسه.

والمجموعة الثانية تتكون من المؤمنين الأرثوذكس الذين جاءوا من آسيا وشمال أفريقيا اليهود القادمين من الدول العربية والإسلامية الذين جاءوا إلى إسرائيل بعد تأسيس الدولة فى الخمسينيات حتى الستينيات. ويطلق عليهم السفارديم، لأن تقاليد تعليمهم وعبادتهم جاءت من أسبانيا حيث كان اليهود يتمتعون بالإقامة هناك حتى عام ١٩٤٢عندما أنشئت محاكم التفتيش، وهى محاكم كاثوليكية لمحاكمة المهرطقين. وتعنى كلمة السفارديم بالمعنى الحرفى "الأسبان". وعلى أية حال، فإن تلك المجموعة الأسبانية لم تستقم حالها أبدا مع حاخامات الأجودا أو أبناء المؤسسين الأوربيين . لأن هؤلاء المؤسسين أصروا على معاملة المهاجرين على أنهم "شرذمة ملونة" قذرون وجهلة بكل شىء، سوى تقاليدهم الخاصة، التى اعتبرها الأوربيون لا تستحق تعلمها. تستطيع أن تطلق على ذلك عنصرية، مثل الرجال الأمريكيين الذين لا يرغبون فى الخروج مع بعض الفتيات الأفريقيات بسبب لون بشرتهن الداكن.

والشىء غير الملائم هو أنه (على الأقل من وجهة النظر الأشكينازية) كان هناك الكثير جدا من هؤلاء السفارديم. فقد تم إحضارهم بمئات الألوف لآن إسرائيل كانت تحتاج إلى تكوين أغلبية يهودية، وعلى ذلك كانوا ينجبون أطفالاً أكثر من اليهود الأوروبيين. وبحلول السبعينيات، كانوا يشكلون غالبية اليهود فى إسرائيل أو كانوا قريبين من النقطة التى أصبحت عندها سلطات الحكومة وكذلك مكتب الإحصاءات الرسمية (كلاهما أوربى بالطبع) غير راغبين فى المزيد منهم. (لقد تبنوا فجأة المبدأ القائل: لا يهم من أين يأتى الناس). ولكن مناحم بيجين كان له رأى آخر. فقد أدرك أن أصوات السفارديم يمكن أن تصعد به (أخيرًا) إلى السلطة، وتنتشله من الضياع والتشرد إلى مقعد بن جوريون الذى شبه بيجن بهتلر كرئيس للوزراء.

كان بيجين بولنديا مثل البابا يوحنا بولس. ولكن إذا نظرت إليه فى الحملة الانتخابية سوف تقسم أنه قد ترعرع بين يهود المغرب الذين كانوا يأكلون الكسكسى. لقد أحبه السفارديم ووضعوه على القمة عام ١٩٧٧ وقام هو برد الجميل كأحسن ما يكون. وبدأ المتشددون السفارديم فى النهب من الخزانة (لمدارسهم الدينية وبرامجهم الاجتماعية) بنفس شراهة جماعة الأجودا أو ربما على نحو أكثر بشاعة. كما أنشأوا أيضا حزبهم السياسى الخاص لمنافسه الأجودا، ومن أجل امتصاص رحيق الدولة، الذى أطلقوا عليه اسم " شاس". ومن خلال زعيمهم الذى يتمتع بالكاريزما (عوفيديا يوسف، الذى كان يشجب أحد العلمانيين على رءوس الأشهاد، منذ بضع صفحات مضت) وعبر تجاهل العدل والديمقراطية، قاموا بهزيمة الأجودا بالضربة القاضية، وأصبحت قبيلة شاس مكتنزة اللحم من خلال الطعام الجيد.

هناك جماعة ثالثة من المتدينين ، على الأقل قادتهم ، ألا وهى قبيلة المستوطنين. ولكى أتوخى الدقة، هناك كل أنواع المستوطنين، بعضهم ملتزم "باستعادة الأرض" (بتعبير لطيف: وضع اليهود عليها) والبعض ملتزم بالإسكان الرخيص. قامت الحكومات المتنوعة بتقديم إغراءات متنوعة لتشجيع اليهود على الاستيطان فى الأراضى المحتلة، بينما كانت تخبر العديد من رؤساء الولايات المتحدة بأنها تقاوم الاستيطان. وهناك القليل من المستوطنين الذين انتقلوا إلى ما

وراء الخط الأخضر، لأنهم "هناك" يستطيعون البقاء محصنين ، فهى تربة خصبة لزراعة الأفيون، والاستماع إلى موسيقى "البينك فلويد" . ولكنك يمكن أن تطلق على هذه الحركة "متدينة"، وذلك ليس فقط لأن حماتها ومشجعيها يرتدون الطاقية اليهودية، ولكن لأن المشروع كلّه ينتزع قمم التلال من العرب، لكى يحيطها بالأسلاك الشائكة لحماية الجيتو الجديد. بينما يطلق عليها اسم أرض إسرائيل (أو إسرائيل الكبرى أو إسرائيل القديمة). وحينما لا يوجد أى إسرائيلى على بعد عدة أميال خارج الأسلاك الشائكة. ولا تستطيع أن تقود السيارة إلى مكان عملك (فى إسرائيل الفعلية) أو تشترى زوجًا من الجوارب دون حماية أورطة من الجيش، يكون ذلك، بالطبع، ممارسة للعقيدة، أى عملاً من أعمال الإيمان، لا يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه. إن قبيلة المستوطنين تشترك أيضًا مع قبائل متشددى الأرثوذكس الإشكيناز والسفارديم فى العادة الدينية المتمثلة فى الاستشهاد بالتوراة من أجل إخراس الألسنة كافة وجعلها تقوم فقط بإرسال النقود.

على أية حال، إن المستوطنين المتدينين بلا جدال هم الأكثر إثارة للمتعة. فبالنسبة إليهم، أين يعيشون ولماذا يعيشون ليس مسألة معدلات رهن عقارى أو شيئًا سهل التغيير، ولكنه بمثابة نافذة على معتقداتهم. وعندما تقترب منهم، سوف ترى أنهم يجمعون بين العديد من كل أنواع المعتقدات.

بعد ظهر أحد الأيام الساحرة والمثيرة للارتباك، فى إحدى المستوطنات الموجودة على قمة أحد التلال فى قفار الخليل ، فى مكان يدعى تكوا ، التقيت الزعيم الروحى الحاخام مناحم فرومان. وقد علمت أنه تخرج فى مدرسة الحاخام كوك الدينية، التى كانت تعتبر معقلاً لجماعة جوش إمونيم (كتلة الإيمان). التى كان أعضاؤها يمثلون المتعصبين الحقيقيين للتوراة. عندما سمعت للمرة الأولى عن الضفة الغربية. كما علمت أيضًا أن فرومان يدير الآن إحدى المدارس الدينية فى تكوا، حيث يوزع الطلاب وقتهم بين دراسة الشريعة اليهودية والواجبات العسكرية، وافترضت أن ذلك يقدم لى صورة ما عن طبيعة مواقفه. ولكن كان كل شىء فى هذا الرجل يدعو إلى الدهشة، بدءًا من مظهره الخارجى. إذا كان يمكنك أن تستخدم هذه الكلمة لتصف شخصًا يرتدى ثيابًا ترجع إلى

بولندا القرن الثامن عشر، فقد كان أنيقًا. كان رشيقًا خفيف الحركة وكانت خصلات شعره الفضية تنسدل على كتفى معطفه الأسود وكان يعيدها إلى مكانها بحركة رقيقة من أصابعه، مثل فتاة شقراء تمضى إلى المدرسة معجبة بشعرها. لم أتوقع استخدام هذه الكلمة، ولكن كان الرجل جميلا.

ولكنه لم يكن على المستوى نفسه حينما تحدث إلىّ، حيث بدأ بقصة عن والده الذى نظر ذات يوم إلى هذه التلال الصحراوية فى الخليل وسأله "مناحم، هل تراهما؟". وأجاب فرومان "أرى ماذا؟" أجابه والده "إبراهيم وإسحاق يمشيان هناك، هل تراهما ؟" كان هذا هو الطريق، من الخليل إلى القدس حيث اصطحب إبراهيم ابنه الوليد إسماعيل للتضحية به تبعا لأمر الله. ومع ذلك، لم يستطع فرومان رؤية النبيين كما فعل والده. أضاف فرومان "أصابنى الحزن والغم، لأننى لم أتمتع بالرؤيا التى رآها والدى". ولكن والدى قال لى "مناحم، لمدة ألفى عام لم أكن هنا". منذ ذلك الوقت فصاعدًا. ارتبط مناحم بهذه التلال. وكان فى الثانية والعشرين حينما ترك مدرسته الدينية بسبب حرب الأيام الستة. (كانوا فى مدرسة الحاخام كوك طلابًا وجنودًا، فى الواقع، الكثير من قوات المظلات). قال لى "كما تعلم، كلمة 'يشيفا' المدرسة الدينية اليهودية التى تعلم الشريعة اليهودية أو الهالاخا آتية من الكلمة العبرية "يجلس"، ولكن بعدما عدنا من الحرب، كان من الصعب أن نجلس". وعلى ذلك، واحدًا بعد الآخر، قام الفتيان بالرحيل لبناء المستوطنات، ومن أجل "استعادة الأرض" فإنهم الآن المؤسسون.

حينما تحدث فرومان عن هذه الأرض، كان حديثه مليئا بالحب. (لقد ترك مدرسته الدينية لأنه "سمع نداء الحب"). وقام وزوجته بنشر ديوان شعر يحتوى على قصائد حب للأرض. قال إن الحب هو السعادة، ولكن المتاعب والقلاقل والمشاحنات، كذلك، التى تمثل الصراع على هذه الأرض، هى عن الحب أيضًا، وقال إن العرب يدعونها "دار السلام"، لأنها أرض الله. وفى الإسلام، "السلام" هو اسم من أسماء الله الحسنى. وانتقل إلى كلمة عربية أخرى وهى "الحق"، التى يمكن أن تعنى العدل أو الحقيقة، وهى اسم آخر من أسماء الله الحسنى. ومرة أخرى وافق على ذلك، لأنه يرى أن الله والحق هما شىء واحد. وقال فرومان إنه

درس الإسلام عشرين عاما، وإنه ليس لديه، ولا يستطيع أن يزعم كيهودى أن لديه هذا الشىء العظيم: "ليس لدىَّ الله أو الحق، وهم ليس لديهم الله أو الحق. ولكن الله يوجد بيننا". وقال إن هدفه فى الحياة هو إذابة هذه الفوارق.

سألته مرتين، مع افتقارى الصادم إلى الجانب الخفى فى الموضوع، ماذا يفترض أن يحدث للعرب، إذا قام اليهود بالسيطرة على كل "أرض السلام"، على سبيل المثال الناس الموجودون بالقرية الفلسطينية فوق التل المجاور، فى بلدة تدعى أيضًا "تكوا"؟ أجاب فرومان بنبرة ساخرة وقد علت الابتسامة وجهه، قائلاً "إذا أرادوا أن يحتفظوا باسمها، فليفعلوا". ومن أجل تعزيز رسالته، طلب منى أن أنظر حولى بينما أغادر المستوطنة وأصلى لعلّى أرى ما رآه والده. إبراهيم وإسحاق. وأضاف "إننى لا أعلم ما إذا كنت ستفعل، ولكننى أعرف أين يمكنك البحث عن الله. إنه هناك، فى مكان ما بين تكوا الخاصة بهم وتلك الخاصة بنا". وأجاب على كل الأسئلة التى طرحتها عليه بالقول "هذه المناقشة يمكن أن تستغرق يومين". ولأننا ليس لدينا يومان، حكى لى كيف أنه ذهب للحديث والصلاة مع الشيخ أحمد ياسين. الزعيم الروحى لحماس، وكيف كان يذهب لزيارة صديقه ياسر عرفات. وفى آخر مرة زاره فيها وجد لديه محمود عباس الذى سرعان ما أصبح رئيسًا للوزراء، وسرعان ما ترك المنصب والذى قال لعرفات "إننى سعيد بمشاهدة صديقك مناحم هنا". وسرعان ما أجابه عرفات "إنه ليس صديقى، إنه أخى". أحب فرومان ذلك. ووجد متسعًا من الوقت لكى يقص ذلك علينا مرتين. كما كان لديه متسع من الوقت لكى يسألنى: هل تعرف جماعة تسمى "كنيسة التوحيد"؟ كانت لديه دعوة لإلقاء خطاب هناك فى نيويورك. وبالمناسبة سمعت أيضًا عن جماعة "القمر المبجل".

قمت بزيارتين إلى شمال الضفة الغربية، فى تلال السامرة، مع راعية الحركة وعمدة مستوطنة تسمى " كيدوميم". وتدعى دانيلا فايس. لم يكن لدى أية مشكلة هناك مع المحتوى الباطن. كنت خلفها بخطوتين، لا أفارقها، حيث بدأت جولة خاطفة (كل شىء تفعله بسرعة) لمستوطنتها. أشارت إلى أنه لا توجد أسلاك شائكة، فهى لا تؤمن بها، ولا تحب الإحساس الذى تولده داخل المستوطنة. ومن خلال رؤية قائد عسكرى محنك إلى الأرض والتكتيك، أوضحت

كيف أن المستوطنة تسيطر على السهول الواقعة تحتها والطريق الرئيسى من وإلى مدينة نابلس. وهذه حقائق والحقائق تخدمها. وهى تجعلها على أهبة الاستعداد. على سبيل المثال. حقائق الميزانية الإسرائيلية. التى (حيث تذكر ذلك على أنه حقيقة) لا تكفى المستوطنين. أو حقائق التوراة التى تدرسها كل يوم. وفى منزلها تتبع التعاليم اليهودية فى أنه لا يجب تناول الطعام دون تلاوة التوراة. وهذا ليس من أجل الاحتفال بقدسيتها أو أسرارها. ولكن من أجل أن تتعلم ماذا تفعل. ولأنها حينما تواجهها مشكلة ما (والمشاكل الجسيمة فقط هى التى يمكن أن تعرقلها) فإنها ترغب فى فعل ما فعله إبراهيم وإسحاق ويعقوب (أو سارة وراشيل وليا). "إن هذا هو ما يلهمها الصواب اليوم وكل يوم.

على سبيل المثال. كما قالت. كانت سارة هى التى أرسلت هاجر زوجة إبراهيم الثانية وابنها إسماعيل إلى الصحراء (وخارج عالم التوراة). واعتبرت دانيلا ذلك مثالا يحتذى يدل على أن المرأة يمكنها، ويجب عليها. أن تتخذ أهم القرارات. وفى قصة الخروج (أى الخروج من مصر، وليست السفينة التى أبحرت من هوليود) حينما حنث رجال إسرائيل بعهدهم مع الله، كانت النساء هن من منحن اليهود القدرة على الوصول إلى أرض الميعاد. وعلى ذلك فقد منحن المستوطنة وحركة الاستيطان العقيدة والعزيمة. وعلى ذلك. فإن ما تمنحه إلى كيدوميم وإلى حركة المستوطنة هو الإيمان والعزيمة، التى لديها منهما مدد عظيم. يمكنك أن تلقى نظرة عليها فى مكتب البلدية. إنها امرأة ضئيلة الحجم، ولكنها تجلس منتصبة القامة فى مقعدها، ويداها فوق المكتب، وعيناها تشعان بالبريق تحت كاب يخفى شعرها ، وفى الحال سوف تعرف أنها فى المكان المناسب. إن هذا المكتب الضخم. والمبنى الذى يحتويه والذى هو فقط منزل مقطور وكل المكاتب وآليات دولة إسرائيل وحكوماتها والجيش. كلها قابلة للزوال. بينما تبقى دانيلا فايس.

هذه هى الحقائق التى تتحدث عنها والتى تمنحها السعادة والفخر. وقبل كل شىء، فإن الله وليست عزيمتها هو الذى منحها القوة التى دفعتها للتحرك من منزلها المريح فى ضواحى تل أبيب إلى تلال السامرة. كان السبب التقريبى لذلك هو حرب يوم كيبور (أو عيد الغفران). التى اعتبرتها حوارًا مباشرًا بين الله

وشعب إسرائيل". وقد اعتبرتها إنذارًا وأمرًا إلهيًا لاستعادة الأرض والاستحواذ عليها "بكل جسدك وبكل روحك وبكل قوتك". ورغم ذلك، كان زوجها منهمكا فى تجارة الماس واعتقد أصدقاؤها أنها قد أصابها مس من الجنون، حيث انغمست فى الأمر حتى أذنيها. (أنا أعلم أن التشبيه خاطئ هنا، ولكننا فى أمريكا نقول عن ذلك انغمست كالخنزير). قالت "لا أستطيع أن أقول لماذا، ولكننى أردت أن أنغمس فى أمر ما على أعمق نحو ممكن. فأنا أرى أن الفعالية لا تتمثل فى أن تقول للناس ما يجب أن يفعلوه. فيجب أن أفعل ذلك بنفسى، إنها شىء عال جدًا (أعتقد أنها قصدت أن تقول: شىء عظيم) "ولكننى لا أستطيع أن أتوقف عن العمل يومًا واحدًا. ولأننى أعتقد أن الأمة تحتاج إلىَّ، فإننى يجب أن أعمل من أجل دولة إسرائيل".

إنها لا تستطيع أن تتنحى، وتدع الآخرين ، حتى أولئك الذين يحتلون المناصب العليا يقودون الدولة اليهودية. إنها تعرفهم جميعا وتعرف أنهم ليس لديهم إيمان. لقد تحدثت حديثًا مطولاً مع إرييل شارون للمرة الأولى منذ 25 عاما. وفى ذلك الوقت، كان قائدًا عسكريًا مسئولاً عن إخراج المستوطنين اليهود من سيناء من أجل أن تستطيع إسرائيل إبرام الاتفاقية مع السادات. وفى ذلك الوقت أيضًا، أخبرت شارون ، أو حاولت أن تخبره أن عليه أن يدرس التوراة فى كل يوم، وأن يتعلم أن تدعها ترشده كل يوم. فلماذا يجب على إسرائيل أن تخرج اليهود من أرضهم؟ هل من أجل الرأى العام العالمى؟ وماذا عن إبراهيم أول يهودى وأبو الجميع؟ كما تقول دانيلا: "كان يقف فى جانب، والعالم كله فى جانب آخر ضده".

إنها تعلم أيضا أن شارون سمعها جيدًا، ولكنه لم تكن لديه الرغبة فى إعادة صياغة حياته. وتحدثا مرة أخرى، منذ نحو عام، حينما تسلل مسلح إلى مستعمرة مجاورة لكيدوميم، وهو إلون موريه، وقتل زوج ابنة دانيلا. وقد هاتفها شارون رئيس الوزراء لكى يقدم لها تعازيه.

قالت عن تلك المكالمة إنها " كانت نوعًا من الاعتراف. فقد قال لها 'إننى أتذكر ما أخبرتنى به فى لقائنا الأول منذ أعوام بعيدة. لم أفعله. والآن لا أستطيع العمل بهذه الطريقة. فأنا أبعد ما أكون عن ذلك الآن'".

إنها لا تعتبر شارون أسوأ من الآخرين الذين تعاملت معهم. وكلهم رجال سياسة. إنهم يعيشون فى أمان داخل سياج من الأمن داخل الخط الأخضر. ومن حيث العقيدة، فإنهم جميعا فى المركب المثقوب نفسه. وأكد لها هذا ما كانت تفكر فيه منذ ثلاثين عاما: إن الأمر يعود إليها ، فلن يفهم الآخرون ذلك. تقول "إننى أعيش ذلك كل يوم. أما هم فلا يفعلون".

وأنا أرى أن هذا دليل آخر على أن المستوطنين يحتاجون إلى مكان فى قائمة القبائل الجديدة فى إسرائيل. وذلك لأنه يسود بينهم شعور بأن الآخرين الإسرائيليين غير قادرين على الفهم. وتتمثل الخطوة التالية فى التضحية. ويمكن فهم المزيد. إذا تطرقت إلى موضوع أن رفاهية ومستقبل إسرائيل يعتمد إلى حد كبير على معاملتها للمجموعة التى تنتمى إليها. يجب عليك فقط أن تحاول إقناع نفسك. لأن هذا أيضًا أحد معتقدات هذه النظرية القبلية الجديدة، إن كل قبيلة تعظ نفسها.

إذا استعرنا اسمًا لهذه الظاهرة من علم الطبيعة فإننا يمكن أن نطلق عليها "نظرية التشتت العظيم". وأنا لا أستطيع أن أنسب إليها أى فضل. وقد قام متحدثان عظيمان، ربما لم يتحدثا من قبل إلى بعضهما البعض، بالحديث معى عن القبائل الجديدة فى إسرائيل وذلك فى الأسبوع نفسه الأول، زميل يدعى إلياكيم هاتسينى وهو صحفى يمينى وكاتب عمود وصاحب برنامج "توك شو" على شاكلة برامج "راش ليبماو" فى السياسة الصهيونية. وكان مسرورا للغاية بهذه القبائل الجديدة. تحدث عنها وكأنها من عند الله أو كأنها دليل جديد على عبقرية الشعب اليهودى.

لم أسأله عن ذلك. فأنت غير مضطر إلى سؤاله. جلسنا فى أحد المقاهى العتيقة بالقدس، وعلى الفور أطلق لنفسه العنان. كان أول ما نطق به هو معجزة وعبقرية المهاجرين الروس الجدد. قال إن "هناك العديد من الأشياء فى إسرائيل تحدث توازنًا أفضل. هل تعلم أن هناك قناة تليفزيونية جديدة تبث برامجها باللغة الروسية هذا الأسبوع؟" إنها ليست قناة كابل. ولكنها قناة بث. كما أن لديهم صحفهم الخاصة ومجلاتهم. والرحلات الجوية بين موسكو وكييف وتل أبيب لا تتوقف. القادمون الجدد يمكن أن يحملوا جوازى سفر أحدهما إسرائيلى

والآخر روسى. وهذا شىء رائع! لقد أتى مليون يهودى من روسيا. " يقول الناس أنهم ليسوا يهودًا. ولكن هل تعلم أن هناك خمسمائة أسرة روسية تعيش الآن فى مستوطنة كريات أربع؟.

يعيش هاتسينى أيضا فى مستوطنة كريات أربع التى تقع أعلى تل يشرف على مدينة الخليل الفلسطينية. وفى تصوره أنها معقل المخلصين للتوراة. وهو يرى أن اليهود يجب أن يكونوا كذلك. لقد تأهبت لطرح سؤال عن الانفصام الحادث بين اليهود المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل، واستخدمت كلمة (طائفى).

أصابته الدهشة قائلاً "طائفى؟ لا إنه ليس طائفيًا ولكنه قبلى. فالمجتمع منقسم إلى قبائل (أو عشائر). فهناك على سبيل المثال قبيلة "رمات هاشارون". وهذا اسم ضاحية راقية شمال تل أبيب. وما يعنيه هو حشد من الأوروبيين وأرستقراطيى حزب العمل القدامى. وقد اعتادوا إدارة كل شىء. الآن (على الأقل فيما يتعلق بالسياسة) هم خارج الصورة. وهذا ما قصد به "التوازن الأفضل" وسبب سعادته بوجود العديد من القبائل الأخرى.

"ولديك قبيلة الروس، وأنت تعرف قبيلة اليسار القديم التى تصرخ دائما من أجل الفلسطينيين، وقبيلة المستوطنين التى تفعل العكس دائمًا، وجناح اليمين القديم المتعاطف مع المستوطنين وقبيلة المتشددين أو الحريديم".

لقد وضع المتشددين الأرثوذكس جميعًا فى سلة واحدة، ولكن تبعًا لرؤيته القبلية لا تمثل تقاليدهم شيئًا مهما. "فكل الحريديم قد انزلقوا جميعًا إلى الدائرة السحرية للدولة الصهيونية. وعلى ذلك فإن الحياة فى البلد كله أصبحت أكثر تدينًا هل تعلم أن نصف مليون شخص زاروا مقبرة سارة فى الخليل؟ فى العام الماضى، فى عطلة "عيد السوكوت" انطلقت الحافلات فى الرابعة صباحًا فى كل أنحاء إسرائيل لنقل الناس إلى الخليل من أجل صلاة الفجر". فالحريديم أكثر انغماسا فى ذلك. فلا تستطيع أن تعرف أين تنتهى أرض إسرائيل التوراتية وأين تبدأ أرض إسرائيل الصهيونية. لقد التقيا عام ١٩٧٦ فى مدينة القدس القديمة. وهما يلتقيان الآن فى الخليل وفى كريات أربع. هل تعلم عدد دارسى

الشريعة اليهودية، فى أوج ازدهار اليهود، فى نهاية القرن التاسع عشر تقريبًا، كانوا أقل ممن يدرسون لدينا فى المدارس الدينية الآن. إنه أمر رائع".

أما ما أسعده أيما سعادة فهو القوة المتصاعدة لقبائل اليمين. "ما تراه من روس ومستوطنين/جناح اليمين وحريديم. هو ثلاث قبائل مجتمعة معًا لضرب اليسار".

بعد أيام قليلة. كنت فى أحد أبراج تل أبيب الإدارية، وهو مغطى بشرائح الصلب المصقول ، والمستخدم للتكنولوجيا العالية، حيث يقع مكتب إيتان هابر. وهو صحفى سابق مارس السياسة فى عهد إسحاق رابين. حيث كان يكتب له الخطب ولا يكاد يفارقه، بينما كان رابين رئيسا للوزراء ويحاول صنع السلام. وهو يعمل الآن مستشارًا لسياسيين آخرين أو للشركات التى تحتاج إلى مهارته صائغًا للأفكار. ويجزلون له العطاء. جئت إليه كى أسأله عن التغييرات الحادثة فى المجتمع الإسرائيلى. ولكن لا شىء مما ذكرته كتغيير، مثل الاتفاق العام على استحالة تحقيق السلام والرأسمالية الشرسة والجنرالات السابقين الذين يديرون كل المؤسسات الكبرى، كان مفاجأة له.

قال لى " انظر. المشكلة الحقيقية هى تفكك المجتمع وتحوله إلى قبائل". تركنى أدون ما قاله وواصل حديثه بحنكة مراسل محترف يملى قصة على سكرتارية التحرير، قائلاً:

" أولا. لديك نحو مليون إشكينازى ولدوا فى إسرائيل لعائلات أوروبية أو أرستقراطيى 'رمات جان'" ها هو يستخدم اسم ضاحية راقية أخرى. ربما لأنه يعيش بالجوار. إنها قبيلته ولذلك لا يستطيع تجاهله. "إنهم المفكرون ورؤساء شركات التكنولوجيا العالمية وقواد الجيش وهم ينظرون بازدراء إلى باقى المجتمع".

" ثانيا، الروس أيضًا يشكلون نحو مليون شخص. وهم يعيشون فى جيتو خاص بهم، ولديهم مسارحهم وصحفهم وتليفزيونهم ومتاجرهم. إنهم لا يحتاجون إلينا،

إنهم يعيشون فى موسكو صغيرة مثل الحى الصينى. إننا نعلم أن الكثير منهم ليسوا يهودًا، ولذلك لم نرحب بهم بأذرع مفتوحة وقلوب دافئة. فقط بعد خمسة أو ستة أعوام من مجيئهم، اكتشفنا أنهم أحضروا لنا الكثير من الذكاء. إنهم الإنتلجنيسيا الجديدة".

ثالثا، الإسرائيليون العرب، الذين يبلغ عددهم أيضًا نحو المليون، لهم أيضا الجيتو الخاص بهم. وهم لديهم أيضا صحفهم وتليفزيونهم وسياستهم الخاصة. إنهم يعيشون فى نازاريت أو فى قراهم، معزولين منذ الانتفاضة الأولى. فلم يعد هناك يهود يأتون إلى هذه القرى.

رابعا، المتشددون ويبلغ عددهم أقل من مليون. لهم أيضًا صحفهم وأربعون أو خمسون محطة إذاعية وليس لديهم تليفزيون لأنهم لا يشاهدونه. إنهم لا يرغبون فى النظر إلينا. ولا يتصل بهم أحد.

خامسا، المستوطنون ويبلغ عددهم ربع مليون. وهم ليسوا متشددين بالضرورة، ولكننى أطلق عليهم المتدينين المحايدين أو "البارف" (وهو الطعام الذى لا ينتمى إلى اللحوم أو إلى منتجات الألبان). وأستطيع القول، لسوء الحظ، إنهم ينظرون إلينا كبلد مختلف. إنهم يقولون "إننا نقاتل الإرهاب. إننا نغامر بأطفالنا. وأنتم تكرهوننا وتلعنوننا وأنتم فى طريقكم إلى الريفيرا الفرنسية".

سادسا، والأكثر خطورة (والأكثر عددًا) السفارديم، الذين جاءوا من دول عربية. إنهم الطهاة والسائقون والعمال. إنهم الأكثر خطورة على حياة إسرائيل لأنهم قبليون تماما. إن سياستهم كلها تنصب على أخذ نصيبهم من الكعكة وأوضح مثال لذلك شاس.

حينما انتهيت من تدوين ما قال، سألت هابر لماذا هم بهذه الخطورة؟ وبالطبع كانت الإجابة تتحدث عن القبلية، غالبًا عن قبيلته هو.

" إننى أرى أن هذا المجتمع مثل طائر الفلامنجو. أعنى أنه يقف على ساقين نحيلتين جدا. وكل الحمل على أكتافنا. فالضرائب والاقتصاد وقيادة الجيش، جميعها تقع على عاتقنا. فما مدى ما يمكن أن نتحمله؟ نعم هناك الكثير من المغاربة الذين يذهبون للقتال ويلتحقون بالجيش. ولكن من يقود الطائرات ؟ إنهم

الإشكيناز. إننا يجب أن ندفع الضرائب. إنهم لا يدفعون ولا يعملون. فالعاطلون عن العمل هم من المتشددين أو العرب أو الروس (وهذه غلطتنا. فهم يرغبون فى العمل) ولكننا ندفع لهم جميعا. المتدينون المحايدون، الآن يتقدمون الصفوف فى الجيش، لماذا؟ لأن قبيلتى ليست متلهفة على القتال من أجلهم على تلال الضفة الغربية وغزة (يهودا والسامرة). وهذا أكبر خطر يهدد إسرائيل، على الرغم من أن لا أحد يعلم شيئًا عن ذلك".

عندئذ فقط، بفظاظة ودون سابق إنذار، أخبرته أننى سمعت تحليلاً مشابهًا، قبل أيام قليلة، من إلياكيم هاتسينى. مسكين هابر. أعلم أننى أفسدت يومه ولكن كان علىَّ أن أشكره كما شكرت هاتسينى، لأننى أعتقد أن كليهما على حق. تستطيع أن ترى فى أول أسبوعين لك فى البلاد أن المتشددين لا يتحدثون إلى العلمانيين والعلمانيين لا يتحدثون إلى المستوطنين. والروس لا يتحدثون إلا إلى الروس وهكذا دواليك. وسواء كنت سعيدًا بذلك مثل هاتسينى، أو مهموما بذلك مثل هابر، فهذا أحد الأشياء الكبرى التى حدثت لإسرائيل. كانت هناك دائما تصدعات والآن فإنها تتسع وتتشعب. ولكننى أرغب فى معرفة لماذا حدث ذلك وماذا يعنى؟

لقد جاء بعض هذا التشرذم والقبلية من الخارج. من مجتمعات غربية أخرى. فالدولة الصهيونية كان دائما لديها نوع من المحاكاة فى بنائها الاجتماعى. والصهيونية نفسها كانت فقط نسخة يهودية من أممية أوروبا القرن التاسع عشر، تمامًا كما كانت الصهيونية العمالية نسخة مشوهة وممسوخة من الثورة الاشتراكية فى أوربا الشرقية. ومن أجل تجنب الهجوم، يمكنك حتى القول بأن المؤسسين الأوائل كان عليهم عمل خلطة سريعة من الاثنين، يمكنك أن تطلق عليها الاشتراكية الأممية. ففى ملصقات (بوسترات) الصهيونية القديمة، كان اليهودى الجديد يبدو مغامرًا ورياضيًا، أشعث الشعر، ذا أنف معقوف وعينين زرقاوين ممتلئتين بالحنين إلى أرض الأجداد، وباستثناء البنطال الجلدى، فقد كان يبدو مثل الأمانى الجديد. أما هذه الأيام، فتأتى آخر الصيحات من أمريكا. وعلى ذلك فى العقدين الآخرين، أصبحت التعددية الثقافية فى الطليعة. وأصبحت هناك هرولة نحو الأسماء المركبة مثل: إسرائيليين أمريكيين،

وإسرائيليين روس، وإسرائيليين عراقيين. وإسرائيليين فلسطينيين. ولكن سواء كنت تفضل هذه الصيحة أو تلك، فإنها لا تدعو إلى الوحدة.

ولا يزال هناك سبب أعمق (ومحلى) لهذه الصيحة القبلية والدور الذى سمح لها بأن تلعبه. ربما أرى الأمر على نحو أكثر حدة. لأننى عدت إلى إسرائيل بعد سنوات عديدة، ولم أشهد التطورات التى حدثت خطوة خطوة. ولكن يبدو بوضوح (فى الواقع، على نحو صادم) أن وظيفة ومنطق هذه القبائل هو الحصول على أكبر قدر ممكن من الغنائم لأعضائها وليذهب الآخرون إلى الجحيم. وشاس غالبًا هو الملوم على ذلك، حيث إن هذا الحزب قد تأسس بهدف الحصول على أكبر قدر من الكعكة، ولكنه لا يخفى ذلك. وكل هذه القبائل التى ذكرها المتحدثان العظيمان، شرهة إلى الاغتراف من الخزانة، مما يضع البلد فى أزمة مالية دائمة. ولا أحد يهتم بآلية الحصول على هذه الأموال. أو كيف ينظم ذلك. على سبيل المثال، المدارس الدينية فى المستوطنات تمتص ميزانياتها من ميزانية الدفاع (لأنها كما تعلم تقوى نسيج الأمة). فَوِّر أن تحصل على بغيتك، عليك الاعتناء بنفسك. المشكلة فى المتشددين هى أنهم يأخذون المال العام لكى يهاجموا الدولة أو لكى يرغموها (وبقية اليهود الذين يعيشون فيها) على اتباع تعاليمهم. الآن يحدث العكس، فهم يأخذون المال العام وينفقونه فى عزل أنفسهم عن الأمة ، فلهم أحياؤهم ومنشآتهم ومدارسهم ومستشفياتهم ومحطات إذاعتهم التى استولوا عليها بالقرصنة ودور نشرهم وحافلاتهم ناهيك عن مراكز القوى والتدليل الخاصة بهم داخل الحكومة، التى لا يستطيع أن يمسها أحد. وبالطبع فهم لا يرغبون فى الاستماع إلى أى شخص آخر من خارج جماعتهم، فهم يخافونهم ولا يثقون بهم ويعملون ضدهم.

لقد انتزعت نصيبى لى ولشعبى لأننا لدينا القوة التى تمكننا من الحصول عليه والاحتفاظ به.

ما هذا، أليس هذا منطق الاحتلال ؟ مرة أخرى. لقد بدأ ذلك مع العرب، ولكنه ارتد إلى اليهود عبر الخط الأخضر.

إننى لا أطلب منكم أن تتخيلوا بعض الأمراض الفيروسية الناجمة عن انحلال أخلاقى. أو انتشار غامض للجراثيم. مثل البخار المتصاعد من كرات اللحم

السويدية، عبر الخط الأخضر نحو تل أبيب، ولكننى أتحدث عن شىء يراه الجميع. وحين أنحى باللائمة على الاحتلال فى تمزق هذا المجتمع، فإننى أتحدث عن سياسات الحكومة الإسرائيلية المعلنة. انظر على سبيل المثال ، كما فعل كل من هابر وهاتسينى، إلى قبيلة الروس، وسوف تكتشف أن هناك سياسة متعمدة صنعت هذه القبيلة.

إن إسرائيل لديها مشكلة، وهى ليست مشكلة هينة، ولكنها أزمة كبرى. (وحينما يجرؤ الإسرائيليون على الحديث عنها، فإنهم يطلقون عليها " القنبلة الزمنية"). فى عام ١٩٦٧ قام الجيش باجتياح كل أرض إسرائيل الكبرى، "إرتس إسرائيل" أو "إسرائيل التوراتية"، سمها ما شئت، وظلوا طوال ما يقرب من ربع قرن متمسكين بها. والمشكلة هى كما هى دائمًا أنها مليئة بالعرب، الملايين منهم. والمشكلة الوشيكة أو "القنبلة الموقوتة" التى يتهامسون بشأنها هى حينما تجىء اللحظة التى يرى فيها اليهود العرب وقد اندفعوا نحوهم حينما يصبحون أغلبية فى هذه الأرض. البعض يقول إن ذلك سوف يحدث خلال عشرة أعوام. والبعض يقول إنه حدث بالفعل. ولكن لا أحد يستطيع أن ينكر أنه سوف يحدث. تستطيع القول بأنهم نسوا ما أدركه الكنيست وهو إما أن تكون لديهم دولة أكبر أو دولة يهودية. أما الآن فإنهم يحاولون الحصول على الاثنين معًا.

حينما تنظر إلى المسألة، سوف تجد أن هناك ثلاثة خيارات فقط جميعها ليست سهلة. فهم يستطيعون التخلى عن الأراضى المحتلة - يودعون الأرض والعرب ويرحلون - ولكن هذا يعنى بالطبع القتال مع يهود آخرين وهم المستوطنون ولا أحد يرغب فى ذلك. أو يمكنهم التمسك بالأرض ومحاولة قتل أو طرد بضعة ملايين من العرب، وهذا كابوس نازى ودعائى، لا يزال يراود البعض. أو يمكنهم الاحتفاظ بالأرض والسكان والحكم بقبضة حديدية عبر سياسة التمييز العنصرى، أى أن الأغلبية لا تكون لها حقوق سياسية. وهذا الاختيار هو الحادث الآن تبعا للأمر الواقع.

ولكن فى هذه الحالة، مات صاحب الأرض بالفعل وكلبه أيضًا، حيث حدثت المعجزة وانهار الاتحاد السوفيتى، وتدفق المهاجرون من الاتحاد السوفيتى الذى تحول إلى خراب وأصبحوا لا يستطيعون تحمل المزيد من المعاناة.

ولكى نوجز الموضوع. فإن إسرائيل ذهبت للتسوق واشترت مليونًا منهم، وأحضرتهم إلى الوطن بطائرة. لم تكن هذه فقط سياسة معلنة، ولكنه كان انتصارًا مجيدًا نفخوا من أجله الأبواق. مليون يهودى جديد! فجأة. خفتت دقات القنبلة الموقوتة.

بالطبع تطلب ذلك بعض التعديلات الصغيرة. فالأمر يتطلب ثروة لتوطينهم فى الأرض المقدسة، بعد أن تطلب الأمر الكثير من الحيلة والتدليل للمجىء بهم، ولكن ماذا تعنى بضعة مليارات بين الأصدقاء ؟ أيضا الكثير منهم ليسوا يهودًا، ولكن ماذا يهم ذلك إذا كان أجدادهم قالوا لهم إن أمهاتهم فى وقت ما كن يهوديات؟ كانت هناك حقيقة غير لائقة. وهى أنك لا تستطيع أن تحاول أن تجعلهم يهودًا أو إسرائيليين، على سبيل المثال، من خلال حشرهم شهورا فى فصول تعلم العبرية و"الحياة اليهودية" كما فعلت إسرائيل بالنسبة للمهاجرين فى الماضى. فإذا حاولت القيام بذلك مع هؤلاء القوم، فلن يأتوا. هناك شىء واحد تعلمه الروس بعد ما يقرب من ثمانين سنة من الحكم الشيوعى، ألا وهو كيف تنتزع نفسك من براثن "النظام". لقد جعلوا الوكالة اليهودية والدولة اليهودية تعمل مثل المضخة.

وعلى ذلك، فجأة وعلى غير انتظار. أصبح لدى إسرائيل نظام جديد "للامتصاص". فكل المعسكرات وحجرات الدراسة وكل الأحاديث الصهيونية والرحلات الميدانية عن التاريخ الإسرائيلى أصبحت جزءًا من التاريخ. تم استبدال بالنظام القديم نظام "الامتصاص المفتوح" أو "امتصاص السوق" بمعنى الكثير من المال ولك مطلق الحرية فى أن تفعل به ما تشاء. هل ترغب فى شراء سيارة ؟ هل ترغب فى شراء شقة ؟ هل ترغب فى شراء شقة فى موسكو واستئجار أخرى فى إسرائيل ؟ افعل ما شئت. العبرية؟ ليست مشكلة. هل تستطيع أن تقول "شالوم"؟ يكفى ذلك، تمتع بحياتك! ولا يثير العجب أن الروس يتحدثون إلى الروس فقط، فهم الوحيدون الذين يمكنهم الحديث معهم. وفى غضون ذلك يتعلمون القليل من العبرية فى الجيش.

ما حدث هو أن الصراع تطلب المزيد من اليهود. وإذا رغبوا فى أن يصبحوا قبيلة مستقلة. فلا مانع من ذلك، فالحياة هكذا فى الشرق الأوسط. وبعد كل

هذه السنوات من الجدال بشأن: من هو اليهودى؟ أصبح الجميع يعلمون أن هؤلاء ليسوا بيهود. فقد كشفت آخر دراسة لوزير شئون الدياسبورا (اليهود الموجودون فى الخارج) عن المهاجرين القادمين من الاتحاد السوفيتى خلال عام ٢٠٠٠ أن ثلثيهم (أى اثنين من كل ثلاثة) ليسوا يهودًا.

على أية حال، من يحتاج إلى هذه الدراسة؟ لقد أصبحت الأسواق فى تل أبيب تعرض احتياجات الروس، وأصبحت لحوم الخنزير معلقة فى المتاجر واللافتات (بعضها بالروسية فقط) مزينة بالخنازير الراقصة، ولم يقم الحاخامات بإلقاء الحجارة.

ما حدث هو أنه بعد أن تم جلب الأرثوذكس إلى حلبة إلى الصراع، ديانة الدولة، أصبح السؤال القائل: من هو اليهودى ؟ لا يهم كثيرا. أصبح السؤال الآن ما هو الصالح لليهود، أو ما هو الصالح لما يرغب اليهود فى فعله بدولتهم اليهودية.؟ كان الروس صالحين للصراع: فسرعان ما اكتسبوا سمعة مدوية باعتبارهم أكثر الجنود وحشية فى جيش الدفاع الإسرائيلى عند نقاط التفتيش. فالمكان الذى جاءوا منه كانت فيه السلطة متوحشة، والآن لديهم السلطة، أو هم السلطة. أو يمكنك تلخيص الأمر على نحو آخر من خلال القول بأنه لا يهم إذا كان الروس يهودًا أو لا، لأن مهمة إسرائيل تغيرت مرة أخرى، من إنقاذ الشعب اليهودى إلى إنقاذ الاحتلال الذى تقوم به الدولة اليهودية.

شقراء ذات عينين زرقاوين واسعة وأنف صغير، بدت مثل مارلين مونرو اليهودية أيضا. بالطبع، رحلت مارلين وهى يهودية أيضًا. والواقع أننى لم أر سوى شمعدانها وهو يباع بالمزاد العلنى. جاءت دكتورة آنا كازاكوفا إلى إسرائيل عام ١٩٩٩ من منطقة كومسومولسك فى أقصى شرق روسيا. فى وطنها القديم كانت تمارس طب الأطفال وكانت أمًا لفتاة وفتى هما آنيا وألكس، ولكنها منذ هجرتها لم تمارس مهنتها. فكل شىء تغير فى إسرائيل.

الواقع أن التغيرات قد بدأت فى حياتها قبل أن تهاجر من روسيا. حينما توفى زوجها الطبيب بسبب مرض التهاب الكبد الذى أصابه فى أثناء عمله فى المستشفى. وعلى ذلك أصبحت أمًا وحيدة فى مكان لم تشعر بالانتماء إليه حيث نقلت السلطات الشيوعية أسرتها إلى مكان ناء فى أقصى الشرق فأصبحت متلهفة على الرحيل.

لماذا إسرائيل؟ لسبب واحد وهو أنها تستطيع الذهاب إلى هناك، كما تستطيع الحصول على المساعدة. وعلى ذلك قال لها أحد العرافين، الذى قرأ لها الطالع، "يجب أن تكونى فى إسرائيل" وربما كان يعمل لدى الوكالة اليهودية لأنه عرض عليها أن يقدمها لممثلى الوكالة. ولكن هذا لم يخطر على بال الدكتورة آنا. ففى تلك الأيام كان الشك رفاهية لا تطيقها. وقبل كل شىء يمكنها القول بأنها كانت يهودية أو أن عائلة أمها ربما كانت كذلك قبل قدوم البلاشفة.

ولكن كان السبب الأساسى، هو ابنتها آنيا. فقد كانت منطقة كومسومولسك قارسة البرودة، ولم تكن آنيا فتاة قوية، أو ربما لم تستطع الدكتورة آنا تحمل الشتاء الروسى القاسى مع اعتلال صحة طفلتها. وهى كأم، كانت مبالغة فى الاهتمام بحماية طفلتها (وخاصة بعد وفاة والدها) وقد ضحكت قليلاً الآن، وهى تتذكر أيام عملها طبيبة، حيث كانت تخشى من أن ينتقل أى مرض رأته فى المستشفى، إلى ابنتها. كانت آنيا فى الرابعة عشرة من عمرها، شقراء تشبه أمها كثيرًا (التى أرتنى صورها بفخر على مائدة المقهى) حينما منحتها الوكالة اليهودية أوراق الهجرة وتذاكر الطائرة ومبلغًا من المال، مع كتيب عن التقاليد اليهودية (التى لم تكن تعرف عنها شيئًا، ثم طارت عائلة كازاكوفا لكى تعيش حياتها الجديدة فى تل أبيب.

لم يكن الأمر سهلاً. كانت غريبة ووحيدة وكان أمامها الكثير من العراقيل التى يجب عليها تجاوزها قبل أن تستطيع العمل طبيبة هناك. ولكنها رأت أن الجو كان مناسبا لآنيا، التى تفتحت كالزهرة فى هذا الطقس الدافئ الجميل. أصبحت فتاة عصرية، إسرائيلية، وليست نزقة أو مستهترة، فلم تكن والدتها لتسمح لها بذلك ولم تكن تلك طبيعتها. ولكن صور آنيا تظهر فتاة فى الخامسة عشرة من عمرها موفورة الصحة وقد لوحت الشمس بشرتها، تمتلئ بالثقة التى تجعلها ترتدى مثل القطة فى كرنفال عيد البوريم أو تضحك فى غنج وهى ترتدى الملابس القصيرة الساخنة التى تكشف عن سرتها، كان هذا حينما أخبرتنى أمها "أنها كانت ترتدى مثل الإسرائيليات". وقد أصيبت بالصدمة، حينما أخبرها أحد معلميها أن كل الأولاد فى المدرسة قد وقعوا فى حبها. وأضافت "لم أعتقد أبدًا أنها اجتماعية بهذا القدر. لم أعرف إلا لاحقًا.

لقد زلزلتها الفاجعة، الآن لن تعرف إلى الأبد. فقبل عشرة أيام من بلوغ آنيا عامها السادس عشر، ذهبت هى وصديقتها الحميمة ماريانا إلى حفل عيد ميلاد صديقتهما يوليا زميلتهما فى الفصل، فى مساء الجمعة الأول من يونيو ٢٠٠١. كانت أولى حفلات آنيا الكبرى مع الفتيان، وعلى ذلك ذهبوا جميعا إلى المرقص "الديسكو" وكانت تلك المرة الأولى لآنيا، فى مكان على الشاطئ يسمى "دولفيناريوم"، تم تفجيره تلك الليلة، بواسطة أحد الانتحاريين. ماتت يوليا المحتفى بها، وماريانا وآنيا فى الانفجار.

كما قتل العديد من الفتيان الروس فى تلك الليلة ، حيث كان ستة عشر من الواحد وعشرين ضحية من المراهقين ، وأعلنت البلاد الحداد. ويتحدث الناس عن هذه اللحظة باعتبارها غيرت فكرهم بشأن المهاجرين الروس، إنهم، قبل كل شىء، إسرائيليون. فلا يهم أنهم لا يتحدثون العبرية أو أنهم جاءوا من أجل المال أو أنهم يذهبون إلى موسكو أو كييف ويعودون. لقد أصبحوا الآن مواطنين مؤهلين للدولة اليهودية، لأنهم دفعوا الثمن.

وبالنسبة للدكتورة آنا (جاءت تلك اللحظة حينما رأت ابنتها مسجاة فى النعش) فأصبحت إسرائيلية إلى الأبد. "لأن هذا هو مكانى. فآنيا توجد هنا". كانت أول جنازة يهودية تشهدها هى جنازة ابنتها. لم تكن تعلم أنه يجب عليها أن تمكث فى منزلها سبعة أيام لتستقبل المعزين (يطلق على ذلك شيفا) ، وأخبرها أحد الحاخامات ما يجب عليها فعله. لم تعد غريبة بعد الآن، لقد جعل منها موت ابنتها يهودية.

الآن تعلق فى رقبتها سلسلة ذهبية تحمل نجمة داود، وكذلك فى معطفها وتحرص على ارتدائه يوميا. أما ابنها أليكس، فقد تم الاحتفال به بمناسبة بلوغه عامه الثالث عشر فيما يسمى بار متسفاه وهو سن التكليف فى اليهودية، ولم يكن ذلك هو الجانب الصعب فى الموضوع، فقبل ذلك كان يجب ختانه. الآن كل جمعة، كما قالت، توقد شموع السبت. كما تغير شىء آخر، وهو أنها للمرة الأولى فى حياتها أصبحت تتابع الأخبار باستمرار. ودائما ما تفكر فى آباء وأمهات ضحايا الهجمات الأخيرة وما إذا كانت هناك تفجيرات جديدة، وهل سيقوم الجيش بضربهم؟

فى روسيا لم تكن تهتم بأى شىء مثل هذا. كانت تعرف بالكاد أن هناك حربًا فى الشيشان، ولكنها لم تكن تعرف لماذا. وبالنسبة للصراع فى إسرائيل، عرفت فقط ما أخبرتها به الوكالة اليهودية وهو ليس بالكثير. "لقد صبغت الوكالة اليهودية كل شىء باللون الوردى" والآن فقط، كانت تتعلم، تحاول أن تتعلم.

قالت إن الانتحارى الذى قتل آنيا "لابد أن يكون عربيا يعيش فى إسرائيل، وإلا فكيف يمكنه معرفة كل ركن فى البلد؟" ربما نظرت إلى إسرائيل على أنها بلد يشبه روسيا، أراض شاسعة حول مركز معين. وقد أمضت يومًا فى قاعة المحكمة التى تحاكم الزعيم الفلسطينى مروان البرغوثى، حيث تتهمه إسرائيل بأنه إرهابى حتى النخاع وبأنه الرأس المدبر للتفجيرات الانتحارية. سألت دكتورة آنا ما الذى يجب أن يحدث للبرغوثى؟ فأجابت "إنه عضو فى الكنيست وعلى ذلك لا يمكن الحكم عليه بالإعدام". والبرغوثى ليس إسرائيليًا، وعلى ذلك فهو ليس عضوًا فى الكنيست الإسرائيلى.

ولكن فى النهاية لا يهم ما تعرفه أو ما لا تعرفه. إنها إسرائيلية مؤهلة الآن، لأنها تشارك فى المنظومة الفكرية التى تقول بأنه لا يوجد خيار آخر. لم تعد تقوم بالمزيد من الدراسة والاختبارات من أجل استئناف عملها طبيبة. لقد أصيبت بالاكتئاب، وهى تتصل بابنها على هاتفه المحمول عشرين مرة فى اليوم للتأكد من أنه على ما يرام. إنها لا تستطيع الفكاك من إحساسها الدائم بأنها كانت نوعًا ما، أمًا سيئة ولذلك فهى لا تسمح له باستقلال الحافلة، وتأخذه فى سيارتها إلى أى مكان يريد الذهاب إليه. فسيارتها جديدة وحصلت عليها دون ضرائب. وهى الآن تشترى شقة جديدة وهذه صفقة خاصة أخرى. كما أن هناك منحًا خاصة من اليهود البريطانيين والأمريكيين لأهالى الضحايا واحتفالات تقام لهم بواسطة بلدية تل أبيب وتصطحبهم بلدية هرتسيليا على متن يخت لإلقاء الزهور فى الماء. وتكونت منظمات لعائلات الضحايا مثل منظمة ضحايا دولفيناريوم ومنظمة المهاجرين الروس. قالت إنها تشعر بكل ما يقدم لها، ولكنها الآن لا تستطيع أن تقدم لنفسها شيئًا. كما أنها لا ترغب ولا تستطيع الرحيل حيث تقول "بعد أن أحضرت ابنتى لكى تقتل هنا ودفنتها هنا، لن أرحل أبدًا". إنها تريد السلام لكل من يعيش على هذه الأرض" وتتمنى أن ترى نهاية للإرهاب، ولكن لا يمكن أن يتحقق ذلك. وأضافت أن "المسلمين لا يرغبون فى قتل اليهود

فقط. ولكن أيضا المسيحيين وأى شخص آخر. لكى يسود الإسلام العالم، وهذا غباء". ثم هزت كتفيها فى لا مبالاة. تمامًا كما يفعل الإسرائيليون، كما لو أنه لا يوجد شىء آخر يقال. وأضافت "إنهم قوم عرفات".

كان حظ يوسى أن ينشأ فى وقت بدا فيه أن الإسرائيليين يمكنهم فعل ما يريدون، فكل البلد مطروح للاختيار. وحينما كان طفلاً كانت الأشياء كلها تتحرك إلى الأمام. ففى الخمسينيات، بدا أن كل شخص يعلم إلى أين تتجه البلاد، وكيف يجب أن تعاش الحياة على نحو دينى. ولكن كان ذلك على الورق فقط. فلم تكن هذه حياته. ففى عيد الغفران، كان والده، يشعل الأضواء ويستمع لمحطات الإذاعة المختلفة. كان علمانيا متحمسا من مؤيدى حزب العمل، ومن عائلة أهارون التى هاجرت من العراق.

ثم أتت اللحظة التى بدت فيها الاختيارات لا نهائية، حيث اتسع عالم شعبه مع حرب الأيام الستة، مع الأراضى الجديدة التى استولوا عليها والإحساس بأنهم قادرون على فعل أى شىء. كان شابا خلال السبعينيات حتى خلال الثمانينيات وقد علت وجهه الابتسامة، وهو يتذكر كل الأشياء التى حاول فعلها فى ذلك العقد الملىء بالأحداث. حتى خلال أواخر الثمانينيات مع الانتفاضة الأولى. حينما تواترت الأنباء الخطيرة، لم تكن هذه حياته. لم تكن لديه ولم يكن يحتاج إلى أية أفكار سياسية من أى نوع. كان يوسى يعيش حياة سعيدة مع متجر للتحف الفنية فى القدس الغربية ومع أصدقائه والموسيقى، والأوقات الطيبة. جمع بعض المال الذى يكفيه. كان موفور الصحة والحماس. والأسنان الكاملة وكلها سليمة تجعل ابتسامته مشرقة، وشعر أسود كثيف ليس به شعرة رمادية واحدة، وصديقة لطيفة حلوة الحديث، تدعى تامى. وعندما بلغ الأربعين، تزوجها على الفور، فقد حان وقت الاستقرار. وإذا نظرت إلى الوراء تستطيع أن تطلق على ذلك نافذة فى الزمن. ولكن وأنت جالس مسترخٍ فى منزلك، لن تلاحظ تلك النافذة، ولكنك سوف ترى الشمس المشرقة فى العالم الفسيح.

فى عام ١٩٩٢بدأ يوسى وتامى أهارون البحث عن مكان لصنع العائلة والمستقبل. كانت الأرض التى عثر عليها يوسى فرصة العمر. ولكن مع التعقيدات الإسرائيلية. كانت أرضًا عربية أو أرضًا عربية سابقًا، بالقرب من القدس بجانب

أبوديس، على الطريق الذى يقود إلى بيت لحم. لم يتم ضمها إلى إسرائيل بعد حرب ١٩٦٧ ولكن تم إخباره أن سلطة الأراضى الإسرائيلية قامت بشرائها، وأنها تقدم فرصًا طيبة لتبين أن اليهود يمكنهم الإقامة فيها. وقد وقع عقدًا للحصول على دونمين (نحو نصف أكر). ومع نشاط جماعة جوش إمونيم لتعزيز الاستيطان، حيث كانوا يرغبون فى أن يعيش اليهود فى تلك الأرض، جاء بمنزل متحرك (مقطورة) لكى يعيش هناك بينما كان يقوم بالبناء. بعد ذلك تم انتخاب رابين رئيسا للوزراء، وتم وقف جميع التصريحات التى طلبها، وئدت فى مهدها. كان رابين يسعى إلى عقد اتفاق أوسلو للسلام، ولذلك تم تجميد الاستيطان على الأراضى العربية.

كان على يوسى وتامى الإقامة مع والديه. وعندما رزقا بطفلهما الأول، شعر بأن المنزل ضاق بهم، ولم يكن أبوه على ما يرام. ولكن لم يكن لديهم خيار آخر. انتظروا لما يزيد على عام. ولم تكن لدى أى شخص إجابة على ما يمكن أن يحدث لمنزلهم وصفقتهم. وتم سحب المنزل المتحرك الذى كانوا يقيمون فيه من الأرض وانتهى به المقام فى "تكوا" وهى مستوطنة فى الجنوب، يسيطر عليها الحاخام فرومان.

بالمصادفة كان لديه زبائن من تكوا، جاءوا إلى متجره لشراء فرش وألوان وقماش رسم وبدا مظهرهم حسنًا وتبدو على سيماهم مظاهر النعمة. واعتادوا أن يخبروه قبل أن يكون له أية علاقة بالمكان عن روعة المنزل الذى يعيشون فيه هناك ودعوه لزيارتهم وكذلك الإقامة هناك إذا رغب فى ذلك. والآن، بعد أن أخبرهم أنهم سحبوا منزله المتحرك إلى هناك، ألحوا عليه فى المجىء. يجب أن يجلب عائلته ويبقى ليوم السبت. وعلى ذلك، ذهب يوسى وتامى وابنهما الوليد إلى هناك بعد ظهر أحد أيام الجمعة، واشترك زبائنه فى إعداد عشاء السبت لكى يتذوق لذة الحياة فى تكوا، وكان رائعًا. وقد قضوا ليلتهم فى أحد المنازل المتحركة الموجودة على أطراف المستوطنة، بلا تليفزيون أو ما شابه، فلا يصح ذلك فى السبت. وعلى ذلك، فى أول ليلة لهم، استيقظ يوسى مبكرًا، وذهب إلى الخارج وكان الجو ساحرًا. استطاع أن يرى حيث شاهد منظرا رائعًا الأرض الخضراء المفتوحة بلا حدود تعانق التلال مع السماء الوردية والشمس المشرقة

على البحر الميت، ذلك المشهد الذى يخلب الألباب والذى لا يمكن رؤيته فى أى مكان بالقرب من القدس. وحينما ارتفعت الشمس فى السماء، شاهد الأطفال يلعبون، وعندما رأوه توجهوا إليه يحيونه شباط شالوم (أى سبت السلام)، وهو الغريب، دون ذرة من شك أو ارتياب. ورأى يوسى أن هذا من المستحيل أن يحدث فى المدينة! إن هذا هو المكان الذى يجب أن ينشأ فيه الأطفال، وربما طفله هو.

أخبره سكان المستوطنة أنهم يمكنهم أن يمنحوه أرضًا لبناء منزل عليها دون مقابل تقريبًا، كما يمكنه الحصول على المزيد من الأرض كما يشاء. ويمكن أن يحصل على مزرعة صغيرة. ولا يهم إن كان متدينًا أو لا. فلديهم أيضًا أشخاص علمانيون. إنهم يطلقون عليها "مستوطنة مختلطة. وليست هناك مشاكل مع الحكومة، فتكوا موجودة بالفعل على الخرائط الحكومية. كمكان يفترض أن يستوطن فيه اليهود. ومن خلال مساعدة الحكومة، يمكنهم الحصول له على منشآت سابقة التجهيز، حيث يمكنه أن يضع اثنين أو ثلاثة معًا لتمنحه منزلاً مساحته ٨٠ أو ٩٠ مترًا مربعًا. أى منزلاً فسيحًا. وكل هذا. الأرض والمنشآت. سوف يكلفه فقط حوالى عشرة آلاف شيكل (ما يقرب من ألفين أو ثلاثة آلاف دولار) مقارنة بحوالى مائتين أو ثلاثمائة ألف دولار إذا قام بذلك بالقرب من القدس. كان ذلك العرض متاحًا للروس، ولكنهم يستطيعون أن يمنحوه إياه، وهو حلم كل إسرائيلى. كانت فرصة العمر. فكيف له أن يتخلى عنها؟

فى عام ١٩٩٤ اشترى أرضه. وكانت الطريقة التى حدث بها الأمر أنه كان عليه فقط شراء نصف دونم فقط، فى حين أنه كان يمكنه الحصول على ما يصل إلى خمسة دونم (ما يزيد على أكر)، وعلى أية حال لم يكن هناك أحد حول أرضه. بعد ذلك، أعطوه منزلاً متحركًا، ليقيم فيه حينما يأتى للزيارة. وفى الحال بدأ التخطيط للبناء. ولم يكن ذلك يعنى مجرد بناء سريع ورخيص. ولكنه كان يريد بناء بيت الأحلام بالنقود التى قام بادخارها. وقرر أن يقيم المنزل بواسطة الوحدات سابقة التجهيز، ثم يحوله بعد ذلك إلى قطعة فنية رائعة.

لقد أراد تغطية الجدران الأسمنتية بالأحجار، ليست تلك الأحجار السابقة التجهيز التى تباع خصيصا لواجهات المنازل. ولكنه أراد حوائط حجرية مثل تلك التى رآها فى المنازل القديمة القائمة على التلال. تلك الأحجار التى كانت جزءًا من الأرض القديمة، والتى تتعشق فى بعضها البعض. وكان العرب هم الوحيدين

الذين مازالوا يقومون بذلك. لذلك قام بإحضار بنائين من القرى المجاورة. كانوا يقومون بفحص كل حجر على حدة ثم يقومون بكشطه ونحته، وكان الحجر الواحد يستغرق ساعة كاملة حتى يتم وضعه فى الحائط على نحو ليس له مثيل.

على أية حال، بدأ يوسى يميل إلى صحبة هؤلاء الحرفيين. فقد كانت رؤيتهم للأشياء تشبه رؤيته، فرصة سانحة لخلق الجمال الذى لم يكن موجودا من قبل. وبدأوا يتجاذبون أطراف الحديث، كانوا يتحدثون طوال اليوم ، وبدأ يوسى السخرية من طريقة بناء اليهود لمساكنهم ! تلك المنازل التى تخرج من المصانع فبدت أيضًا مثل المصانع. وعندما كان يتوجه إلى منزله المتحرك، بجوار منزله، كان يجد نفسه هو والعرب فقط ولا يوجد الكثير من المستوطنين بالجوار.

كان أحد أسباب ذلك، أنه لم يكن فى قلب المستوطنة. ولم يكن يمر به سوى بعض المستوطنين مصادفة فى رحلاتهم العادية. ولكنه على يقين أن الأمر أكثر من ذلك. والحقيقة أنه حتى قبل أن يكتمل أول جدار فى منزله (لو افترضنا أن كل جدار سيستغرق عامًا كان يوسى على يقين بأنه لم يكن لديه أصدقاء فى تكوا، كما يريد، وشعر بأنه يجب عليه فعل ذلك. وقد أدرك سبب نفور المستوطنين الأرثوذكس منه. فلم تكن له أية علاقة بالدين، ولابد أنهم كانوا ينظرون إليه (على أحسن تقدير) على أنه يهودى غير صالح. ولكنه انزعج عندما وجد أن غالبية المستوطنين العلمانيين كانوا من الروس ولا يتحدثون العبرية. ولذلك، لم يتمكن من تبادل أى حديث معهم، حتى مع توافر كل النوايا الحسنة.

بذل يوسى قصارى جهده لكى يندمج معهم أو على الأقل لكى ينضم إليهم، كلما سنحت له الفرصة. وكان كلما تناهى إليه، فى أثناء وجوده فى المتجر أو فى اجتماع، وجود مشكلة ما، كان يهب لتقديم المساعدة. وعندما علم أن المدرسة ترغب فى بناء حظيرة صغيرة لتربى بها بعض الحيوانات حتى يمكن للأطفال مشاهدتها والتعلم منها (كحديقة حيوان صغيرة للحيوانات الأليفة)، توقف عن بناء منزله، لكى يشيد لهم تلك الحظيرة. وكانت لديهم مشكلة فى البوابة الكهربائية وأصلحها لهم. وأدى ذلك إلى بعض التحسن، حيث بدأ المستوطنون فى التحدث إليه. ولكنه لم يحل المشكلة التى كانت تزداد سوءا. وقد دعاه بعض المستوطنين الذين رغب فى كسب ودهم إلى الانضمام إليهم ليلاً لتدمير صهاريج

المياه الساخنة الخاصة بمنازل العرب، أو الذهاب إلى بعض القرى للإمساك بالدجاج وذبحه. لم يكن يوسى مرتاحًا إلى أى من ذلك، وكان يمكنهم الإحساس بذلك. وعلى ذلك، شيئًا فشيئًا، نبذه اليهود. ولم يبق غير يوسى والعرب يتحدثون معًا، ويقطعون الأحجار معًا، فى ذلك الطرف البعيد من العالم.

فى عام ١٩٩٦حملت زوجته مرة أخرى ولكنها كانت تعانى من صعوبات جمة، وعلى ذلك كانت تتردد على الأطباء فى القدس. وفى منتصف الحمل، أمرها الأطباء بعدم الحركة على الإطلاق. ولذلك أقامت وزوجها فى القدس لعدة أشهر. وبحلول شهرها الثامن، زال الخطر على تامى وطفلها، ولذلك عادوا جميعا إلى "تكوا"، ولكن الأمور كانت قد تغيرت. كان هناك مجلس مستوطنين جديد وتم نقل منزلهم المتحرك إلى منطقة جديدة أطلقوا عليها اسم "تكوا الجديدة" أو "تكوا ج". كانت تابعة لأراضى المستوطنة، ولكن على تل منفصل بعيدًا عن منزله وخارج سياج تكوا. وقال أعضاء المجلس إنه فقط إجراء إدارى حيث يجب نقل كل المنازل المتحركة إلى هناك. ولكنه كان الوحيد الذى يعيش فى منزل متحرك، باستثناء بعض الجنود الذين كانوا يعسكرون فى التل. ولم يكن هناك ماء أو كهرباء أو صرف صحى أو طريق معبد، كان هناك فقط مدق.

ومن وجهة نظر الغالبية العظمى من المستوطنين، يمكنك أن ترى كم كانت هذه الخطوة محبذة لديهم. فإذا رغب يوسى فى تقوية أواصر الصداقة مع أحبائه العرب، فليفعل ذلك بعيدا عن المستوطنة. الشىء الغريب هو أن هذه الإزالة كان لها أثرها عليه هو شخصيًا، حيث بدأ يتغير على نحو لم يتوقعه أبدًا. لقد وجد شيئًا داخل نفسه، ربما للمرة الأولى فى حياته، وهو أن يفهم ما يريد وما يحب أن يفعل. لم يكن لديه أى وعى سياسى، أى شىء يمكن أن تطلق عليه أيديولوجيا ولكنه أدرك ما هى مهمته. إنها ما تفرضه عليه هذه القفار الموحشة، أو ما يحتاجه الإنسان لكى يعيش هناك. إن ما أراده هو خلق شىء من العدم، وليس الحصول على شىء من أحد ما وبالتأكيد ليس الاستيلاء عليه من شخص ما، ثم الاحتفاظ به كأنه ملك لك. فيجب خلق شىء جديد من نسج خياله وعمله هو. ربما يبدو ذلك كأنه فقط كلمات رنانة أو موضة عفى عليها الزمن يستحيل تحقيقها. ولكنه بطريقة ما، وجد الدين القديم، ليس الدين العتيق، ولكن الدين

الذى ترعرع معه، إنه أخلاقيات مخترعى الأمة، المستوطنين الصهاينة التابعين لحزب العمل الذين كانوا يديرون العالم عندما كان طفلاً غريرًا.

وعلى ذلك، أصبحت قمة التل المقفرة التى استقر عليها منزله المتحرك لوحة الرسم البيضاء الظامئة إلى إبداعه. قام بشق طريقه الخاص، كما قام بمد المواسير وجلب الماء من المستوطنة الرئيسية وقام بمد كابلات الكهرباء. كما أنشأ نظام الصرف الصحى الخاص به. وحينما كان يحتاج إلى المساعدة كان يلجأ إلى أصدقائه العرب وأبنائهم وأبناء عمومتهم. وبين هذا العمل الجديد ومنزله الذى استمر العمل فيه، على الرغم من أنه كان أكثر بطئًا كان ينفق الكثير من المال. كانت لديه فكرة تستحوذ على ذهن الحالمين، وهى أنهم عندما يرون (المستوطنون) ما فعل، سوف يشكرونه، وربما يعوضونه، أو يكافئونه. فقبل كل شىء، هذا ما كانت تهدف إليه حركتهم، وقد استوطن تلاً آخر من أجلهم.

وفى غضون ذلك، لم يكن ينتظر شيئًا من أحد وكان عليه أن ينشئ مزرعته الخاصة. علمه الفلاحون الفلسطينيون كيف يحرث الأرض ويزرعها ويرعاها. أحضروا له الحيوانات وساعدوه فى بناء الحظائر. وعلمت نساؤهم زوجته كيف تعتنى بالأبقار والماعز وكيف تغزل الصوف وكيف تصنع طعام العيد (الثريد) من لحوم الضأن والأرز والحمص والزعفران. وكانوا يتناولون الطعام معًا فى الأعياد اليهودية والإسلامية. لقد أصبح يوسى وتامى وطفلاهما، بأمر الرب، فى وسط عائلة كبيرة، وقاموا بتوسيع هذه العائلة. قام يوسى بزراعة العشب من أجل مزرعته الصغيرة، ثم وضع حوض سباحة كبيرًا من البلاستيك. وعلى ذلك اعتاد الجنود زيارته للتخلص من الجو القائظ واحتساء بعض الجعة. تحول المكان إلى ما يشبه النادى، حيث كان يوسى وتامى وطفلاهما وأصدقاؤهما العرب والجنود يجتمعون كل ليلة حول الطعام والنبيذ والسمر.

كانت المسافة من القدس إلى تكوا تستغرق نحو نصف ساعة أو أربعين دقيقة بالسيارة، ولكن يوسى كان يقطعها فى ساعتين أو ثلاث، حيث كان أصدقاؤه فى القرى يغضبون منه إذا لم يتوقف لاحتساء القهوة أو تناول الطعام. فكل فرد فى هذه القرى كان يعرفه. وفى بلدة تدعى "زعترة". كان يوسى والعمدة صديقين لدرجة أن يوسى تطوع لتعليم أطفال البلدة اللغة العبرية، لمساعدتهم فى العثور

على عمل إذا تحسنت العلاقات مع إسرائيل. قال له العمدة: "هل يمكنك أولاً أن تساعدنى فى تعليمهم العربية؟". فى ذلك الوقت تغيرت الحكومة الإسرائيلية مرة أخرى، وفى ظل رئاسة رئيس الوزراء الجديد بيبى نيتانياهو أصبحت الحياة فى الضفة الغربية أكثر صعوبة. ولكن حتى عندما كان الجيش يعلن حظر التجوال والإغلاق، لم يتوقف يوسى عن زيارة القرى العربية. وكان يحضر الطعام أو الدواء أو الإمدادات التى لا يستطيع أصدقاؤه الحصول عليها. كان رأى يوسى وأصدقائه، أنه لا يهم ما كان يحدث الآن. فلو أن طفلك أصيب بكحة مهلكة ولا تستطيع أن تحضر له المضادات الحيوية، فلا شىء آخر يهم. ولكن هذا لا يغير الشىء الأساسى وهو أن السلام سوف يأتى عاجلاً أو آجلاً. حتى نيتانياهو قال ذلك. وفى غضون ذلك، كان يوسى وأصدقاؤه يرون الجميع ماذا يمكن أن تكون عليه الحال إذا أصبح العرب واليهود جيرانًا وأصدقاء.

آمن يوسى وتامى بذلك بقوة لدرجة أنهما طرحاه على مجلس المستوطنين. وأعلنا عن حلمهما بإنشاء دار حضانة تضم الأطفال اليهود والعرب معًا. أو مدرسة كاملة، حتى يكونوا آخر الأجيال التى لا تعرف جيرانها أو تخشاها أو تقاتلها. ومع قدوم رئيس الوزراء الجديد إيهود باراك، الذى تم انتخابه بناء على برنامجه الخاص بالسلام، كان يوسى لديه برنامجه السياسى الشخصى الذى يضعه أمام مجلس المستوطنين. هذه المرة اقترح البدء فى التفكير فى المستقبل، كيف يمكنهم التخلى عن تكوا إذا اضطروا لذلك. فالسلام قادم لا محالة، ويجب عليهم إعادة تكوا إلى العرب بكل إعزاز، حتى لا يظهروا بمظهر الطفيليين. أدرك أن ذلك سوف يخلق بعض العراقيل، ولكنه لم يكن يحاول أن يتحدث إليهم أو يقدم لهم بعض الدروس. كان عليه أن يفكر فى ذلك أيضًا، وكان منزله على وشك الاكتمال.

كان ذلك بمثابة شرارة إعلان الحرب عليه وأدرك أنهم ينظرون إليه على أنه غريب. وأن هناك حربًا ضروسًا تدور رحاها بينه وبين المستوطنين. كان عليه أن يعرف أين يقف فى هذا المجتمع، عندما رأى رد فعل المستوطنين تجاه مزرعته. "لماذا تفعل ذلك؟ لا يجب عليك فعل ذلك". كان عليه أن يعلم ذلك حينما سأل الأطفال فى المدرسة طفليه "هل أبواكما يهوديان أم عربيًان؟". بالتأكيد كان عليه

أن يدرك ذلك حينما تسللوا إلى منزله المتحرك، وحطموا زجاج نافذة الحمام أو عندما سرقوا أنابيب الغاز. ولكنه كان يعتقد، أو ربما أراد أن يعتقد، أنه ربما قام بذلك بعض الأطفال.

والواقع أنه لم يستطع أن يرى سوى ما سمح له عناده بأن يراه. فهذا جزء من الموضوع الذى ينظر له من زاوية المهمة، حيث يشكل العناد الفرق بين المهمة والوظيفة. لقد وضع يوسى كل حياته فى هذا المكان. ولذلك يجب عليهم أن يروا ذلك ويقدروه. وتخلى عن عمله فى القدس، وباعه من أجل تمويل مستوطنته الخاصة. الآن أصبح متواجدًا هناك على نحو يومى. إذا استخدمنا عبارة عتيقة سوف نقول إنه يسعى إليها كما تسعى إليه. أو إنها حقيقة قديمة سخيفة وضعها الصهاينة فى الوقت الذى ولد فيه، ويمكنك القول بأنها السبب فى عدم إلقاء اليهود فى البحر: فعندما يضع إنسان حياته وعائلته وقدره فى الأرض، يكون من المستحيل إخراجه منها. لا شىء يثير الدهشة فى ذلك، إنه يموت ولا يستسلم. إنه السبب نفسه الذى جعل من المستحيل إخراج الفلسطينيين من قراهم، أو أن هناك حقيقة أخرى تقول لقد نسى اليهود، والآن أصبح بن جوريون فقط وجهًا على أوراق النقد، وهذا هو السبب فى أن الاحتلال لا يستطيع الفوز.

على أية حال، كان يوسى إسرائيليا بما يكفى للتشبث حتى اكتمل بناء منزله. عندما أصبح واضحًا أنه لن يتم قبوله فى تكوا، اعتقد أن مترفى المستوطنة سوف يشترون منزله ويعيدون بيعه إلى شخص ما يقبلونه. أو إذا ما كتب لذلك الشىء الخاص بأوسلو النجاح يومًا ما فإن الحكومة يمكنها أن تشترى منزله كجزء من ثمن السلام. كان الشكل الخارجى لمنزله قد انتهى، وحتى سور الحديقة (أيضًا من الحجارة المنحوتة) كان مثاليًا، حيث لم يتم استخدام الملاط، ويمكنه الصمود إلى الأبد. وكان الجزء الداخلى قد قارب على الانتهاء - الحوائط الداخلية والزخارف والسباكة ووصلات الكهرباء - وكانت تامى تقوم ببعض اللمسات الجمالية. وفى صباح أحد أيام السبت، كان وزوجته يجلسان على حافة حجر عبر الطريق، ربما على بعد ٢٠ ياردة من المنزل يحلمان بالوقت الذى يزرعان فيه الأشجار لكى تظلل منزلهما. شاهدا مجموعة من المستوطنين المتدينين يمشون فى الجوار، خارجين من المعبد فى طريقهم إلى منازلهم، وهم

يحملون كتب الصلاة تحت إبطهم. وقفوا فى مواجهة سور الحديقة وبدأوا فى ركل السور بأحذيتهم، ثم بدأوا ينزعون الأحجار من السور بأيديهم. بيد واحدة حتى يستطيعوا الاحتفاظ بكتب الصلاة. ربت بيده على كتف تامى طالبًا منها أن تصمت، حيث أراد أن يسمع ما يقولون. صاح أطفال المستوطنين "يجب أن نطردهم من هنا. هذا المنزل نجس. يجب أن يبتعدوا". لم تستطع تامى تحمل الموقف، فهبت فزعة وصرخت فيهم "ألا تخجلون من التخريب فى يوم السبت وأنتم تحملون الكتاب المقدس بأيديكم؟ ألا تشعرون بالخجل؟" فأطلقوا سيقانهم للريح دون أن ينبسوا ببنت شفة.

اشتعل أوار الحرب الباردة فى ربيع عام ١٩٩٨ فتم تعليق ملصقات فى وسط المستوطنة تتهم عائلة أهارون بسرقة الماء والكهرباء ورعاية الإرهاب فى تكوا. (رعاية الإرهاب تعنى إحضار العرب). بعد ذلك، بينما كان يوسى يعمل فى منزله، ذهب شخص ما إلى منزله المتحرك وقتل البط والإوز. بعد ذلك وجد كلبه والدماء تنزف من رقبته. واكتشف بعد ذلك أن هيئة مراقبة الحيوانات، الخدمة البيطرية التابعة للدولة ، كانت فى زيارة إلى تكوا، من أجل إعادة تطعيم الحيوانات الأليفة، ولكن المستوطنين أخبروهم بأن كلب يوسى هو كلب ضال، فقام المختص بإطلاق النار عليه. وبينما كان كلبه يلفظ أنفاسه الأخيرة كان طفلاه ينتحبان فى الفناء، فلم يجد ما يفعله غير أنه هرول إلى المقطورة، وقام باستعارة بندقية من الجنود وقتل الكلب المسكين.

وفى عشية السبت التالى الموافق الثانى عشر من يونيو وقفت سيارة مسرعة أمام منزله المتحرك، وهبط منها أحد أعضاء لجنة الأمن فى "تكوا" وأبرز له وثيقة ما. ولم ينتظر حتى يقوم يوسى بقراءتها، كانت عبارة عن أمر إخلاء. لم يعد مرحبًا به فى تكوا. وكان المستوطنون، فى أول مرة يجيئون فيها إلى المستوطنة، يوقعون على إقرار يعطى لمجلس تكوا الحق، على مدار الوقت، فى تقرير من يتم قبوله ومن لا يقبل كواحد من أهلها. كان يفترض أن تكون هذه المهلة عامًا واحدًا فقط، ولكنه كان يقيم فى تكوا منذ أربع سنوات، ولكنه لم يهتم بذلك. كان سعيدًا جدا لدرجة أن أمر الإخلاء أصابه بالذهول.

عندئذ، أدرك أن عليه أن يرحل، وكان السؤال هو كيف وكم سيخسر؟ لقد وضع فى هذا المنزل كل ما يملكه فى العالم. اعتقد الآن أنه وجد مخرجا لمشكلته، فمن خلال هذه الورقة يمكنه أن يبين ويثبت فى المحكمة أنهم لا يرغبون فيه. كانوا يجبرونه على الخروج. منذ ذلك الوقت، أصبح من الممكن أن يطالبهم بثمن المنزل والمزرعة وسداد كل ما دفعه. كان يخطط بالفعل، يجب أن يقدر قيمة عمله خبير مثمن محترف. ربما يجب أن يحصل على ذلك من مصدرين أو ثلاثة عند ذلك، يمكنه أن يرسل إليهم الفاتورة. وإذا لم يعجبهم ذلك، على أسوأ الأحوال، يمكنه أن يلجأ إلى محام ويضع بين يديه القضية. هرول إلى تامى ليزف إليه الخبر، وكان يومًا عظيمًا.

فى تلك الليلة كانت تغمرهم السعادة، كما لو أن أبواب السجن فتحت لهم. فجأة أصبح لهم مستقبل جديد. وفى ظلمة الليل، وسط سكون يوم السبت، كان يوسى وتامى يتناجيان فى المقطورة وكان الطفلان نائمين. ولم يكن هناك أى زوار، أفزعهما طرق عنيف على الباب، قال لهما رئيس لجنة الأمن جملة واحدة "منزلكم تتصاعد منه ألسنة النيران".

لم يصحب رجل الأمن يوسى إلى المنزل أو يعرض عليه أى نوع من أنواع المساعدة. هرع يوسى إلى المنزل، وقامت تامى باستدعاء الشرطة ومكثت مع الطفلين. جلست وحيدة فى منزلها المتحرك طوال الليل. لم يقترب منها أحد ليقدم لها العزاء، أو يجلس معها. حينما اقترب يوسى من المنزل شاهد كارثة مروعة. كانت ألسنة النيران تتصاعد من المنزل إلى عنان السماء، كأنما ابتلعته كرة من النيران، لا بد أنه ظل يحترق زمنًا طويلاً. نصف ساعة على الأقل. لم يحاول أحد إطفاء النيران ولم يستدع أحد رجال الإطفاء. كان هناك خمسون شخصا يقفون فى الجوار يتفرجون. وكان هناك ثلاثة أطفال يلهون بخرطوم الحديقة ويوجهونه نحو السياج وكان هناك خيط رفيع من الماء يندفع نحو الحديقة. هذه هى المساعدة التى قدموها إليه. حينما حضرت سيارة الإطفاء (بناءً على طلب تامى) كانت سيارة صغيرة جدًا لا تقدر على مكافحة حريق بهذا الحجم، لدرجة أن النيران قد التهمت المنزل بأكمله.

بعد ذلك قال طاقم أمن تكوا للشرطة إنهم شاهدوا توهج النيران ولكنهم اعتقدوا أنه فقط أضواء سيارة. أخبر يوسى الشرطة أن رجال الأمن من المؤكد أنهم كانوا يعلمون بالضبط متى وكيف نشبت النيران؟ وكان ردهم فقط "كيف يمكنك أن تثبت ذلك؟" وبالطبع قالوا إنهم سوف يحققون فى الأمر، ولكنهم حذروه أيضًا باعتباره مشتبهًا به. قال بعض المستوطنين لرجال الشرطة إن يوسى قام بإشعال النيران فى المنزل عمدًا، للحصول على أموال التأمين، كنوع من التحايل، وذلك لأنه يدين بالمال للعرب. ولكن العرب أنكروا ذلك وذكروا أنهم هم الذين يدينون له بالمال، كانت ستارة من صمت 'لا نعرف شيئًا' قد أسدلت على المشهد. فى صبيحة اليوم التالى. ذهب يوسى ثانية إلى المنزل ولكنه لم يجد شيئا لا سقف، لا شىء داخل الكتلة الخرسانية ، وقد تقوس المبنى وخرجت الجدران الخرسانية من مكانها وتشققت بعض الحوائط الحجرية بسبب الحرارة ، ولم يتبق خمسة أحجار متماسكة معا. وتجول يوسى بين الأحجار فى محاولة للعثور على شىء ولكنه لم يكن متأكدا ما هو هذا الشىء هل يبحث عن دليل على ما قام به؟ هل كان هنا من قبل؟ عاد ثانية فى ظهيرة ذلك اليوم. ولكن لم يكن هناك شىء ولم يكن هناك ما يمكنه عمله. هام على وجهه ساعة بين الرماد والصخور، ينعى ثروته التى ضاعت. لقد أفلس الآن. (ليس هناك تأمين). فى اليوم التالى لم تكن لديه الرغبة فى الذهاب إلى هناك والتجول بين ذلك الخراب الذى ملأت رائحته أنفه؟ لماذا عليه أن يفعل ذلك؟

قبع حول منزله المتحرك، هو وزوجته وأطفاله. لم يرسل طفله الأكبر إلى روضة الأطفال. لكن المعلمين لم يسألوا عنه. أتى إليه الجنود ليعلنوا أسفهم. وجاء إليه أصدقاؤه العرب بالطعام، ولكنه لم يجد ما يقوله لهم. فكل ما فعلوه معًا ذهب أدراج الرياح، وهذا ما آلت إليه الحال. قال إنه كان فى انتظار مكالمة من رجال الشرطة. لكنهم لم يتصلوا (وكان يعلم أنهم لن يفعلوا). وعلى أية حال، لم يكن بمقدورهم إعادة منزله إلى ما كان عليه. كان كل ما يحتاجه هو شيئًا ما يفعله، فقد كان ذلك المنزل هو شغله الشاغل. كان كلما استيقظ كل صباح، يذهب إليه وينغمس فى أعماله واحتياجاته ومشاكله. لم يفكر أبدًا فيما عليه أن يفعل،

فقد كان لديه الكثير الذى يجب أن يقوم به. والآن رغم أن كل خلاياه كانت فى حالة استنفار حيث كان عقله يدور وقلبه يدق وحياته تتعرض للهجوم، لم يكن هناك ما يمكنه أن يفعله.

ذات صباح استيقظ فى فورة الحماس، فقد طرأت على ذهنه فكرة! كيف يمكنه رد الصاع صاعين. انطلق بسيارته عبر القدس، حيث كان عليه أن يرى أصدقاءه فى ميرتس. إنه حزب سياسى يسارى، صهيونى ولكنه يناهض الاحتلال. لقد عثر عليهم (أو عثروا عليه) خلال نهضته السياسية الشاقة. كان البعض منهم قد أصبحوا أعضاءً فى الكنيست. إنهم يستطيعون استدعاء الشرطة والإصرار على معرفة حقيقة الأمر. راودته فكرة أخرى وهى أنهم يستطيعون إعطاءه ملصقات جماعة السلام الآن التى تقول "**ضعوا نهاية للاحتلال**". كان يمكنه أن يلف منزله المحترق بالكامل بها، كالشوكة فى عين تكوا! ولكن خلال تلك الساعة التى قضاها فى القدس، كانت كل الأفكار التى طرحها مثيرة للقلاقل. قال له أصدقاؤه إن الاتصال بالشرطة سوف يحول الأمر إلى قضية سياسية وهو ما لا يريده، فى رأيهم. كان الأمل فى معالجة الأمر باعتباره جريمة. وبالنسبة للملصقات، نعم يستطيعون منحه إياها. والواقع أنهم أرسلوا إليه بالفعل حمولة شاحنة منها. ولكن يوسى لم يقم بلصقها. الواقع أن الأشخاص الوحيدين الذين رأوها هم فقط المستوطنون. وبذلك تأكدوا أنه يسارى مثير للمتاعب، أى أنه يستحق الحرق.

لم يسمع كلمة واحدة من جيرانه فى تكوا. فقط جاءه خطاب، مكتوب بخط اليد، من مستوطنة أمريكية. قالت إنها تشعر بالانزعاج مما حدث. وإنها على استعداد للإدلاء بشهادتها بشأن ذلك الشىء الفظيع الذى حدث لكلبه. بعد خمسة أيام، أتحفوه بزيارة من مجلس المستوطنين، ليس المجلس المحلى، ولكن ذلك المسئول عن الاستيطان فى الضفة الغربية (يهودا والسامرة). قالوا له إنهم أصابهم الهم والحزن بسبب ما حدث له، ولذلك فقد جاءوا إليه ليسألوه "ماذا نستطيع أن نفعل لك؟" قال يوسى وتامى " إننا نرغب فى استعادة منزلنا". لم يكن هذا ما دار فى ذهن المستوطنين. ولكن ربما كانت هناك أشياء أخرى، الكثير من المساعدة يمكن أن يقدموها، لم يتم ذكر المال، ولكن كانت رائحته تفوح فى الهواء.

كما قدموا له أيضا النصيحة عن كيفية التعامل مع هذه المشكلة. سوف نقوم بحلها بأنفسنا، فلا داعى للشوشرة".

ولكن فات الأوان، وسبق السيف العزل. ففى اليوم التالى للحريق، كان فريق القناة الأولى التابعة للتليفزيون الإسرائيلى فى موقع الحادث فى تكوا. وتحدث يوسى. قال إن المستوطنين أحرقوا منزله، وأخبرهم لماذا فعلوا ذلك. قاموا بتسجيل أربعة أو خمسة شرائط فيديو. لم يكتفوا، ولم يكف عن الحديث. ولكن لسبب ما، لم يبثوها أبدًا على الهواء. قامت القناة فقط بإذاعة خبر صغير عن نشوب الحريق، مع بعض الصور للجدران التى يغطيها السواد، دون أى تعليق. (القناة الوحيدة التى بثت حديثه هى قناة الجزيرة، قناة الأخبار العربية الخليجية. قام يوسى باستعراض إتقانه للغة العربية. وحاولت تامى أيضًا وتحدثت عن حلمها بذلك اليوم الذى يذهب فيه الأطفال اليهود والعرب معًا إلى المدرسة. وقامت الجزيرة بإذاعة القصة مرارًا وتكرارًا). فى غضون ذلك، قام أصدقاء يوسى فى القدس بالاتصال بالصحف. وعلى ذلك، فى يوم الجمعة التالى كانت القصة متداولة على صفحات الجرائد، ولكنهم أمسكوا العصا من المنتصف من خلال: إنه يقول وإنهم يقولون. تم لقاء الحاخام فرومان، بالطبع. إنه لا تنقصه الشهرة. واقترح أن منزل يوسى تم حرقه بواسطة مثيرى الشغب المنتمين لحركة "السلام الآن"، لتشويه صورة المستوطنة. ولكن بطريقة أو أخرى، حصل يوسى على بعض التأييد الذى جعله يفعل شيئًا ما للعائلة. فلا يمكن أن يتركوا هكذا فى العراء.

تلقى صديق من حزب ميرتس دعوة من كيبوتس "روحامة" فى صحراء النقب لإقامة يوسى وتامى وطفليهما هناك. وبالفعل أمضوا شهرًا هناك، حيث وجدوا معاملة لطيفة من السكان. ولكن بعد برهة، لم يكن يوسى يستطيع أن يظل صامتًا. لم يكن هناك شىء يحدث بشأن حياته، أو المنزل الذى اعتاد أن يكون حياته. قامت وزارة الإسكان بالسعى لمنحه شقة مؤجرة فى القدس. كان ذلك لطيفًا، لو كان قابلاً للتنفيذ. فهو يمنحه قاعدة للعمليات. وأنفق يوسى يومه فى إعداد ملفات تحوى الخطابات التى تبادلها مع الحكومة ومحاميه والمستوطنة والشرطة ومكتب النائب العام، فيما لا طائل منه. كان هناك خطاب واحد من

المدعى العام، يخبر فيه يوسى بأنه لم يتم إثبات شىء بخصوص الحريق، ولا يمكن توجيه أية اتهامات فى تلك القضية. ولكن إلى متى سيظل قابعًا هنا يكدس الأوراق فى مكان لا ينتمى إليه؟. إنه لا يريد أن يظل تحت وصاية الدولة. كان لديه منزل وقد سلب منه. إنه يريد منزلاً فى المقابل. فماذا فعلوا بشأن ذلك ؟

حتى لا أطيل عليكم، فى النهاية أقام يوسى وتامى وطفلاهما فى خيمة أقاموها فى حديقة الكنيست، وذلك كصرخة احتجاج دائمة أمام مكتب إيهود باراك رئيس الوزراء. وعلى جدار الخيمة تم لصق الكثير من اللافتات واللوحات التى تشرح قصة يوسى، أو أمل أن تفعل ذلك. كانت إحدى اللافتات الكبيرة تقول "أنا هنا لأننى أحبكم". كان ذلك تأكيدًا من يوسى على أنه ليس عدوًا لإسرائيل ومشروعها: إنه إسرائيلى صالح ويهودى وصهيونى ومستوطن!. ولكن لم تكن حركة الاستيطان تنظر إلى الأمر على هذا النحو. كان المستوطنون أيضا لديهم خيمة فى الحديقة، كصرخة دائمة أخرى ضد مشروع باراك للسلام. كانت خيمة المستوطنين تمثل فضيحة كبرى حيث أمدها المتشددون، إلى جانب الحاخامات وكبار الشخصيات والمتبرعين الأجانب ، بشاحنات مكتظة بالإمدادات والأطعمة الطازجة. ولكنهم لم يقدموا ليوسى وجبة واحدة. كانوا يمرون بخيمته وهم فى طريقهم إلى سرادقهم ويقولون له "إنك تستحق أن يحترق بيتك، كم نشعر بالأسى أنك لم تكن بداخله".

أما الساسة فلم يكونوا على القدر نفسه من العداء. كانوا يحيونه كلما مروا به وكانوا يعرفونه بالاسم. إنها إسرائيل حيث كل شخص يعرف الآخر. كان أحد الوزراء اليمينيين الشجعان، تساحى هنجبى، أحد أصدقاء الدراسة، وكل ما استطاع أن يفعله هو أن وبخه بلطف قائلاً "لو مكثت معنا، ما حدث لك ذلك". أما أفيجدور ليبرمان، مؤسس جماعته اليمينية، الذى شيد منزله فى إحدى المستوطنات غير البعيدة عن تكوا. فقد سأله يوسى: "ألا ترغب فى معرفة ما يحدث إلى جوارك". ولكنه صده قائلاً "إننى لا أهتم بمثل هذه الأمور". كما تحدث يوسى إلى رحبعام زائيفى، اليمينى الشهير الذى اغتاله الفلسطينيون بعد ذلك حيث أراد طرد العرب من الضفة الغربية، وإرسالهم إلى الأردن، باعتباره بلدهم. حاول يوسى أن يخبره أن من واجبه أن يساعد يهوديا أصبح بلا مأوى.

فقال له زائيفى "انظر. إننى أخوك، فليكن. ولكننى لست صديقك، اذهب وتحدث إلى أصدقائك".

الأمر المثير للأسى هو أن "أصدقاءه" اليساريين لم يعد فى استطاعتهم مساعدته بعد أن تفاقمت الأمور. فقد كتب أعضاء ميرتس المزيد من الخطابات من أجله، وهى فقط ورق يضاف إلى ملفاته. أما تومى لابيد، الذى يفترض أنه يدافع عن حقوق الإسرائيليين العلمانيين، فقال له ببساطة: "سمعت عن الأمر. ولكننى لا أتدخل فى الأمور الشخصية". وبعد أن قضى شهورًا فى تلك الخيمة، قام إيهود باراك، رئيس الوزراء، بزيارته. قام باحتضان تامى بشدة وأكد ليوسى أن "الأمر برمته سوف يأتى إلى مكتبى وسوف أهتم به. دعه لى". ولكن مرت شهور عديدة ولم يحدث شىء. وحينما توجه إلى مكتبه لمعرفة ما حدث، قال له مساعد رئيس الوزراء إنه جعل من نفسه شهيرًا جدًا. وأضاف "انظر. لو لم تصل قصتك إلى الصحف، لكان باستطاعتنا حلها لك بسهولة. أما الآن، مع كل هذه الضجة، لو أعطيناك منزلاً، سيطلب كل مستوطن منزلاً جديدًا". قام بالشكوى إلى حزب شاس. ولم لا ؟ أليس واحدًا منهم؟ إن عائلته عراقية. قالوا له بالفعل نستطيع أن نساعدك! "كل ما عليك هو أن تقول إن العرب أحرقوا منزلى. هناك صندوق مخصص لذلك. وسوف يكون الشيك بين يديك خلال أسبوعين".

كان يمكن لعائلة أهارون أن تظل فى الخيمة، ولكن صحته أصيبت بالاعتلال. لقد فقد الإبصار فى إحدى عينيه، كما أصيب بمتاعب فى القلب، الذى لم يكف عن الخفقان. وبحلول عام ٢٠٠٢ أصبح ضغط دمه سيئًا. وكان عليه إجراء جراحة قلب مفتوح. أصبح عاجزًا عن العمل وبالكاد يستأجر شقة فى القدس، ولا يزال أصدقاؤه العرب يحضرون له الطعام، حينما يستطيعون اجتياز نقاط التفتيش. وحينما قمت بزيارتى الأولى لشقته، أرتنى تامى دجاجة وصلت للتو من إحدى القرى العربية بالقرب من تكوا.

الآن يعيش بلا مأوى، وبلا نقود. ولا ترغب حكومة شارون فى أن تسمع عنه شيئا. وعرض عليه أحد المقاولين العرب أن يعيد بناء منزله على نفقته ولكن الحكومة رفضت إصدار تصريح له بذلك. كما رفضت المحكمة الدعوى التى أقامها ضد تكوا. وهو لا يزال يحتفظ بأمر الإخلاء، ولكن مجلس تكوا غير القصة، وزعم أن الأمر مجرد سوء تفاهم. قالوا إنهم رغبوا فقط فى طرده من

المنزل المتحرك لأن بيته اكتمل بناؤه. وفى هجوم مضاد قامت تكوا برفع دعوى ضده تتهمه فيها بسرقة الكهرباء والماء و"إحضار الأعداء إلى منطقة عسكرية".

هذه العبارة الأخيرة هى جوهر الموضوع. لقد جلب الأصدقاء الخطأ. يوسى وأدرك أن ذلك لم يكن فقط تحاملاً عليه. لأنه من خلال هذه الصداقة كان يتحدى مستوطنته، ويتحدى الدولة. لقد انتهك المهمة المقدسة للدولة، ألا وهى الصراع. أو يمكنك القول إنه كفر بالعقيدة الجديدة للدولة. وهذا ما عبر عنه بالفعل. لقد كتب بالعبرية وبحروف ضخمة على لافتة كبيرة فوق خيمته "إننى لم أكن ذلك النوع من اليهود الذى يرغبون فيه".

الفصل الرابع
لماذا لا يتحقق السلام؟

سأقول الآن شيئًا فظيعًا، سأقوله لأن عليَّ قوله، وليس لأى سبب آخر. بالطبع أعرف أن الجميع سيكره ذلك، كما سيكرهوننى لما سأقول. (لا تضحك، فقد أطرق بابك وأطلب الاختباء لديك). لكن أى يهودى غير إسرائيلى، لا يعانى من أى أمراض نفسية، يمكنه حل مشكلة السلام الإسرائيلية فى عشر دقائق، لو فكر تفكيرًا مركزًا. ومقارنة بمشكلة قبرص أو أيرلندا الشمالية ،على سبيل المثال، فهذا يشبه تناول قطعة من كعكة البابكا التى يتم تناولها مع الكعكة.

أولاً، دعونا ننظف المائدة، حيث يبدو أنه لا مكان للكعكة أو للقهوة فى تلك الفوضى من الأساطير. ولكى نكون منصفين، دعونا نبدأ بالجزء الذى يخصنا؛ لأن الناس فى الأراضى المقدسة لن يقتربوا من أية اتفاقية دون مساعدة الولايات المتحدة. فى بلدتى الصغيرة، عندما أخبر الناس أننى أضع كتابًا عن العرب والإسرائيليين، فإن نحو نصف هؤلاء الأمريكيين الأخيار (النصف الذى لا يريد سماع المزيد عن الموضوع) سوف يهزون رءوسهم ويقولون شيئًا مثل: "حسنًا، إنهم يتقاتلون منذ مئات السنين". بصفة عامة، أفهم هذه الملاحظة كما يقصدون تمامًا على أنها دعوة للصمت. ولكن هذه الحقيقة خاطئة، وتؤدى إلى سلوكيات لا تساعد على حل المشكلة. إنها الطريقة الأمريكية اللطيفة لقول: الموضوع لا يعنينا فى شىء، ولا نستطيع أن نستوعبه. ولكننا الوحيدون القادرون على فهمه، ومنذ أن قام المقاتلون المقدسون بتفجير طائراتنا، أصبح من واجبنا أن نحاول. الحقيقة أن العرب واليهود عاشوا فى سلام، أو على الأقل فى هدوء فطرى، لمئات السنوات تحت حكم الأتراك، حيث كان كلا الطرفين يخشاهم ويكرههم على حد سواء. إن معاداة السامية (أو لنقل الإحساس بمعاداة اليهود) تم استيراده من

أوروبا . تماماً مثل الصهيونية ، وليس من قبيل المصادفة أنهما أصبحا راسخى الجذور فى الوقت نفسه.

كما أن هناك حقيقة أخرى، وهى حقيقة باعثة على الأمل بالنسبة لى، تتمثل فى أن العنف المنظم من جانب الفلسطينيين ضد اليهود، لم يبدأ مع وصول اليهود الأوائل. ولا حتى مع وصول الصهاينة الأوائل إلى فلسطين. كما لم يبدأ مع ولادة الدولة اليهودية، ولا فى عام ١٩٦٧مع انتصار إسرائيل واستيلائها على كل أرض فلسطين. لقد بدأ برنامج العنف على نطاق واسع ضد اليهود الإسرائيليين باعتبارهم يهوداً، وخاصة ضد المدنيين. بدأ مؤخراً. فقط بعد أن بدأت الدولة اليهودية برنامج المستوطنات، والمصادرات، والاغتيالات. بدأ إطلاق النار والتفجيرات الانتحارية، بعد تحول سياسة إسرائيل تجاه فلسطين والعرب الذين يعيشون فيها، وبعد أن أصبح تبرير اليهود لمصادرتهم واستيلائهم على الأرض واحتلالهم وعنفهم للحفاظ عليها، على أساس كونهم يهوداً. وعلى أساس الوعد الإلهى بهذه الأرض.

أعتبر هذه الحقيقة باعثة على الأمل، لأنها تعنى لى أنه لا حاجة إلى حرب ضد اليهود لمجرد أنهم يهود على أرض فلسطين. إن إحدى الأساطير التى تزدحم بها المائدة هى الإصرار - غالباً من قبل الصهاينة الأمريكيين الذين لا يعرفون شيئاً - على أن جذور الصراع دينية. فالفلسطينيون كما يدعى البعض يهاجمون إسرائيل لأنهم يكرهون اليهود. وعلى ذلك، ومن منطلق هذه الدائرة المغلقة والمريحة من "المنطق"، فإن جماعات المقاومة الإسلامية المتطرفة (حماس هى الأولى فى هذا المجال) احتلت الصدارة فى حربها الإرهابية ضد إسرائيل؛ لأن الإسلام يأمرهم بكراهية اليهود الكفرة. وهذه دائرة مفرغة من جنون الاضطهاد "من أجل تقديم الدليل" ولا ترضى سوى صقور الصهاينة: لأنها تؤكد على اعتقادهم العميق: العالم كله ضدنا. إذن فلا يهم ما نفعله. وهذا لا "يبرر" فقط كثيراً مما تفعله إسرائيل فى الصراع، بل أيضاً يسهم فى تصوير الأمر للأمريكيين، على أن الدعم (الأعمى) لإسرائيل يمثل ضربة ضد التعصب الدينى والإرهاب. ومن الخطورة بمكان، الجدل حول ذلك. لأنك لو حاولت دحض ذلك، أو التساؤل عما تفعله إسرائيل، ستتهم بكراهية اليهود. ولكن، فلننته من هذا الموضوع، هذه كذبة كبرى.

فى المقام الأول، الإسلام لا يحض على كراهية اليهود. بل يكرس عميق احترامه (الاحترام الأسمى من بين غير المسلمين) "لأهل الكتاب"، ألا وهم المؤمنون بالكتاب المقدس، من المسيحيين واليهود. لماذا يعتبر المسلمون القدس أحد أماكنهم المقدسة؟ ليس لأن المسلمين يرغبون فى تعكير الجو وسلبها من اليهود والمسيحيين، ولكن لأنها طبقًا لكتابهم المقدس، هى مسرى النبى محمد إلى السماوات لكى يريه الله آياته. لكن لماذا من القدس؟ لماذا لم يسر من مكة؟ لأنه قام بجولة ليتكلم مع رفاقه من الأنبياء، موسى وعيسى. بالتأكيد هناك كارهون لليهود من بين الفلسطينيين. هناك الملايين من الفلسطينيين وعشرات الملايين من المسلمين، والعديد منهم متعصبون لدينهم، لكنهم لم يتعلموا هذا التعصب من الإسلام.

وإذا تحدثنا عن الإسلام الصحيح، سنجد أن الصهاينة الذين حاولوا إفزاع العالم بفكرة الجمهورية الإسلامية فى فلسطين، قد فعلوا ذلك دون سند من الحقائق الواقعية. وغالبًا ما يلوم الملتزمون شعب فلسطين باعتباره من أقل المسلمين تمسكًا بالإسلام. إنهم نادرًا ما يصلون، ويشربون الخمر، وتخرج نساؤهم للعمل والمدارس برءوسهن مكشوفة. وهم ليسوا من حفظة القرآن. إن شبح الدولة الثيوقراطية المفترض على النمط الإيرانى، هو أمر مثير للسخرية بالنسبة لمعظم الفلسطينيين. وانعكس هذا منذ البداية على الحركة التى عبرت عن حلمهم بالدولة. فلم تكن منظمة التحرير الفلسطينية حركة إسلامية، ولكنها قومية ويسارية وغير دينية مثلها مثل الصهيونية، تتجه أيديولوجيتها نحو موسكو، وليس مكة.

تحدثت مع دانى روبنشتاين، مراسل جريدة هاآرتس المحنك المختص بالشئون الفلسطينية. وبصفة خاصة عن النزعة الإسلامية الجديدة وموجة العنف الأخيرة. أخبرنى عن زياراته للخليل، وهى البلدة الفلسطينية الأكثر تحفظًا وتشددًا، بلا محطات إذاعة، ولا تليفزيون فى البيوت، ولا حتى سينما. لكن هناك مكتبة. ويتوقف عندها دانى دائمًا. قال لى: "فى الأيام الخوالى كنت أتوقف هنا وأشاهد الأولاد الفلسطينيين يجيئون ليطلبوا كتبًا عن ماركس وإنجلز، ولينين وستالين. أما الآن فإنهم يطلبون جميعًا كتبًا إسلامية. لكنهم الأولاد أنفسهم،

والصراع نفسه. إنه مازال صراعًا على الأرض، والتغيير الوحيد الذى حدث هو إدراك من يقود القتال".

إذن ماذا حدث؟ كيف ينظرون إلى الجماعات الإسلامية على أنها تقود الصراع الوطنى؟ حدث هذا فقط منذ وافق عرفات على عقد اتفاق مع الإسرائيليين. لقد أدى ذلك إلى دخوله فلسطين، حيث حافظ على منصبه من خلال خليط من المحسوبية والعنف. لكن فى السنوات العشر التالية على وصوله. لم يجلب إلى الشعب الفلسطينى شيئًا سوى المزيد من البؤس. لقد تضاعف عدد المستوطنات اليهودية، وكل أسبوع يضيع المزيد من الأرض. ولم ينته الاحتلال بل صار أكثر قسوة. ولم تجلب سياسة منظمة التحرير الفلسطينية التفاوضية سوى خفى حنين، وتم اعتبار عرفات واقعًا فى شباك سادته الإسرائيليين. أما الجماعات الإسلامية، التى رفضت الاتفاق، فقد أخذت تصيح فى جذل: ألم نقل لكم؟ وفعلوا الشىء الصواب: على النقيض من عرفات وبطانته، فقد استخدم الإسلاميون المال الذى لديهم فى تمويل برامج (مدارس وعيادات ورعاية يومية) أزاحت بعض الحمل عن كاهل الناس. وتم النظر إليهم على أنهم بديل "نظيف". لكن هذا يستدعى سؤالاً: كيف حصلوا على أموالهم فى المقام الأول؟ كيف بدأ كل هذا الرعب؟ حسنًا، فلنأخذ حماس على سبيل المثال، لقد أنشئت ومولت سنوات بمساعدة الإسرائيليين، الذين رأوا أن هذه الجماعة ستحقق نوعًا من التوازن وتعمل كشوكة فى جنب عرفات.

سنحاول التخلص من أسطورة أخرى ألا وهى اعتقاد معظم الإسرائيليين، والصهاينة الأمريكيين، أن إسرائيل قدمت لعرفات القمر (أى كل ما يريده، أو ما كان يجب أن يريده) فى جولة بيل كلينتون من المفاوضات فى كامب ديفيد. والطريقة التى يقول بها الإسرائيليون ذلك تظهر عبقريتهم القومية فى "التفسير أو الدعاية". فحسب روايتهم، عرض إيهود باراك، رئيس وزراء إسرائيل، على عرفات سبعة وتسعين بالمائة من الأرض! وهذا الأبله عرفات رفض العرض ("لقد حاولنا إعطاءه بلدًا، بهذه البساطة!"). والسؤال الوحيد الذى يتركه الإسرائيليون مفتوحًا هو ما إذا كان على عرفات عندئذ أن يهب خارجًا أمام ثورة شعبه ويقود الحرب الإرهابية التالية، أم أنه، بدلاً من ذلك بينما يبتسم ويتظاهر فى محادثات

السلام. كان يخطط بالفعل لشن حملته القذرة لقتل اليهود. لم يقرر الإسرائيليون أبدًا ما إذا كان يعتبرونه أحمق سيئ الطالع لا يدرك شيئًا، أو داهية شريرًا سافكًا للدماء. لكن أيا كان الأمر، فإن هذا الأحمق من وجهة نظرهم يقوم بقتل الأطفال على الرغم من سخاء إسرائيل الذى لا يصدق.

إنه رقم من السهل أن يلصق بذاكرتك، ثلاثة بالمائة فقط! إنه خصم عادة ما يقدمه التجار عن طيب خاطر إن دفعت الفاتورة فى موعدها، مبلغ ترده شركات بطاقات الائتمان كنوع من الحافز! من يدخل حربًا مقابل ثلاثة بالمائة؟ إنها همجية وعدم تحضر. إنه جحود وعدم امتنان! إنه تعامل مع الأمور بغباء شديد لدرجة التعمد، على نحو يشبه الجدل مع قطعة صابون من النوع الفاخر. إنها قطعة جميلة من دعاية الهاسباراه.

لكن ما تلك الثلاثة بالمائة الباقية وماذا تعنى؟ الواقع أن الجانب المرير من محادثات السلام، هو أن الإسرائيليين كانوا يعرضون الاحتفاظ بستة بالمائة من الضفة الغربية. ثلاث مجموعات من المستوطنات (التجمعات الضخمة)، والطرق السريعة الجديدة التى تفضى إليها. ومقابل ذلك يقدمون للفلسطينيين أرضًا صحراوية فى إسرائيل، تساوى ثلاثة بالمائة. لكن الخريطة الناتجة عن الاحتفاظ فقط بهذه الستة بالمائة. كانت، فى الواقع، تقدم "دولة فلسطينية" عبارة عن ثلاثة تجمعات "جيتوهات" صغيرة، يفصلها عن بعضها البعض التحصينات الإسرائيلية، أو الطرق التى يحرسها الجيش الإسرائيلى، أو حواجز نقاط التفتيش. بمعنى آخر، يظل المواطن الفلسطينى عاجزًا عن التجول بحرية فى بلده، لنقل مثلاً من نابلس إلى الخليل (ناهيك عن جيتو غزة المعزول تمامًا دون موافقة الإسرائيليين. بالإضافة إلى ذلك، اقترحت إسرائيل الاحتفاظ بخمس قواعد عسكرية فى وادى الأردن على الجانب الشرقى من فلسطين، واستمرار السيطرة الكاملة على المجال الجوى فوق "فلسطين"، وخزانات المياه الجوفية تحت "فلسطين"، وكل الحدود البحرية والبرية لـ "فلسطين".

كان تعليق عرفات الساخط على ذلك فى مقابلة لاحقة هو"إنها أقل من مقاطعة فى جنوب أفريقيا". لقد اقترح الإسرائيليون الاستمرار فى الاحتلال، مع اسم أجمل وهو "فلسطين". ثم اندهشوا وشعروا بالإهانة، عندما حمل عرفات حقيبته الصغيرة واتجه إلى وطنه.

إن فشل محادثات السلام هذه والحرب الإرهابية التى اندلعت بعدها تم التكتم على سببها فى إسرائيل وفى كل مكان، من جانب الصقور والحمائم على حد سواء، لكى يثبت كل منهما صحة وجهة نظره. فقد اعتبر الجناح اليمينى فى إسرائيل "رفض" عرفات وبداية الانتفاضة الثانية، دليلاً على عدم إمكانية تحقيق السلام فالمفاوضات نفسها كانت غلطة، ولا يمكن أن تكون ممكنة، بينما عرفات يهيمن على السياسة الفلسطينية. "ليس لدينا شريك سلام!". أما محللو الجناح اليسارى فقد واجهوا مهمة أصعب ألا وهى تفسير الفشل، والهجمات الإرهابية التى تلته، مع تأكيد أن محادثات السلام (والسلام) هى السياسة المثلى. حاول المؤرخ القدير توم سيجيف التصدى للإجابة على هذا السؤال فى إحدى المقابلات التى أجريت معه حيث قال: "عندما حاول باراك إجبار الفلسطينيين على إعلان نهاية الصراع، وفى الوقت نفسه لم يكن راغبًا فى تقديم أية تنازلات كبرى، كان ذلك مقدمة لفشل مؤكد. فلم يكن من الممكن أن ينظر فى عيون ثلاثة ملايين لاجئ فلسطينى ويقول: "لقد انتهى الصراع وستظلوا لاجئين". وهذا لا يعنى أن عرفات ليس شريكًا فى السلام، ولكنه تلقى معاملة خاطئة".

ولكننى لست واثقًا أن ذلك كان على سبيل الخطأ، بمعنى أنه لم ينتج عن إهمال. كما أننى أنا لست واثقًا من صحة القول بفشل محادثات السلام. هذا لأن إسرائيل حصلت على ما رغبت فيه، أو فى الواقع ما عرضته، ألا وهو استمرار الاحتلال، دون أن تكلف نفسها مشقة تغيير الأسماء على الخريطة. عاد جيش الدفاع الإسرائيلى إلى نقاط التفتيش، واجتاح الأقاليم "الكانتونات" التى تم تسليمها بمقتضى اتفاقيات رابين إلى السلطة الفلسطينية. كما عاد ذلك الأحمق ياسر عرفات إلى رام الله، وتحول مرة أخرى من ساذج رعديد إلى بطل صنديد. وعاد كلٌّ إلى تجارته المعتادة، وعندما أقول تجارته، فأنا أعنى ذلك. وهذا هو الشيء الفظيع الذى يجب علىَّ قوله، ولن يفعل أحد شيئًا آخر.

لماذا لا يوجد سلام؟

ومن يريد السلام؟

دعونا نخلع القفازات. كانت "محادثات سلام" زائفة من البداية، بدءًا من الفكرة الأساسية المحركة لسلوكيات الإسرائيليين وتصرفاتهم: "حسنا سنعطيهم بلدًا. ولكنه بلد من اختراعنا. هذا كل ما سنقدمه". من هم حتى يمنحوا دولة؟

إن الفلسطينيين دولة. وهم يعيشون فى بلدهم.

هذه بالطبع مسألة مرتبطة بالقانون الدولى، ومصدق عليها ليس مرة واحدة، بل مرات ومرات من قبل الأمم المتحدة. ليس فقط من جانب الجمعية العامة وأغلبيتها المضادة لإسرائيل من دول العالم الثالث الصغيرة الذين أطلق عليهم بوش الأب ذات مرة "دول النقانق الصغيرة المتشكية"، لكن أيضًا من جانب مجلس الأمن، وبموافقة الولايات المتحدة، وهو تصويت يضاهى التصويت نفسه الذى حصلت على أساسه إسرائيل على شرعيتها الدولية.

لكن خلف هذا كله، أو تحته، هناك حقيقة أخرى واضحة على نحو مضحك لدرجة أن الجميع يستطيع رؤيتها، وبافتراض أنهم قادرون، ولو للحظة، على رؤية اليهود والعرب على أنهم بشر لهم حقوق متساوية على هذا الكوكب. بمعنى آخر إن الأمة الوحيدة التى لا ترى ذلك هى إسرائيل.

فعندما يتحدث الإسرائيليون عن فكرة المساواة بين اليهود والعرب فإنهم يقولون: "علينا الحديث معهم حديث الند للند"، بمعنى ألا يحقر أى من الطرفين من شأن الآخر. والمشكلة هى أن القليل من الإسرائيليين يستخدمون هذه العبارة، وهم الاستثناء وليسوا القاعدة. على سبيل المثال، أرجع إيهود باراك، رئيس الوزراء الإسرائيلى، فشله إلى ما رآه على أنه عجز الفلسطينيين عن مواجهة الحقيقة، حيث صرح للمؤرخ المعروف بينى موريس "إنهم نتاج ثقافة لا يولد الكذب فيها أى شعور بالانزعاج". وأضاف "إنهم لا يعانون من مشكلة ترديد الأكاذيب. التى نجدها فى الثقافة اليهودية والمسيحية. ويعتبرون الحقيقة مسألة لا صلة لها بالموضوع، وهم يرون أنه ليس هناك ما يسمى بالحقيقة".

بالطبع الغطرسة هى اسم باراك الأوسط. لكن سلوكه نحو الفلسطينيين هو السلوك الإسرائيلى الطبيعى المعتاد، ويتماشى مع تقليد راسخ للزعماء الإسرائيليين ينطوى على القول بأن الفلسطينيين بلا قيم، أو لا يرقون إلى

مستوى البشر. قال عنهم مناحم بيجن إنهم "بهائم تسير على قدمين" وكان عرفات "البهيمة التى لها شعر على وجهها". أما رئيس الأركان فى عهد بيجن، رفائيل إيتان، فقد أوصى ببناء المزيد من المستوطنات اليهودية قائلاً "عندما نستوطن الأرض، فكل ما سيقوم به العرب هو التخبط على غير هدى كالصراصير المحبوسة فى زجاجة". أما خليفة بيجن، إسحق شامير، فقد شبه الفلسطينيين بالوباء ولكنهم، كما تعهد للمستوطنين فى خطبة عام ١٩٨٨ "يجب أن يسحقوا كالجراد. وتحطم رءوسهم على الجدران والصخور". أما مدخل باراك إلى تلك المسابقة الكلامية فقد كان: "تماسيح، كلما أطعمتهم، كلما رغبوا فى المزيد". ويستمر هذا التقليد لأنه مفيد للعمل، فيمكنه أن يسهم فى كسب أصوات الناخبين.

تستطيع الاستماع إلى الكلام نفسه طوال أيام الأسبوع. تقريبًا فى أى وقت تسأل فيه أى يهودى لماذا يموت الكثير من العرب، حتى الصغار والأطفال الرضع، فى الصراع؟ فيقول لك: "إنهم يدفعون أطفالهم أمامهم، لكى يشوهوا سمعتنا. فالحياة لا تعنى لهم شيئًا". فإذا كان الفلسطينيون أقل إنسانية ، على الأقل أقل إنسانية من اليهود. إذن فكيف نجد للاحتلال أى معنى؟

ومن خلال هذا الأسلوب فى التفكير فقط، يمكن "لمقترحات السلام" الإسرائيلية أن يكون لها أى مغزى. ولكن لم تحاول أية حكومة إسرائيلية تحقيق السلام من خلال صيغة يعلم الجميع أنها عادلة أن تعيد إليهم الأرض.

لا أعنى إعادة الأرض فيما عدا المستوطنات. أو الطرق أو القواعد العسكرية، بل أعنى إعادة الأرض بأكملها. الضفة الغربية وقطاع غزة. كل القدس الشرقية وقبة الصخرة للعرب، والقدس الغربية والحائط الغربى. وليكن هذا هو انتصارهم لليهود. وبعد ذلك، يمكننا العمل على التفاصيل: تبادل الأحياء، وحقوق المياه، وربما الحواجز. هل سيؤدى ذلك إلى الفوضى؟ الكثير من الفوضى. ولكن هل ستكون أسوأ مما لديهم الآن؟

لا يوجد سياسى إسرائيلى معروف يمكنه اقتراح ذلك، لأنه بلا مقابل. فإسرائيل تتخلى عن الكثير! والفلسطينيون. عم يتخلون؟ حسنًا. من الضرورة بمكان أن نفكر فيما تخلوا عنه بالفعل. لقد اعترفوا بإسرائيل، وسلموها سبعة

وثمانين بالمائة من الأرض التى كانت بلدهم. كما أسقطوا "اللاءات الثلاث" الشهيرة (لا سلام، لا اعتراف، لا تفاوض). كما أنهم قد يتخلون عن مطالبتهم بمنازلهم القديمة فى إسرائيل ، يمكن للإسرائيليين المساعدة فى ذلك من خلال اعتراف "عنترى" بمسئوليتهم عن اللاجئين. وعلى ذلك، يمكنهم أيضًا منحهم بعض المال قائلين "انظروا هذه المستوطنات الرائعة التى نهجرها؟ وتلك المدينة المتألقة الجديدة؟ إنها منازل جديدة للاجئين!".

على أية حال، لنعد إلى عالم الواقع، فلا يوجد زعيم إسرائيلى يستطيع أن يتحمل تبعة النظر إلى الفلسطينيين كأمة. وشعب له حقوق مساوية لحقوق الإسرائيليين. صحيح أنهم تقدموا بعض الشىء عن عصر جولدا مائير حيث لا يوجد شىء اسمه الشعب الفلسطينى، لكنها كانت ثلاث خطوات للأمام، اثنتان ونصف منها للخلف. ففى مفاوضات كامب ديفيد الأولى. تحت رعاية جيمى كارتر وافق مناحم بيجن، الحائز على جائزة نوبل للسلام، على "حكم ذاتى" للفلسطينيين، ولكن ليس قبل أن يوقف الاتفاق فى الساعة الحادية عشرة من أجل تغيير الوثائق (المكتوبة بالإنجليزية) التى كانت تتحدث عن "الحقوق الشرعية للشعب الفلسطينى" حيث أصر على كتابة كلمة شعب "people" بحروف صغيرة.

وفى منتصف التسعينيات، اعترف إسحق رابين بالشعب الفلسطينى، وتعرض للقتل بسبب ذلك. لكن بالنسبة لحقوقهم. وكان هذا هو السبب الأساسى الذى أراد عقد الاتفاق من أجله، فقد كان يرغب فى إعفاء جيش الدفاع الإسرائيلى من مسئولية قمعهم. وقد صرح لجريدة يديعوت أحرنوت، اليومية الذائعة الصيت، قبل أسبوع من توقيع إعلان المبادئ قائلاً: "إننى أفضل أن يتأقلم الفلسطينيون مع مشكلة تعزيز النظام فى قطاع غزة. فالفلسطينيون سيكونون بحال أفضل مما هم معنا، لأنهم لن يسمحوا بالاستئناف أمام المحكمة العليا، وسوف يمنعون الاتحاد الإسرائيلى للحقوق المدنية من انتقاد الظروف الموجودة هناك من خلال منعه من دخول المنطقة. سيحكمون بطريقتهم الخاصة، ويعفون. وهذا هو الأهم ، جنود الجيش الإسرائيلى من مسئولية فعل ما يفعلونه".

المهم، إنها مهمة قذرة، كلب حراسة، لكنها أخرجت عرفات من تونس. جعلته وأصدقاءه أثرياء، ملوك رام الله. حتى غضب عليه الإسرائيليون. لم يحافظ

عرفات على استقرار الأوضاع، فدمروا كل ما لديه، وحولوه إلى ركام لا نفع له. والآن يقولون إنهم لا يعرفون كيف يتصرفون معه.

ثم هناك الانسحاب الإسرائيلى، من كل الضفة الغربية وغزة خلال خمسة أعوام، وهذا لن يحدث أبدًا. لذا فالجميع سعداء.

دعنا نفكر فى الأمر. إنها قصة كل خطة سلام جديدة، حيث لا تنجح فيما يتعلق بالجانب الخاص بالانسحاب، ثم تواصل الأشياء الفظيعة الحدوث. ولنفس السبب، نجد آرييل شارون يسير على خارطة طريق چورج بوش، فيما عدا أن لديه بعض التحفظات، وكما تعلم بعض التعديلات، والتصحيحات، والتغييرات، وبعض الأمور التى تجب مناقشتها بين الطرفين لبعض الأسابيع أو السنوات، حتى يشل بعض الغضب الجديد أى ضغط وشيك، أو يكتسح أى تفكير فى السلام. إنها حرب! كيف نتحدث إليهم الآن؟ حتى يعود شارون إلى مزرعته، أكبر مزرعة خاصة فى إسرائيل، التى أسهم فى دفع ثمنها دافعو الضرائب الأمريكيون، ويتجه صديقه چورج إلى مفوض البيسبول، عم كُنَّا نتحدث؟ أجل، عن خارطة الطريق. حسنًا، إنها تحتاج إلى عامين حتى يبدأ العمل بها، أليس كذلك؟

وهذا يعود بى إلى الركن الخاص بى فى المائدة. منذ بدأت أرقب ذلك السيرك الدموى، يؤسفنى القول إن هذا تم على مدى خمسة وعشرين عامًا. وإن الأمريكيين دائمًا لديهم خطة سلام يدفعونها للأمام، ومبعوث خاص، ورحلات مكوكية، واجتماعات دائرة مستديرة، وتقارير إلى الحلفاء عن آخر المباحثات الخاصة، ولا يعقدون العزم أبدًا على حسم الأمور، ليس منذ غادر جيمى كارتر مقعد السلطة، أو منذ بعض الشهور التى أراد فيها بيل كلينتون أن ينسى العالم اسم مونيكا ليونسكى. كان كل ذلك فقاعات سرعان ما تتبخر فى الهواء، وقعقعة دون طحن، واعتبر الإسرائيليون هذا العجز موافقة ضمنية (وهذا صحيح)، على فعل ما يريدون. وبين الحين والآخر، تصدر واشنطن إدانة لحادث قتل، أو مصادرة للأرض. ولكن لا يمكنك أن تطلق على ذلك ضوءًا أحمر، أو ضوءًا أصفر أشبه بلافتات "ممنوع السير" التى تبدأ فى الوميض. ومنذ شهور قليلة فقط، أدان الرئيس بوش بكل حزم ما يحدث، لأن صديقه آرييل شارون لم يكف

عن بناء الحائط العظيم باستخدام الدولارات الأمريكية بالطبع، وكان من الواضح أن خارطة الحائط ستمحو خارطة الطريق. كان هذا مثيراً للحرج! وعلى ذلك، قام بوش بتخفيض ضمانات قروض إسرائيل. وقد حصل على بعض المانشيتات فى الصحف، ووصل إلى البيت الأبيض طن من رسائل الصهاينة الغاضبين، وأطنان من الرسائل الإلكترونية. لكن الحائط أخذ فى الارتفاع بسرعة مضاعفة كما أعلن شارون، لأنه اتضح أن تجميد ضمانات بوش سوف يكلف ميزانية شارون ثلاثة ملايين دولار. بينما تحصل إسرائيل كل عام على ثلاثة ونصف، أو أربعة، أو حتى خمسة مليارات دولار كل عام، فهل يضيرها قطع ثلاثة ملايين عنها؟ يا له من مبلغ كبير!

إننى أتعجب لماذا لا يحبنا هؤلاء العرب الأشقياء!

بالنسبة لهذا الموضوع، عندى بعض النصائح ، جميعها غير جذابة، للفلسطينيين، خاصة قيادتهم عرفات وصبيانه، وإن كنت أعرف أنهم لن يبالوا بها. ولكنهم يجب أن يفعلوا. من هنا تبدأ النصيحة: قضيتكم لها القليل من المساندين فى أمريكا، ربما عليكم سماعهم، وإن كان على سبيل التغيير.

أولا، لنبدأ بالأسهل: حاولوا ألا تعتمدوا كثيرا على الحظ. على سبيل المثال، المرة القادمة التى تدخلون فيها فى مفاوضات موسعة من ذلك النوع الذى يتباهى به الوسيط الأمريكى فى حديقة البيت الأبيض ويعتبره انتصاراً شخصيا، حاولوا الذهاب ومعكم فريق تفاوض قوى. اجلبوا معكم خريطة أو اثنتين على الأقل. ربما المرة القادمة، تأتون بمحام حقيقى، وشخص قادر على الحديث بالإنجليزية أمام التليفزيون، وإن كان معكم شخص عبقرى فى الفريق مثل حنان عشراوى، أو دكتور حيدر عبد الشافى، فلا تجعلوهم يعودون إلى الوطن بينما يبقى مهرجو الفريق ليظهروا على السى إن إن كل يوم. إنه مستقبل أطفالكم، وليس بروفة أداء صوتى فى الأوبرا.

لا تحاولوا خداع الوسيط، فهو قد يبدو أحمق، ولكن لا يجوز أن تخدعكم المظاهر. وإذا قررتم الكذب عليه، فانتبهوا إلى التفاصيل. على سبيل المثال، عندما أمسك الإسرائيليون بذلك القارب المكتظ بالأسلحة والمتجه إلى فلسطين. سيدى الرئيس، إن كنت تنوى إخبار چورج بوش وجها لوجه بأنك لا تعرف أى

شىء عن تلك السفينة، فلا تدع الإسرائيليين يدخلون إلى منزلك ويعثرون على الأوراق التى تظهر أنك قد قمت بتأجير السفينة اللعينة من خزانة أموالك الخاصة يمكن حرق الأوراق كما تعرف!. بالمناسبة أيضًا، لا تحاول خداعنا. لا تدين آخر العمليات الانتحارية، ثم تطالب وزير تعليمك فى اليوم التالى بإرسال فاكس إلى جميع المدارس بسيرة القائم بالعملية الانتحارية، حتى يدرس الطلبة سيرة حياة بطلهم الجديد. ربما عليك أيضًا التوقف عن إرسال الأموال لرشوة عائلة القائم بالعملية الانتحارية.

وبما أننا الآن قد وصلنا إلى الموضوع الأهم، فإن عمليات التفجير الانتحارية تكتيك حقير أخرق. لا أعنى أنه حقير أخلاقيا فقط، وإن كان كذلك بالفعل، ويقتل المدنيين دون تمييز، لكن أيضًا ما أعنيه هو أنه أخرق بالنسبة لقضية الشعب الفلسطينى، وهدفه فى الحصول على دولة.

لسبب واحد سيدى الرئيس، وهو أنه جلب لك أرييل شارون وأعاد انتخابه. ولا يهم مدى مساندته لك فى حياتك المهنية ، وأنا أدرك أنك ربما تحتاجه قدر حاجته إليك ، لكنه لم يكن ودودًا جدا مع شعبك. إن أعداد الموتى، وأشباه الموتى تعد بالآلاف، ومن على قيد الحياة لا يقدرون على تحمل نفقات المعيشة. إن أى تفجير انتحارى سوف يوفر له ذريعة لكى يفعل ما يبغى. لا يهم إن كان القائم بالتفجير من الخليل، "فمن أجل الانتقام" سوف يرسل شارون طائراته أو قواته لقتل أهالى غزة، فهو يعرف أن بقية العالم لا تعرف الكثير عن الجغرافيا. وعلى الرغم من خطبه الكئيبة كل شهرين، سواء كان فى حاجة إلى ذلك أو لا عن "التنازلات المؤلمة" التى قد يقدمها يومًا ما من أجل السلام، فإذا حدثت المعجزة وحصلت على دولة وشارون فى السلطة، فسوف تصلك مهلهلة ممزقة الأوصال، ولن تسير سيارتك المرسيدس فيها أبدًا بسرعة تزيد على سرعة السلحفاة.

لكن ليس شارون فقط هو من جاء به القائمون بالعمليات الانتحارية، هناك المزيد، والأسوأ. فقد أرسلت ثلاثة أعوام من التفجيرات الانتحارية رسالة إلى العالم أجمع. لأن بقيتنا. من غير المسلمين. لا ينظرون إلى العملية الانتحارية باعتبارها عملا بطوليا قام به شاب صغير شجاع فى طريقه إلى الجنة والحور العين، فإننا نراه طفلاً تم إرساله والديناميت حول جسده، بواسطة محرضيه فى

الحركة الفلسطينية . لأنهم يعتبرون أن حياته لا قيمة لها بصرف النظر عما إذا كان هو يعتقد ذلك سوى بقدر ما يقتل من يهود أى يهود يصل إليهم. لا يهم من. بمعنى آخر، إن الدعاية السيئة التى أراد الإسرائيليون إيصالها إلينا عن الفلسطينيين على مدى الخمسين عامًا المنقضية قد وصلت. لذلك، كما يقولون فى نيويورك: "تتصحوا" يا عرب.

إليك فكرة أخرى! يمكنك القبض على من يخططون للتفجيرات. وفر لهم مساحة فى السجون من خلال عدم القبض على من يعارضونك! طريقة نظيفة، أليست كذلك؟ وإن علمت بوجود صبى يرى أن الله سيكافئه إذا مات فى سبيل قتل اليهود، قدم له يد العون. يمكنك إرساله إلى العيادة النفسية! فالدكتور إياد السراج يمكن أن يكون مديرًا ممتازًا لهذه العيادة ،هل تذكره؟ لقد سجنته، وأذقته أصناف العذاب. المال؟ ليس بالمشكلة الكبيرة! يمكنك الاستعانة ببعض الأسلاب التى اعتاد الإسرائيليون منحك إياها، فى حسابك السرى فى تل أبيب.

أرأيتم؟ يا لها من قفزة للأمام، إنها حرب زائفة، أو على الأقل ليست كما نعتقد. سلسلة من رؤساء الوزراء الإسرائيليين: نيتانياهو، وباراك، وشارون الجميع منذ قتل رابين وبعد فشل خلفه شيمون بيريز فى الوصول إلى السلطة ينحون باللائمة على عرفات بشأن الإرهاب فى إسرائيل، والتفجيرات الانتحارية، والكومة المتزايدة من قتلى اليهود.

لقد أقسم كل منهم فى وقت من الأوقات على تلقين عرفات درسًا لن ينساه، وأعلن فى وقت من الأوقات الحرب على الإرهاب، أو على السلطة الفلسطينية، أو على عرفات شخصيًا. مات الكثير من الفلسطينيين فى كل فترة من هذه الفترات، وفقد عدد أكبر أرضهم. لكن الإرهابيين لم ينفذوا أو يقل عددهم. مازالت السلطة الفلسطينية موجودة. وما زال عرفات فى السلطة. وفى وقت لاحق، حاصره آرييل شارون وأعضاء وزارته أياما، حيث كان يفكر ما إذا كان جيش الدفاع الإسرائيلى سيواصل حبسه فى أطلال المقاطعة، أو سيعتقله وينفيه من فلسطين. أو يقتله ببساطة. وعندما خرج أعضاء وزارته من الحصار، أفادت الأنباء أن الخيار الوحيد للحكومة هو النفى، ولكنه لم ينف بالطبع. إن عرفات ركن ركين فى بقاء الوضع على ما هو عليه، وهو ما تريده إسرائيل.

إن كل حكومة إسرائيلية، فى ظل حكم كل من رؤساء الوزراء هؤلاء، كانت تمول السلطة الفلسطينية، التى "تشن الحرب عليها"، وتدفع لعرفات أيضًا. إن "الحساب السرى" لعرفات فى بنك ليموى فرع تل أبيب، الذى تم اكتشافه الآن وأغلق على الأرجح لم يكن سريًا أبدًا بالنسبة للإسرائيليين. كان يناسبهم لكى يضعوا فيه النقود. كانوا جميعًا على علم بأن تلك الأموال خارج حسابات السلطة الفلسطينية. كانت أموال الرئيس، التى تشترى له الولاء، أو تدفع للأصدقاء، أو تقدم كبقشيش سخى لعائلات "الشهداء". هل أزعج هذا اليهود المحاربين؟ ليس إلى درجة ملحوظة. حتى أصدقاؤهم الأمريكان معهم بدأوا لأسباب خاصة بهم فى الحديث عن فساد السلطة الفلسطينية. عند تلك النقطة سألت كارولين جليك، الصحفية بجريدة جيرو زاليم بوست، مبعوث الولايات المتحدة الخاص دينيس روس: لماذا لم تتحدث الولايات المتحدة عن فساد عرفات من قبل؟ أجاب روس قائلاً: "لم يبد أن الإسرائيليين كانوا مهتمين بهذه المشكلة من قبل".

كان الإسرائيليون يعرفون منذ فترة طويلة بطريقة عمل عرفات. وكيف يرشى الآخرين هنا أو هناك، تحية لعائلة ما، أو ليعترف به زعيم إحدى العشائر، أو يرسل بالهدايا عشرة أو عشرين أو خمسين ألفًا) إلى ضباطه الأوفياء لمساعدتهم فى بناء فيلا جديدة، أو بمناسبة فى زواج ابنه، أو لمساعدة الابن على التعلم بالسوربون، أو يغض الطرف عن المحاسيب الذين سرقوا الملايين (حالما يعرفون أنه عرف، فهو يضمن ولاءهم للأبد)، مما يجعل مساره ناعمًا، مثل قوقعة الحلزون التى تمشى ووراءها خط من السائل اللزج. وبحلول عام ١٩٩٣ عندما أبرموا الاتفاق الذى أعاده إلى فلسطين، كان الإسرائيليون يدرسون عرفات قبل ذلك بخمسة وعشرين عامًا. كانوا يعرفون كل شىء عنه، حتى تحليل وظائف الكلى والكبد الخاص به ، فتش الموساد مرحاضه بحثًا عن عينات من البول فى أحد فنادق أوسلو، وأعادوه إلى فلسطين لأنه حسبما كانوا يعتقدون بَدا ممن يعقدون الصفقات. وهم حانقون عليه الآن لأنه (كما يعتقدون) لم يلتزم بالصفقة التى أعادوه بموجبها إلى فلسطين.

ماذا كانت الصفقة؟ أولاً الجزء الذى يغضب الإسرائيليين: كان من المفترض أن يكون عرفات الشرطى الخاص بهم فى فلسطين. وقد عبر رابين صراحة عن

ذلك. حيث توقع الإسرائيليون من عرفات أن يقمع المقاومة الفلسطينية بنفس وحشية منظمة التحرير الفلسطينية التى جعلت منه عدو إسرائيل الأول. ولكنه فشل فى ذلك، ونكث بعهده. وعندما اتضح له استمرار المقاومة وزيادة حدتها دونه. لم يعد أمامه خيار سوى التصرف، مرة ثانية، قائدًا لها.

فلماذا وافق فى البداية على التصرف ضد تاريخ حياته والمنطق الوحيد لمنظمته؟ لماذا يعمل فجأة كحارس شخصى لمن احتلوا بلاده؟ هل كان حقًا مرتبكًا وحسب أنهم سيعطونه بلدًا؟ لم يكن هناك اعتراف "بدولة فلسطين" فى إعلان المبادئ الذى وقعه، لكن كان هناك اعتراف يهمه، اعتراف به هو. كان تركيز عرفات الأساسى فى مفاوضات سلام أوسلو ، وشرطه الأول والوحيد، ينصب على تغيير كلمة "المفاوضون الفلسطينيون" أو "الشعب الفلسطينى" إلى "منظمة التحرير الفلسطينية".

أما بالنسبة للبقية، فقد حصلت إسرائيل على كل ما تريد. وكل ما تحلم به. حصلت على السيطرة الكاملة على "الأمن" بالطبع والسيطرة على الحدود، والمياه، والهواء واستمرار تطبيق اللوائح العسكرية الإسرائيلية، أى الإطار القانونى للاحتلال، وكم هائل من الأراضى الجديدة. استولت على خمسة وثلاثين ألف أكر أصبحت فجأة "كلها قانونية" من أجل "طرق مرور" المستوطنين الجدد، التى سوف تبقى تحت سيطرة جيش الدفاع الإسرائيلى، وأراض جديدة أخرى، مع الاتفاق على اعتبار المستوطنات الإسرائيلية "كتلاً" واحدة. مما يعنى أن الأراضى الواقعة بينها قد أصبحت فجأة "مشروعة"، أيضًا. كما تم تقسيم باقى الضفة الغربية إلى مناطق أصغر، مائتين وسبع وعشرين "مقاطعة" تبعًا لتعداد منظمة العفو الدولية. مع سيطرة إسرائيل على كل منافذ الدخول والخروج. كما تم تقسيم غزة إلى ثلاثة "جيتوهات" بنفس الشروط. كما تسيطر إسرائيل على الناس والمنتجات فى الضفة الغربية وقطاع غزة. حيث لا يستطيع الفلسطينيون التصدير دون موافقة إسرائيل وهم عمليًا لا يمكنهم التصدير. كما تتحكم إسرائيل فى كل الواردات إلى الضفة الغربية وقطاع غزة. والواقع أن الفلسطينيين يجب عليهم الاستيراد من إسرائيل أو خلالها. وإذا تحرينا الدقة، نجد أن "اتحاد الجمارك" قد منح إسرائيل حق التحكم فى التعريفة الجمركية، وتحديد معايير وحصص الواردات

والصادرات. بمعنى آخر، أصبحت الأراضى المحتلة والعرب المقيمون فيها تجسيدًا نموذجيًا وقانونيًا لسوق أسير. وتقوم إسرائيل بجمع الضرائب والرسوم ثم تعيدها للسلطة الفلسطينية. أى أنها من يعطى عرفات أجره.

بإيجاز، فإن ما حصلت عليه إسرائيل من اتفاقية أوسلو كان تقنينًا، وإضفاءً للشرعية واستمرارًا لاحتلالها للضفة الغربية وقطاع غزة، على الأقل لبعض الأعوام المقبلة. (بالطبع، كان من المفترض أن تسحب إسرائيل فى المقابل قواتها المسلحة خلال هذه السنوات. لكن هذا لم يفلح، وأبقت فقط على الأجزاء التى تريدها. ولا عجب أن باراك قدم الكثير من هذه الأشياء فى كامب ديفيد من أجل "اتفاق الوضع النهائى". ولا يثير الدهشة أنه شعر بالصدمة والرعب عندما لم يبتلع عرفات الطعم، ولكنه بدا مطيعًا للغاية عندما أجبره رابين على ابتلاع الطعم.

كما تعلمون، من الممكن ألا يكون عرفات غبيا كما يبدو على محياه. وربما لم يكن يغط فى نوم عميق وهو فى أوسلو. وربما كان هاجسه الوحيد فى أثناء وجوده هناك هو كل ما يحتاجه، أى اعتبار اتفاقيات أوسلو آخر شىء يضطر إلى التوقيع عليه قبل كل شىء، فلمدة عشرة أعوام أبقته وحافظت على حياته فى فلسطين. كما جعلت الإسرائيليين يدفعون له الملايين كل شهر ثمنًا لتكاليف نقل حقائبه، بصرف النظر عمن يعلن الحرب عليه. ولم يكونوا ليشنوا حربًا حقيقية عليه، لأنهم ليس لديهم أى اتفاق يجعل احتلالهم شرعيًا وليس لديهم أى اتفاق من أى نوع إلا مع منظمة التحرير الفلسطينية، معه.

لنكن جادين! إن أى حرب حقيقية ضد السلطة الفلسطينية ، أى شىء يمكن وصفه بالحرب ، تعنى موت عرفات، وباقى عصبته من أعضاء السلطة كذلك، أو فى الطريق إلى ذلك فى اليوم الأول من الحرب، قبل وقت الغداء أيضًا.

الحرب لا تقع لأن هناك مصالح قوية يصبح معها الوضع الراهن هو الأفضل، وليست الفوضى التى ستعم بسبب هذه الحرب. من المرجح أن أصيب بعض الأمريكيين بالإحباط عندما أقول لا أعنى هنا المصالح الأمريكية التى تكبح جماح شارون من أجل السلام. على أية حال، فى تلك الأيام لم تكن الضغوط الأمريكية قوية للغاية، فهى لم تمنع شارون من فعل ما يبغى. إن المصالح التى تحمى

السلطة الفلسطينية محلية تمامًا. ربما صحيح كما تدعى الهاسباراه أن عرفات ورفاقه فشلوا فى أن يكونوا شركاء سلام لإسرائيل. ومن المؤكد أن هذا صحيح، إذا كنا نتكلم عن السلام كما تقترحه إسرائيل، لكن هذا لا يعنى أنه لا يوجد ولم يوجد شركاء سلام.

دعونا نتكلم عن حالة الفلسطينى الذى يعتبر شريكًا للا أحد، باستثناء زوجته. إنه رب المنزل، الذى يعول أسرته كما تقتضى أصول الشرف، من عرق جبينه، ولا يهم نوع العمل. لنقل مثلاً إنه يدير متجرًا فى غزة. وأصبح لديه منزل جيد، والآن عليه أن يزوج ابنه، إلا أن الابن ليس لديه عمل؛ لذا فعلى الأب أن يبنى جزءا إضافيًا فى البيت. الشرف يتطلب منه هذا. والبناء يتطلب على سبيل المثال بعض الزلط. والزلط لا بد أن يأتى من إسرائيل، وهو تجارة رائجة. إلا أن الزلط الإسرائيلى سيكلف صاحب المتجر المسكين ضعف ثمنه فى إسرائيل، لأن هناك مكانًا واحدا فقط لشراء الزلط الإسرائيلى، حيث يحتكره أحد أمراء السلطة الفلسطينية. وبالطبع، ستحتاج الحجرات الجديدة إلى بعض الخشب الذى لا يمكن جلبه إلا من خلال محتكر آخر المورد الأصلى فى إسرائيل. والأسمنت نفس القصة وحديد التسليح والبلاط وإكسسوارات دورة المياه وسخان المياه وكذا وكذا وكذا. إنها نفس الحكاية، أو كما يقول الفلسطينيون "هى هى". سيضطر صاحب المتجر لدفع ضعف ثمن أى شىء يحتاجه. أو لنقل كل مرة يحتاج إلى شراء شىء يمكن جلبه من إسرائيل ويعتبر تجارة إسرائيلية، فإنه يضيف المليارات لجيوب التوانسة. بالطبع هذا لا يقتصر على مواد البناء، يمكنك تتبع القصة حتى زيت الطهو، والدقيق، واللحوم التى تستعملها زوجته لإعداد الغداء له اليوم، وغداً، حتى لفافة التبغ التى يدخنها وهو يقود شاحنته إلى بائع الخشب الذى سيعطيه له بضعف السعر. وهذا دخان إسرائيلى، يسمى تايم ، لا تجده إلا عن طريق احتكار السلطة الفلسطينية، مثل الوقود الذى تسير به سيارته.

وبالمناسبة فإن الوقود يعتبر مثالاً صارخًا لما نتحدث عنه. فكل شهر يشترى الفلسطينيون أكثر من عشرة ملايين جالون من الوقود الإسرائيلى. ولا يهم إن كان بإمكانهم شراؤه من الأردن أو من مصر بنصف أو ثلث الثمن الوقود الإسرائيلى يتكلف خمسة دولارات للجالون. فكما تقول بنود الصفقة، لا بد أن يأتى الوقود

من إسرائيل. والواقع أنه يأتى من شركة إسرائيلية واحدة هى "دور إنيرجى"، التى تولت هذا العمل المزدهر المربح فور تولى عرفات السلطة حيث إن هناك شخصًا ما على علاقة بها. وبعد ذلك، قفز السعر مع احتكار السلطة الفلسطينية له. مما يجعل كل أصحاب محطات الوقود على المحك.

لا يهم مستوى "الإغلاق" المعلن، أو وجود "حرب معلنة" على أى طرف. لا بد أن تمر شاحنات الوقود، وهذا ما تفعله. فى الواقع، عند أحد المعابر الرئيسية بين إسرائيل وغزة، هناك مستودع وقود لطيف يحرسه الجيش، حيث تتوقف الشاحنات الإسرائيلية وتضخ وقودها فى أنبوب، يسير فوق حائط تختبئ خلفه الشاحنات الفلسطينية على جانب غزة. ولا يضطر أحد إلى رؤية أو مصافحة أى شخص من "معسكر العدو". لكن الوقود يمر، والعمل عمل. وعلى الرغم من تعرض هذا المعبر للضرب بصاروخ أو اثنين بين حين وآخر، أو القصف بمدافع الهاون من جانب غزة، منذ شهر أو اثنين تعرض لعملية انتحارية، لم يصب المستودع أبدًا، أو تتأثر عملياته. يا للعجب! ابحث عنه! هناك حقيقة مدهشة أخرى: لم تصادف الشاحنات الفلسطينية أبدًا أية صعوبة فى الوصول آمنة. واتضح أن أحد المسهمين فى الهيئة المحتكرة للوقود التابعة للسلطة الفلسطينية هو محمد دحلان، رئيس الأمن الوقائى فى غزة، وهو جهاز الشرطة السرية الهائل التابع للسلطة الفلسطينية. والواقع أن تجارة الوقود توفر الأموال للشرطة السرية التابعة لدحلان، مما جعله قويًا إلى حد أن أصبح فتى عرفات المدلل، والمهيمن على الأمن فى كل فلسطين.

أما على جانب الضفة الغربية، فالقصة مختلفة قليلاً، فهى أكثر إثارة للدهشة. لقد قُدت سيارة إسرائيلية مستأجرة عبر الأراضى المحتلة، على الطرق السريعة والبطيئة، وغالبًا كنت أضل طريقى، وفى بعض الأحيان مررت بالمستوطنات، داخل وخارج القرى العربية، مسببًا الرعب لجيش الدفاع الإسرائيلى "ألا تعرف أنهم يطلقون النار على السيارات الإسرائيلية؟". لكننى لم أشعر بالتهديد، لأننى كنت فى العادة أسير خلف شاحنة وقود إسرائيلية، يا له من مكان لطيف آمن. أعتقد أن تدريبى الإرهابى غير مكتمل، ولكن يبدو لى أنه إذا كنت ترغب فى تفجير الإسرائيليين، فهل هناك هدف أفضل من شاحنة وقود؟ يا

له من انفجار هائل لو حدث. ما رأيكم فى اصطياد إحداها فى أثناء وقوفها أمام إحدى نقاط التفتيش، وإلى جانبها كل هؤلاء الجنود؟ لم يحدث هذا أبدًا. ما رأيكم فى ضربها عندما تتوقف لتفريغ الوقود عند محطات الوقود الإسرائيلية المتلألئة، التى تعلق لافتات عبرية، والتى تعمل على حافة الطرق السريعة الخاصة بالمستوطنات الكبرى؟ لم يحدث هذا أبدًا. صحيح أن بعض المسلحين يطلقون النيران أحيانًا على السيارات، خاصة على سيارات المستوطنين المارة فى الطرق السريعة، وقد يقتلون أمًا وأطفالها الثلاثة فى سيارة سيدان صغيرة مارة بالطريق، لكن الهدف السمين مثل شاحنة الوقود، يدعونه يمر. شاحنة الوقود الوحيدة التى أعرف بضربها كانت شاحنة خاصة، لشركة صغيرة لأب وابن يهوديين، كانا يبيعان الوقود للقرى العربية بجانب الخط الأخضر، وانفجرا فى الشاحنة.

ما يعنيه هذا لى هو أنه لو كان هناك شىء تجب حمايته، فهم يحمونه. لم أعد أبالى بحديث السلطة الفلسطينية السخيف عن المهمة المستحيلة للسيطرة على المتشددين الإسلاميين. ماذا عن شاحنات الوقود؟ ولم أعد أنصت إلى "التحليل" الإسرائيلى القائل بأنها محاولات لتمزيق الحركة الفلسطينية. حسنًا، كان هدف التنظيم هو وقف إطلاق النار. ولكن حركتى الجهاد الإسلامى وحماس كان عليهما أن تثبتا أنهما لا تخضعان لفتح"..هراء!. سوف يقومون بالتمزيق والتجزئة وإثارة الاضطرابات حتى يتضح أن "خبراء الأمن" فقط - وزارة الدفاع والشين بيت - هم من يتم الاستماع إليهم فى موضوع مكافحة الإرهاب. ولكن ماذا عن شاحنات الوقود؟ لا يمكن الهجوم عليها لأن هناك قوة تحميها، ألا وهى المال. إن المال يجعل السلطة الفلسطينية فى حالة عمل (بيزنس) وعمل السلطة الفلسطينية هو المال. ليس هناك شىء منطقى أو قومى بشأن الوسائل. على سبيل المثال، العرب الفقراء الذين يمتلكون ثلاثين أكرًا من الأرض الصحراوية بالقرب من أريحا. قرر أصدقاء عرفات أنه مكان ملائم لإنشاء كازينو جديد رخيص للمقامرة يسمى الواحة. وكان أكبر المسهمين فى هذا الكازينو هو محمد رشيد "كبير مستشارى عرفات الاقتصاديين". كان يمتلك ثلاثين بالمائة من الأسهم. ولكن هناك شخصًا فلسطينيًا يدعى حمدونى رفض التنازل عن الأرض فوضعه زبانية عرفات فى السجن وأذاقوه ألوان العذاب لمدة ١٧ يومًا، حتى استسلم ووافق على التنازل عن أرضه للسلطة الفلسطينية.

فى الوقت نفسه، كانت الأرض الواقعة حول أريحا مقاطعة تابعة للسلطة الفلسطينية. بعد أن انسحب الجيش الإسرائيلى من تلك المنطقة. الواقع، إذا لم تخنى الذاكرة، أنها كانت المنطقة الوحيدة الخاضعة للإدارة الفلسطينية الكاملة. ولكن مع استمرار السيطرة الإسرائيلية على "الأمن" كله واستمرار سريان لوائح جيش الدفاع الإسرائيلى حيث إن الانسحابات "الإسرائيلية" - كما تعلم، طوال نحو خمسة وثلاثين عامًا أو نحو ذلك - كانت فقط شيئًا وهميا. هل ذكرت ذلك من قبل؟، لا يجب أن نندهش إذا عرفنا أن هناك يهودًا كانوا مهتمين أيضًا بتأسيس ذلك الكازينو. كان أحدهم رجل أعمال نمساويا يدعى مارتين شلاف، اشترى خمسة وأربعين بالمائة من الأسهم. كان السيد شلاف صديقا لشارون، زائرًا دائمًا لمزرعته. وقام بالعديد من الأعمال التجارية فى إسرائيل. كان يود أن يقوم بالمزيد. وكان يحاول لسنوات إقامة كازينو داخل إسرائيل ويا للصدفة، كان رئيس الوزراء فى هذه اللحظة يعمل على تشريع خاص بإجازة المقامرة فى إسرائيل. وكان هناك مستثمر آخر هو بنك شلاف النمساوى، ويسمى bawag اختصارًا لاسم: bank fur arbeit und wirtschaft اشترى عشرة بالمائة من الأسهم. ولم لا؟ كانت صفقة ممتازة، امتياز لإدارة الكازينو حتى عام ٢٠٢٨ معفى من الضرائب لمدة العشر السنوات الأولى. فى الواقع، كان بمثابة احتكار للفلسطينيين، لا يمكن لأحد آخر أن يدير كازينو للقمار على أراضى السلطة الفلسطينية.

والآن احتملونى قليلاً، أنا أكره أيضًا هذه الأسماء الأجنبية مثلكم. لكننى أريد ذكر المزيد من التفاصيل المدهشة عن هذه المصادفات. من المنطقى أن بنك bawag يحتاج إلى محام فى الأراضى المقدسة. شخص ذكى للعناية بمصالحه، والأفضل أن يكون ذا صلات قوية. وعلى ذلك، استعان البنك بالمدير العام لمكتب رئيس الوزراء فى عهد إسحق رابين، كاستشارى، وهو شخص يدعى شيمون شيفيز، الذى - وأنا واثق من هذا - خدمهم كما يجب، حتى عُرف لسوء حظه أنه يتقاضى رشوة، وعند هذه النقطة أصبح السيد شيفيز بحاجة إلى محام. وعلى ذلك، استعان شيفيز بصديقه وزميله المحامى دوف فيسجلاس، الذى تصادف كونه الشخص الأول فى مكتب رئيس الوزراء آرييل شارون. ومن المؤكد أن السيد فيسجلاس خدم موكله كما يجب ، فقد حصل على حكم من

المحكمة العليا ألغى به إدانة السيد شيفيز. وهناك مصادفة أخرى: كان السيد فيسجلاس هو أيضًا محامى مالك الكازينو، الهر مارتين شلاف ما رأيكم فى هذه المصادفة السعيدة؟. ولذلك من الواضح أنها كانت مصادفة بحتة عندما واجه الكازينو المتاعب، فمع بداية الانتفاضة الثانية عام ٢٠٠٠ أجبر الكازينو على الإغلاق. وتوقف تدفق الملايين الكثيرة التى كانت تملأ جيوب الشركاء، كما كان شارون فى حاجة ماسة إلى المال، حيث كان فى هذه الأثناء، ينفق الكثير على حملته الانتخابية لكى يصبح رئيسًا للوزراء. فتم عقد اجتماع عاجل فى فيينا حضره على الأقل ثلاثة أشخاص رئيسيين: عمرى بن شارون، والسيد فيسجلاس المحامى، ووكيل السلطة الفلسطينية السيد رشيد. أصر ابن شارون الأكبر على ألا تتم مناقشة أية صفقة فى هذا الاجتماع، تتضمن دفع المال مقابل وعد بإعادة افتتاح الكازينو. فى الواقع، لم يتم ذكر اسم الكازينو بتاتًا! كانت تلك فقط قناة خلفية، حيث كان شارون يعمل جاهدًا من أجل السلام.

هناك مصادفة أخرى واحدة ـ كما يقولون عنها فى العراق ـ هى أم الصدف. ربما تذكرون إعادة انتخاب شارون رئيسًا للوزراء عام ٢٠٠٢عندما أثيرت فضيحة قذرة خاصة به. اتضح أن هذه المشكلات المالية فى حملته الانتخابية الأولى قد أجبرته على أخذ أموال من صديقه الجنوب إفريقى سيريل كيرن. إلا أنه يبدو كما تعتقد الشرطة. أن المال لم يأت من جنوب إفريقيا. (فى الواقع ربما ليس مع السيد كيرن هذا المبلغ الكبير ليعطيه له) فقد دخلت الملايين إلى جيب شارون من حساب باسم السيد كيرن فى النمسا، فى بنك bawag عندما فاحت رائحة الفضيحة عام ٢٠٠٢ عرفنا بوصول بعض الملايين الأخرى إلى جيب ابن شارون المسمى جيلعاد، التى استعملها فى سداد القرض سيئ الرائحة من السيد كيرن، وتم تحويل أموال جيلعاد شارون بالطبع من بنك bawag مما أشار إلى أن المصالح نفسها التى ملأت جيب شارون فى المرة الأولى، قد ملأت جيبه للمرة الثانية أيضًا.

حسنًا. دعونا نترك هذه المسألة للشرطة لتحقق فيها وتتضح حقيقتها، أو لا تتضح عندما يحين الوقت. ولكن هناك حقيقة واحدة لم تتغير ألا وهى أن التقاء

مصالح السلطة الفلسطينية التجارية مع الإسرائيلية يحدث على أعلى المستويات فى الحياة السياسية الإسرائيلية. وليست الأشياء كما تبدو دائمًا.

هذه حقيقة من الحقائق المفاجئة التى تراها فى كل مكان حولك، وبعد أن تخطو خطوة أو اثنتين إلى الخلف، يتضح لك الشكل الكامل لها. فى أحد الأيام الشتوية الممطرة، وقفت عند نقطة تفتيش فى قرية عربية خارج القدس. كانت فترة توتر كبرى: حيث كانت هناك هجمات داخل إسرائيل كل أسبوع، و"حوادث" فى الأراضى المحتلة، حيث يموت شخص أو اثنان، أو أربعة أو عشرة، وهو ما يحدث كل يوم. كانت حكومة شارون تتفاخر "بإجراءاتها القوية" التى تفرضها على العرب، وتؤكد للإسرائيليين أن حظر التجول والإغلاق يجهض معظم الهجمات قبل أن تقع، يؤكد البعض أن تلك الهجمات كان يمكن أن تصبح أسوأ. لم أذهب إلى تلك القرية لأشاهد أحد الحوادث، بل لأشاهد المشاهدين، وهما سيدتان تنتميان إلى منظمة ماشسوم ووتش، وهى منظمة مكونة من أفراد محترمين يظهرون من غير سابق إنذار عند نقاط التفتيش كلمة ماشسوم تعنى نقطة تفتيش بالعبرية ومعهم لوح مشبكى مجهز بالأوراق لتسجيل أى سلوك سيئ، ويراقبون أفعال القوات الإسرائيلية.

كانت سيدتا منظمة ماشسوم صديقتى طفولة من نيو جيرسى، قررتا الذهاب مع عائلتيهما إلى إسرائيل منذ عقود مضت، لسبب جيد وكاف وهو أنهما تحبانها. والآن، وهما فى السبعينيات من عمريهما، لم تكفا عن بذل الوقت والجهد فى محاولة لمنع الدولة اليهودية من التخلى عن قيمها. لكن يبدو أنهما لم تنجحا. سألت سائقتنا وقائدة المهمة روز فينبيرج، إن كانوا يرون أشياء مريعة عند نقاط التفتيش فقالت: "ماذا تعنى بأشياء مريعة؟ كل ما نراه مريع، والجميع يعانون". قالت زميلتها ريتا هاريسون إنها أصبحت تتساءل وللمرة الأولى عما دعاها لاتخاذ ذلك المكان وطنًا لها، وأضافت: "لم أكن أريد الذهاب إلى جنوب إفريقيا عندما خرجت من بلدى".

كانت نقطة التفتيش عبارة عن حفنة من الحواجز البلاستيكية القذرة على الطريق الرئيسى للقرية المفضى إلى القدس. إلا أنه فجأة أعلن أحدهم أنها

ليست آمنة بما يكفى، فتم تحويل الطريق الرئيسى إلى كومة من التراب والحجارة، أصبحت مع أمطار الشتاء طينًا وأحجارًا. وعلى ذلك لم يتمكن سكان القرية من الوصول إلى نقطة التفتيش عبر الطريق الرئيسى، وكان عليهم الالتفاف حول ذلك الركام، إلى المسجد، ثم إلى شارع صغير من باب المسجد الجانبى. لكن من الواضح أن أحد أفراد السلطة قد اعترض على ذلك، فتم وضع كومة جديدة أصغر من الطين والحجارة لمنع الخروج من الباب الجانبى للمسجد. وهذه الكومة الأصغر تمت تغطيتها بعدد من الألواح الخشبية. فى الواقع لا تتجاوز لوحين أو ثلاثة ألواح، وأصبح السكان يمرون إلى المسجد، ثم يتوقفون لتسلق اللوحات المهتزة عبر الباب الجانبى، ثم يهبطون على الطين الزلق ليجدوا أنفسهم أمام نقطة التفتيش. عانى العجائز أوقاتًا صعبة. لكنهم تحملوا فى صمت كئيب. من شاهدتهم - لا يمكنك إلا أن تشاهد - كنَّ من النسوة الصغيرات ممن يرتدين الأحذية الحديثة، أحذية صغيرة لها كعوب متوسطة الطول، تتماشى برقة مع ثيابهن وحقائبهن. يمكنك معرفة الحكاية من نظرة واحدة. كن عائدات إلى بيوتهن من أعمالهن. اهتممن بارتداء أفضل الثياب، احتراما للعمل ولأنفسهن. لكن الاحترام هو المستهدف الأول فى هذه "الحرب" والمصاب الأول كذلك.

كان هناك مئات الأشخاص يمرون عبر نقطة التفتيش ، وبعضهم لا يفعل، وكان الشباب فى الغالب، يدعونهم للجلوس على الطين بينما يتم فحص أوراقهم. كان الرجل المسئول عن المكان ضابط حدود برتبة ملازم ، ذكى وجاد، يعمل بكد واجتهاد. كان يجعل قوة الشرطة التى بصحبته على أهبة الاستعداد. وكانوا يصيحون فى سائقى الحافلات الذين يوقفون حافلاتهم بالقرب من النقطة لإنزال الركاب من العمال، صائحين بالعبرية آمرين هذا بالتحرك، وهذا بالوقوف، دافعين فوهات بنادقهم فى الصناديق والأكياس الملطخة بالطين للتفتيش، ثم يتوقف كل شىء. يصيح الملازم بالأوامر فيهرول أربعة أو خمسة من رجال الشرطة ومعهم بنادقهم بأزيائهم الرسمية وستراتهم الواقية من الرصاص عبر الشارع الجانبى مارين بجوار المنزل الثانى أو الثالث، ثم ينحرفون يمينًا، وعبر حارة ما، إلى الحقول. كانوا يطاردون صبيًا رآه الملازم يسير عبر الحقل ليدور حول نقطة التفتيش. لكن لماذا ذلك الصبى؟ مع تتبعى للجنود رأيت للمرة الأولى

أن هناك العشرات من الرجال والفتيان يسيرون عبر الحقول. وبينما كان الملازم يصيح، رأيت شابا فلسطينيا آخر. بدا لى فى العقد الثالث من عمره. خرج من الباب الجانبى للمسجد، حاملاً صندوقًا من الكرتون، وقد بدا وكأنه صندوق غلة، ولكن من يدرى؟ كان الصندوق مغلقًا. ومع عودة رجال الشرطة بالصبى الشارد إلى نقطة التفتيش سار الرجل حاملاً الصندوق بهدوء عبر الحارة، وإلى الحقول. وإن لم يمنعه شىء كان يمكنه الوصول إلى القدس بعد ساعة، ومعه صندوقه. إن الإغلاق عمل غير دقيق. ويعتمد على حجم الضجة والاستعراض الذى تريد أن يراه المقصودون بالحصار.

فى فترة التوتر الشديد تلك، ارتحلت إلى معبر "كارنى" الواقع بين إسرائيل وغزة. وهناك، أيضا كان، الإغلاق على غير ما يبدو عليه. فعلى الجانب الإسرائيلى، كان هناك طابور من الشاحنات يقترب من البوابات، صادرة عنها سحب كثيفة من الدخان الأسود، وكان طوله يتعدى الميل. كانت هناك شاحنات لها ثمانية عشر إطارًا، وشاحنات ذات مقطورات، وشاحنات قديمة ذات عوارض خشبية على جانبيها. دونت ما رأيته من بضائع. أكياس الأرز المصطفة عاليًا على ظهر الشاحنات، وأكياس السكر بنفس الارتفاع، وصناديق البصل، والسماد، وألواح الجدران والأسقف، وألواح الأسقف المعدنية، وقوائم الأسوار، وبراميل معدنية، وآلاف من القضبان الحديدة، وألواح الزجاج، وجبال من السيراميك، وشاحنات مليئة بمخلفات البناء، الكثير منها. وشاحنات مليئة حتى قمتها بأشياء مستعملة، سخانات مياه قديمة قد يستعملها الفلسطينيون بعد إصلاحها، وغسالات قديمة، وثلاجات، وأبواب بيوت، وألواح ألمونيوم. أخبرنى واحد أو اثنان من سائقى الشاحنات، ممن كانوا على الرصيف يتمشون قليلاً لإراحة أقدامهم، أن هذا ليس يومًا مزدحمًا. أحيانًا، كان عليه أن ينام فى شاحنته قبل أن يفرغ شحنته فى مخزن على الحدود، أو فى شاحنة فلسطينية.

قلت له: "العمل جيد".

قال وعلى وجهه ابتسامة عريضة: "العمل جيد، كل شىء نهدمه علينا إعادة بنائه". أخذ يحك إصبعه السبابة على أطراف أصابعه الأخرى علامة على تدفق

النقود: "ابحث بعينيك عن مقاولى الشحن، دائمًا ما تراهم فى هذه الأنحاء فى سيارات أنيقة".

بالطبع، على الجانب الفلسطينى، كان هناك طابور آخر من الشاحنات. شاحنات تأتى لتبقى لمدة أيام. فهناك "تصاريح" يجب الحصول عليها، ومسئولون تجب رشوتهم لإصدار التصاريح. ومسئولون أكبر تتم رشوتهم للتأشير على صحة التصاريح. وعلى هذا الجانب، أيضًا، كانت هناك بعض السيارات الفاخرة، تنتمى إلى علية القوم، من الضباط المسئولين الذين "يسيطرون" على . أى يحلبون . جانب غزة من المعبر. إنهم ضباط الأمن الوقائى التابعون لمحمد دحلان.

لقد ذكرت اسمه ثانية لأنك على الأرجح ستسمع به أكثر وأكثر. ويتحدث عنه الإسرائيليون كخليفة محتمل لعرفات. يقال عن دحلان أيضًا إنه محبوب من جانب الاستخبارات الأمريكية، التى تعمل بالتعاون مع كبار المسئولين فى أمن السلطة الفلسطينية. وغنى عن القول إن هذا يتم من أجل تحقيق السلام. ومؤخرًا ارتفعت منزلته أكثر لدى الأمريكيين، بعد أن همشوا عرفات هم والإسرائيليون بما كشفوه من فساد. واختار دحلان تلك اللحظة ليعلن عن مطالبته "بالإصلاح". إنه ثعلب مهذب، يمضغ ويبتلع ثم يخفى عظام الدجاج، قبل أن يشير إلى الثقب الذى يراه فى سياج حظيرة الدجاج.

منذ سنوات، عندما رأيت قطاع غزة للمرة الأولى، كانت عائلة الشوا من أكبر العائلات بها. وكان رشيد الشوا على الورق يسمى "عمدة غزة". لكنه فى الواقع كان يمتلك غزة، والشعب الذى يعيش فيها، وكأنه الإقطاعى صاحب الأرض. وما كان لا يملكه، كان أصدقاؤه يملكونه بفضله. وسواء تصادف ذلك أو لا مع زيارتى الأولى، كان السيد الشوا يبنى منزلاً فخمًا، أعتقد أنه كان لابنه. المهم، كان أحدث وأعظم، وأكبر منزل فى غزة، بمثابة قصر. وعندما عدت إلى غزة لإعداد هذا الكتاب، سمعت أن المنزل الكبير تم بيعه. من المشترى؟ محمد دحلان. بالصدفة، كان لدى صديق من عائلة الشوا، لم أضع الكثير من الوقت فى تحفيزه على الكلام، سألته: "أليس هذا رائعًا، أن يدخر السيد دحلان من راتبه فى الشرطة ما يكفى لشراء منزل جدك؟".

ابتسم ابتسامة ماكرة وبدأ فى ربت يده على صدره وبطنه وقال: "الراتب لا يكفى لشراء رابطة عنق".

على مدى الدقائق العديدة التالية، ذكر لى مصادر ثروة دحلان. كان احتكار الوقود هو المصدر الأول. ثلاثون بالمائة كبداية. هذا قبل الوصول إلى مالكى محطات البنزين الذين يمنحهم التصاريح. وبيع السجائر أيضًا. ومتاجر بيع السجائر تحتاج للكثير من التصاريح، والطعام المجمد، وزيت الطهو أيضًا كما يقول البعض. على أية حال، الزيت والطعام المجمد يأتيان إلى غزة بواسطة الشاحنات، لذا فعبور الحدود يحتاج لدفع النقود. وهناك المخازن المبردة، والكثير من الرسوم تدفع فيها، والمزيد منها لشراء التصاريح الخاصة بتفريغ البضائع من المخازن وإلا فسوف يتأخر صدورها. كدت أنسى أن أوناش تفريغ البضائع ملك دحلان أيضًا.

حكى لى حكاية صديق له كان يدير مصنعًا للمنتجات الورقية ، من مناديل ومناشف وغيرها ، وهى بالطبع ليست بالعملية الصعبة. ولكنه كان يدير عمله بكفاءة. بالطبع، كان يجب استيراد الآلات من إسرائيل. وذات مرة تعطلت إحدى الماكينات، وكانت فى حاجة إلى قطعة غيار. اتصل بإسرائيل وعرف أن قطعة الغيار ستتكلف ثمانين دولارًا، أو نحو ذلك. وفى اليوم المحدد لشرائها، أرسل سائق إحدى الشاحنات إلى الحدود. لكن السائق كان عليه الانتظار، لمدة يوم أو يومين ويدفع رسوم انتظار عن كل يوم. ثم كان عليه دفع "رسوم استيراد" قبل وضع قطعة الغيار على الشاحنة. اتصل سائق الشاحنة وقال إن نقوده قد نفدت. وعلى ذلك ذهب المالك إلى الحدود، ودفع الرسوم، التى كانت تزيد على ثمن قطعة الغيار. بعد ما يقرب من يوم، أخبره مسئول كبير أن قطعة الغيار تم العثور عليها، لكن يجب مرورها "باختبار الأمان" الذى يتكلف خمسمائة دولار. دفع هذه التكلفة أيضًا. ماذا يمكنه أن يفعل خلاف هذا؟ استغرق الأمر أسبوعًا على الحدود، لكنه حصل على قطعة الغيار، مقابل عشرة أضعاف ثمنها الحقيقى.

سألت: "كيف استمر فى العمل. هذه قطعة غيار صغيرة. ماذا عن لفافات الورق الخام وباقى المواد الخام؟"

قال صديقى: "هذه ليست بمشكلة، كل المواد الخام يتم شحنها من المستوطنات".

"من المستوطنات اليهودية؟"

"بالطبع. فهى تشحن مباشرة من إسرائيل فى حراسة الجيش. إنهم يرفعون الثمن قليلاً. وهكذا يتمكن من الاستمرار فى العمل. ولكن مع ارتفاع ثمن بضائعهم فهى أرخص، لأنه لا يوجد دحلان".

الموتى ماتوا؟ يبدو أنهم ماتوا، وحزن وغضب أسرهم حقيقى وساطع كالشمس. لكن يمكنك قول إن هذه تكلفة البيزنس. فى الواقع، الأمر أكبر من هذا. لأن كل ضربة وضربة مضادة فى حرب الإرهاب تساعد على تدعيم أسس البيزنس.

فلنأخذ على سبيل المثال، ياسر عرفات. لقد لوحظ أن شعبيته فى استبيانات الرأى العام لم ترتفع إلا بعد شن الهجوم الإسرائيلى عليه. الأمر أكبر من ذلك وأبسط، فحياة عرفات تعتمد على الصراع. وإذا حصل الفلسطينيون على بلد، وكان عمل قائدهم هو بناء ذلك البلد، تقوية مؤسساته والعمل على تعزيز رفاهية مواطنيه، فإن مرشحى، ومرشح معظم الفلسطينيين، سوف يكون أى شخص غير عرفات. فدون الصراع، يصبح بلا عمل.

يمكنك قول الشىء نفسه عن الجنرال العجوز شارون. دون الصراع والخوف الذى يسببه ، هل يكون لديه أى أمل فى الاقتراب من منصب رئيس الوزراء؟ والإجابة هى أنه لا يستطيع أن يشم رائحته. وهو يخوض هذا الصراع بكل ما أوتى من بنادق ودبابات ومستوطنات وميزانيات، وحياة مواطنيه منذ عام ١٩٤٨. هذا هو تاريخه المهنى، ومستقبله المهنى، ودون الصراع لا يوجد شارون.

فى معرض الدفاع عن عرفات نقول إنه على الأقل يشترى الولاء بالعملة الصعبة. أما شارون فإنه يحصل عليه مقابل عملة الخوف الرديئة. فمن السهل أن تصنع، ولكن الأسهل أن تدير دورة التصنيع. إن مواطنيه مستعدون للخوف، وعلى أهبة الاستعداد للحصول عليه، والارتياح معه. كما ترون إن الأمر سهل للغاية، أشبه بلعب الأطفال.

يمكنك أن ترى هذا النسق مع مراقبتك للضربات والضربات المضادة واتفاقات وقف إطلاق النار المتكررة، أو المحتملة وترتيبها على تقويم بسيط. كما يمكنك تعقب هذا النسق الذى يعود إلى بداية حكم شارون. ففى صيف عامه الأول، عام ٢٠٠١ احترمت حماس اتفاق وقف إطلاق النار بالنسبة للمدنيين الإسرائيليين لمدة شهرين، حتى ١٣ يوليو. عندما اغتال الإسرائيليون اثنين من قادة حماس فى نابلس. بعد تسعة أيام فجر انتحارى من حماس نفسه فى أحد مطاعم البيتزا فى القدس. وبعد هجمات الحادى عشر من سبتمبر على الولايات المتحدة، حاولت الفصائل الفلسطينية أن تعبر عن حسن نيتها باتفاق يقتضى ألا تشن هجمات داخل إسرائيل، وظل ذلك ساريًا حتى يوم ٢٣ نوفمبر، عندما اغتالت إسرائيل أحد قادة حماس البارزين وهو محمود أبو هنود. بعد تسعة أو عشرة أيام، قام انتحاريو حماس بقتل يهود فى القدس وحيفا. وبعد شهر ونصف الشهر، فى الرابع عشر من يناير ٢٠٠٢ (مرة أخرى، فى أثناء وقف إطلاق النار الذى أعلن فى ديسمبر)، عندما أمر شارون باغتيال رائد الكرامى، وهو أحد ضباط عرفات، نتج عن هذا أول عملية تفجير انتحارية بواسطة أنصار عرفات نفسه حيث كان رد الفعل بطيئًا هذه المرة واستغرق أسبوعين فى السابع والعشرين من يناير.

هل تذكرون تلك القنبلة التى تزن طنًا التى ألقت بها القوات الجوية الإسرائيلية على منزل فى غزة لتقتل صلاح شحادة القائد الحماسى البارز ومعه ستة عشر آخرين؟ تلك الضربة الجوية انتهكت اتفاق وقف إطلاق نار آخر مع عرفات وحماس. وتسببت فى عملية انتحارية أخرى ، كانت حماس مسئولة عنها بعد تسعة أيام.

مع نهاية ذلك العام أخذ شارون يعمل بجد أكبر من أجل السلام. فكان يقوم بأكثر من عملية اغتيال فى المرة الواحدة. ففى يوم ٢٦ ديسمبر من عام ٢٠٠٢ قامت القوات الإسرائيلية باغتيال زعماء من حماس، والجهاد الإسلامى وكتائب عرفات الاستشهادية (كتائب شهداء الأقصى). وجميعهم فى يوم واحد. بالطبع، كانت هناك أجواء للتهدئة: حيث كانت كل هذه الفصائل مجتمعة فى القاهرة ولديها خطة أخرى للتوصل إلى هدنة. لم يقدر شارون على تحمل هذا، حيث كان

يقترب من عملية إعادة انتخابه لا داعى للقلق: فصبية عرفات وضعوه على القمة مع تفجير انتحارى جديد قتل عشرين إسرائيليًا. فبعد أن استمتعوا بعطلة العام الجديد، قاموا بعمليتهم بعد ذلك بعشرة أيام.

كانت حملة شارون الانتخابية دراسة فى الخوف. فقد أظهرت نتائج استطلاعات الرأى اضمحلال شعبيته، يحدث شىء رهيب. حيث يحتل القتلى اليهود شاشات التلفاز. وإذا فشل الفلسطينيون فى القيام بعملية انتحارية. يصدر تصريح من الجيش، أو من أحد قادة الدفاع المدنى، يثير فيه المخاوف من هجمات عراقية بالغازات. يلتزم كل يهودى فى البلد بحيازة قناع مضاد للغازات السامة. ويتزاحمون فى مكاتب "الطوارئ" وواجهات المحال. التى يعمل بها أفراد من الجيش، حيث يحتالون ويداهنون ويجادلون من أجل المزيد من أقنعة الغاز أو أقنعة أحدث أو أقنعة خاصة للأطفال والعجائز). وقد أسهمت الصناعة الجديدة أيضًا فى تنشيط التجارة: فالخوف يبيع الجرائد. ويزيد من مشاهدة التليفزيون. لا يهم أن عامين من حكم شارون نتج عنهما المزيد من العمليات الانتحارية التى تسببت فى قتل يهود أكثر ممن قتلوا على مدى السبع سنوات السابقة. وبقى شارون فى السلطة على أساس قوته، وهذا يكفيه. ومن سخرية القدر أن اسم شارون يتناغم مع كلمة بيتاخون والأخيرة تعنى "الأمن" بالعبرية.

لقد تطابقت أغلبية شارون مع أغلبية أخرى بنفس القدر. ثلثى الإسرائيليين ، الذين يقولون فى استطلاعات الرأى إنهم يريدون السلام، ومستعدون للتخلى عن الأرض مقابل السلام، والمستوطنات القائمة على تلك الأراضى أيضًا. وقد دعا هذا التناقض اليسارى العجوز أورى أفنيرى إلى القول بأن إسرائيل لا بد أن تكون البلد الوحيد فى العالم الذى يحتوى على مائتين بالمائة من الشعب. إن الخوف هو الذى يخلق هذه الأغلبية المزدوجة. فالخوف يدير الرءوس، أو يقطفها. والخوف قد يصاحب إسرائيل إلى الأبد. فبدون الخوف دون القتلى اليهود، والهجمات على اليهود، والحزن والغضب من أجل اليهود، ودون التهديدات القائمة ضد اليهود، تفقد الصهيونية نفسها مبرر وجودها.

أرييل شارون لا يمكنه القيام بهذا وحده. لكن كما يقول المثل اليهودى القديم "حمدا لله، إنه غير مضطر إلى ذلك". فحيثما يذهب بين النخبة الحاكمة فى

إسرائيل، يجد الأتباع الذين يفهمونه جيداً، ويتكلمون لغته، ويتداولون أفكاره. يمكنك القول بأنهم جاءوا جميعًا من نفس المدرسة القديمة، قيادة أركان جيش الدفاع الإسرائيلى.

فالجنرالات الإسرائيليون المتقاعدون يقودون أكبر ثلاثة أحزاب سياسية حتى الحزب القومى الدينى وتحتهم جنرالات سابقون أيضًا كقادة ينتظرون دورهم. ولم لا؟ فى آخر ستة انتخابات اختار الناخبون كرؤساء للوزراء جنرالات سابقين فقط فيما عدا نيتانياهو المسكين، الذى كان فقط كولونيل سابقًا لكن من وحدة نخبوية فى الجيش. فالوزارة مليئة بجنرالات سابقين، ليس فقط من يشغلون المناصب الأمنية، بل من وصلوا إلى مناصب وزير النقل والسياحة، والعلوم، والثقافة، والرياضة. إنه اتجاه جديد، تغيير كبير آخر حدث فى إسرائيل. لم يصبح اتجاهًا عامًا إلا بعد حرب ١٩٦٧ بالضبط مع الاحتلال. وهو ليس بالاتجاه المستورد، فلا توجد "ديمقراطية غربية" أخرى يحتل فيها جنرال سابق منصب رئيس الوزراء. ولا يوجد بلد فى العالم يدعى أن المدنيين يحكمون الجيش يقوم بنقل جنرال فى الخدمة من أعلى منصب عسكرى (رئيس الأركان العامة) إلى الوزارة كوزير للدفاع بالكاد وجد شاءول موفاز بعض الوقت لخلع زيه الرسمى وشراء رابطة عنق قبل أن يتولى الوزارة.

إن الجنرالات السابقين أو رؤساء جهاز الاستخبارات السابقين الذين يحملون لقب جنرال أو الجنرالات غير المتقاعدين رؤساء الأركان أيضًا يحضرون مناقشات مجلس الوزراء يتمتعون بكل سلطات الحكومة فى إسرائيل. وهم يتخذون القرارات الحاسمة التى تكون فى معظمها أو تتم مناقشتها غالبًا باعتبارها "قرارات أمنية". بالإضافة إلى ذلك، فإن محافظى المدن الكبيرة هم من الجنرالات أيضًا وكذلك حكام المناطق. وتدار الوكالة اليهودية على يد جنرال. وشركات المياه، والكهرباء، والتليفونات والهيئات التى ترعاها الدولة والمؤسسات القوية كلها يديرها جنرالات. والشركات الخاصة، ومن بينها شركات كبرى، والشركات العامة أيضًا، تضع جنرالاً فى منصب الرئيس التنفيذى، فهذا جيد بالنسبة لأسعار الأسهم. إن احتلال المرء لمنصب قيادى بالجيش الإسرائيلى لهو دليل على قوته، وذكائه وحماسته. وهى الخلطة السحرية فى إسرائيل.

أشار الخبير الاقتصادى، سيفير بلوتزكير، إلى بعض الأسباب الوجيهة والحقيقية لصعود الجنرالات إلى قمة السلطة فى إسرائيل، وفى تخصصه فى عالم الأعمال. إن الجيش هو المدرسة العليا، وهو جامعة هارفارد، ومعهد ماساشوستس، وستانفورد فى الواقع. نصف الجنرالات ذهبوا إلى ستانفورد. فهناك برنامج تبادل هائل هم طرف فيه. ومع وصول الرجل إلى منصب الجنرال، فهو بطبيعة الحال يكون قد تعلم المستوى الأعلى من القيادة، وخبر إدارة العمليات الكبيرة. وعلى أساس من معايير اختيار الرؤساء التنفيذيين، يمكنك أن تمنحه المنصب براتب أقل، لأنه يحصل من الجيش كل شهر على معاش ضخم.

ولكن لهم أيضًا نقاط ضعفهم ، كما يقول سيفير؛ فهم يميلون إلى إصدار الأوامر، ربما أكثر مما ينصتون. إنهم مفكرون تكتيكيون، متمحورون حول الأهداف، ويفضلون الانتهاء من المهام التى يكلفون بها أولاً بأول. لكنهم ليسوا استراتيجيى التفكير. كما أنهم قد لا يعرفون شيئًا عن العمل التجارى. بعضهم يتعلم بسرعة. وهذا يعتمد على السمات الشخصية لكل منهم. ثم يوضح سيفير نقطة أخرى ذات أهمية خاصة، وهى أن جنرالات إسرائيل ليسوا جميعًا ذوى توجه واحد فى العمل أو فى السياسة، فهناك اليساريون وهناك اليمينيون.

وهذا صحيح، وإن كان له أكثر من وجه. فى الواقع، هذه الأيام نجد الجنرال الذى يقترب من التقاعد يبحث عن عمل ربما فى مجال تقديم خدمات الأمن، أو بيع السلاح ، أو بيع الهواتف، أو ربما حتى بيع الصابون، وفى الوقت نفسه، ربما يسعى لبيت سياسى يؤويه، ربما حزب العمل، أو الليكود، أو أحد الأحزاب الأصغر. فالأيديولوجية لا ترقى إلى أهمية الفرصة المتاحة أو العرض الذى يقدمه الحزب. وعلى ذلك ينتهى بهم الأمر إلى جانب اليمين أو اليسار، أو هكذا يُكتب على الورق. لكن ما مدى مصداقية ذلك؟

هناك أمور متشابهة بين هؤلاء الجنرالات. وبالطبع هناك بعض الاستثناءات، ولكن يمكن القول إنها قاعدة عامة. إنها خبرة مشتركة، فى عمر التقاعد، وهى رؤية عامة. فالفضيلة المثلى هى أن تقاتل من أجل الفوز، ولا تتخلى عن الأرض أبدًا. فلمدة عشرين عامًا، على الأقل، واجهوا الخوف وألهمهم الخوف، وهذا ما يعرفونه. أصبحت القوة أهم أوراقهم، والحل الطبيعى للمشكلات التى يواجهونها.

هناك مثل قديم فى الجيش يقول: "إن لم تفلح القوة فى حل مشكلتك، حاول معها بقوة أكبر". ولا يصل أحد إلى منصب جنرال فى الجيش الإسرائيلى دون أن يفهم أن العرب هم العدو، وهو لا يستطيع أن يضع تلك النجمة على ياقته دون أن يكون طرفًا فى الصراع. وهؤلاء القوم قد أبلوا جميعًا بلاء حسنًا فى الصراع. وهذا ما جعلهم فى تلك المنزلة التى هم عليها.

وهذا يسهم فى فهم السبب وراء تغيير الحكومات، الليكود أو العمل، أو ائتلاف دائم التغير مع بعض الأحزاب الأصغر. ولكن الصراع يستمر. إنه يستمد حياته من داخله ويبقى. إنها رؤية مشتركة للعالم. إنه الخوف الذى يعرفونه، ويجيدون التعامل معه. وبدونه ماذا تكون عليه حالهم؟ يصبحون بلا قضية حياتهم الأهم، ويقفون على أرض غير مطروقة. هذا هو الخوف الذى لا يعرفون.

هناك أيضًا الأمل فى أن تغير الحياة المدنية من رؤيتهم المشتركة للعالم: اللجوء إلى القوة كحل أول ونهائى. قد تصيب الحياة الجديدة هذه الرؤية بالتآكل، أو تخلطها مع خبرات جديدة، مثل تعلم الإنصات إلى الناخبين أو التفكير خارج قيود العمل التجارى. ربما، ولكن هذه الأيام أصبحت السياسة أكثر ارتباطًا بالخوف القديم.

ماذا عن العمل التجارى؟ حسنًا، إن نصفه يعتمد على الصراع، أيضًا. لا أعنى فقط الشركات التى تبيع الاحتكارات للسلطة الفلسطينية، ولا أعنى فقط العمل المتعلق بالجيش، أو العمل فى مجال الأمن حيث يقوم شخص ما بتوريد آلاف الحراس للوقوف أمام آلاف الأبواب أو الأعمال القذرة التى تدر الملايين أيضًا من خلال استيراد عمالة أجنبية للاستبدال بالفلسطينيين. إننى أقصد العمل التجارى العادى، النظيف الخاص بالمستهلك اليومى.

تقاعد ياكوف بيرى، ذلك الرجل رفيع الشأن، من منصبه رئيسًا للشرطة السرية، وتولى إدارة أكبر شركة للتليفون المحمول فى إسرائيل. لكن، ماذا كان بيرى يفعل لو لم يشعر كل أب إسرائيلى بالخوف الكافى الذى يدفعه لشراء هاتف لكل ابن من أبنائه؟ إننى أكن المزيد من الاحترام لبيرى بسبب حديثه المناوئ للصراع الآن.

ولكن ماذا عن الأشخاص الذين لا يبيعون إلا الصابون؟ هذا عمل الخوف ليس ضالعًا فيه بالمرة! حسنًا. لنوضح الموقف على النحو التالى: هناك خمسة ملايين يهودى يمكن بيع الصابون لهم. وهناك خمسة ملايين عربى، أربعة من خمسة منهم فى السوق التى توفرها الأراضى المحتلة. وعلى ذلك، دعونا نحلم معًا. هل يمكننا أن نتخيل اليوم الذى يعقد فيه المدير التنفيذى لشركة الصابون، والجنرال السابق الشهير، اجتماعًا لمجلس الإدارة يعلن فيه ما يلى:

أيها السادة! لقد فكرت طويلا وعلى نحو عميق فى هذا الموضوع. وقررت أنه يجب أن نتخلى عن نصف سوقنا. من الخطأ أن نبقى عليه. وهكذا، فإننى سأبذل قصارى جهدى، وقصارى جهد شركتنا، لتحقيق السلام وتوفير دولة للعرب، وهو ما سيخلصنا من أولئك الزبائن الذين يزيدون على حاجتنا.

كما قررت ألا أخبر ذلك العجوز الطيب الخاص بالصلحة فى غزة، لا تحبس أنفاسك.

أعرف أنه حان الوقت لأخبركم الآن، لكننى مخطئ دائمًا فيما يتعلق بالشرق الأوسط. بالطبع، إن الشرق الأوسط يجعلك دومًا بمنأى عن الصواب. وهذا هو السبب فى أنه يعتبر عملاً رائجًا للمراسلين، فهو يحتفظ دائمًا بقدرته على توليد الصدمات أو إثارة الدهشة. الحق أقول لكم، إن الصحفى المحنك لا يهمه كثيرًا أن يكون مخطئًا، فهذا يوفر له قصة جيدة أخرى يشرح فيها لماذا كان مخطئًا.

لكننى ما زلت أتمنى لو كنت أستطيع القول بأننى كنت مخطئًا فقط بشأن بعض التفاصيل، أو بعض ثنايا التاريخ، أو مخطئًا لبعض الأسابيع، حتى تقومنى الأحداث. لكننى لا أستطيع قول ذلك. لقد كنت مخطئًا بشكل جوهرى وفادح، على مدار سنوات طوال.

على سبيل المثال، منذ عشرين عامًا مضت، وبينما كانت إسرائيل تضرب حصارًا قاسيًا حول بيروت، كنت أعتقد وقلت ذلك أيضًا. واحسرتاه أن هناك نتيجة واحدة أكيدة لكل هذا القتل، لقد انتهى أمر آرييل شارون هكذا قلت. وقلت: "سيعلقونه من أطراف أصابعه!". ومن سخرية القدر أن يعيدنى إلى إسرائيل فى الوقت المناسب لأشهد عهد شارون رئيسًا للوزراء، وإعادة انتخابه.

إليكم مثال أكبر: عندما عدت إلى الوطن قادمًا من الشرق الأوسط فى منتصف الثمانينيات. كان هناك أشخاص لديهم الوقت الكافى لكى يسألونى عن رأيى فيما يمكن أن يحدث فى إسرائيل. قلت بأننى أعتقد أنه سيتحقق السلام. وبررت ذلك بالقول واحسرتاه لا شىء آخر يمكن أن يحدث. لأن هناك شيئًا واحدًا صحيحًا: إن إسرائيل لا يمكنها خسارة حرب أخرى. يمكن للعرب أن يخسروا دستة حروب ولا يتغير شىء. لكن خسارة إسرائيل حربًا واحدة، معناه أن الله قد ضغط على زر نهاية اللعبة (جيم أوفر). وكان واضحًا، حتى منذ عشرين عامًا، أن العرب لا يقل عددهم، ولا فقرهم، ولا غباؤهم ولا كرههم لإسرائيل. لذا فقد بدا لى على نحو جوهرى، أن من مصلحة إسرائيل أن تتوصل بشكل فورى إلى اتفاق، بينما لا تزال قابضة على أوراق اللعب. وبينما هى قادرة على ركل منظمة التحرير الفلسطينية لتطيح بها إلى الأردن قبل أن يحين موعد الغداء، إن تطلب الأمر هذا.

كل هذه الأشياء ما زالت حقيقية. لكن السلام لا يبدو قريبًا. الآن. فى الواقع يبدو مجرد حلم بعيد المنال، فهل كان ممكنًا من قبل؟ فعندما يتحدث معظم الإسرائيليين عن اتفاقية سلام الآن حتى إن كانت الغالبية العظمى التى تفضل مبدأ الأرض مقابل السلام، فإن ذلك يحدث، إلى حد ما، على هيئة خليط من الولع والحنين والذكريات. وكأنه معطف تركوه سنوات لدى محل تنظيف الملابس. ومن المؤكد أنه كان معطفًا أنيقًا. قضوا معه أوقات ممتعة (ولا يزال شارون يرتديه أحيانًا وهو يزور واشنطن)، لكنه لم يعد يناسب أحدًا الآن. لقد أصبح موضة قديمة على نحو يثير اليأس. والأحمق فقط هو من يعود إلى محل التنظيف ويدفع الكثير مقابل تجربته. والإسرائيليون لا يرغبون أبدًا فى أن يظهروا بمظهر الحمقى.

على الجانب الفلسطينى، يبدو المشهد أكثر قتامة. بالنسبة للعامة، فإن عدالة قضيتهم. والأمل فى إقامة دولتهم. والحلم بحياة أفضل يخيم عليها السلام. مازال يشتعل داخلهم. لكنه مثل الحطب المغطى بطبقتين من الرماد. رماد الاحتلال، الذى لا يزول أبدًا، ورماد قيادتهم الوطنية. الفلسطينيون ما زالوا يتحدثون تحت جنح الظلام عن الظلم الذى يتعرضون له بسبب الوضع الراهن.

وهذا سهل، بل آمن، إذا كان حديثًا خاصا. لكن هناك القليل من الأشخاص الذين يمكنهم الوقوف بحماس إلى جانب أية مقترحات ملموسة لتغيير ذلك الوضع. ومن الواضح على نحو مرير، أنه لا يوجد أحد فى جانبهم لديه السلطة اللازمة لتفعيل أى اقتراح. وأى شخص لديه بعض هذه السلطة يصبح أكثر ثراءً من خلال الحفاظ على الوضع الراهن. ثم إنه أيضًا ليس من الآمن أو يبدو أنه غير آمن على نحو كاف، على الرغم من محاولة البعض إدانة العمليات الاستشهادية، والمقاتلين الإرهابيين وأساليبهم، التى أدخلت فلسطين فى ذلك النفق المظلم.

ما يعنيه ذلك فى الواقع هو أن قضيتهم أصبحت رهينة أية جماعة من المجانين يستطيعون إقناع صبى صغير بالتخلص من حياته. وهناك ملايين الصبية وعلى النحو نفسه، أصبحت الأغلبية المساندة للسلام من اليهود رهينة أى مستوطن مجنون يمسك ببندقيته وجميعهم معهم بنادق ويحشوها بالذخيرة ويطلق النيران على مسجد ممتلئ بالمصلين.حدث مثل هذا منذ عشر سنوات بواسطة شخص مخبول يدعى باروخ جولدشتاين أطلق دوامة العنف والقتل التى ما زلنا ندور فيها.

وهذا يذكرنى بتلك القصة الجيدة الجديدة التى أخذت تراودنى بلا خجل. أعتقد أننى كنت مخطئًا فى رأيى الخاص بإمكانية تحقيق السلام، على الأقل كاتفاق مبدئى، لأننى توقعت من إسرائيل أن تتصرف على أساس من مصلحتها الوطنية. ما لم أره، أو فشلت فى التفكير فيه، هو انهيار الوعى الوطنى فى إسرائيل وتفتيت المجتمع اليهودى. ما خسرته إسرائيل، وأنا أراه حيثما أولى وجهى، هو القدرة على التصرف على أساس من المصلحة الوطنية. فمصلحة القبيلة، حلت محل مصالح الأمة، وفى الكثير من الحالات التى شهدتها، مصالح شخصية بحتة. فجمع المال، على سبيل المثال، أو السعى لمنصب أو مصلحة شخصية. كانت تتضاءل أمام المصالح القومية. وذلك فى الأيام المبكرة التى عرفت فيها هذا المكان وأحببته للمرة الأولى.

يبدو لى ذلك تحولاً حزينًا ولا يبشر بأى خير. كما يبدو لى خسارة حقيقية. وكما قلت وبينت من خلال قدراتى المتواضعة، السبب هو الاحتلال، إنه ذو أثر مدمر.

يا لها من صفقة خاسرة: التخلى عن روح إسرائيل المتأججة من أجل بعض التلال الصخرية الجرداء، التى هى وطن شعب آخر. تلك التلال التى لو تم التخلى عنها بنفس راضية، فإنها قد تشترى لإسرائيل أعز أحلام مؤسسيها، أن تصبح هذه الأرض مكانًا يمكن لليهود أن يعيشوا فيه دون خوف.

ربما ما زال ذلك ممكن الحدوث، أو لعله يحدث الآن. بينما أنظر فى اتجاه آخر. إن لدى أصدقاء تشجعهم وتثير حماستهم بعض الدلالات التى حدثت مؤخرًا. ففى بداية خريف عام ٢٠٠٢ وقع سبعة وعشرون ضابطًا بالقوات الجوية، من الطيارين الموجودين بالخدمة والاحتياط على حد سواء، خطابًا يرفضون فيه مهمات الطيران المستقبلية التى تستهدف المدن الفلسطينية. وأدان الطيارون الاحتلال. وقالوا عن عمليات الاغتيال بالقنابل "غير شرعية وغير أخلاقية". كان لدى إسرائيل الكثير من الرافضين، لكن هذا الخطاب تسبب فى إثارة الكثير من الاضطراب. فهؤلاء الطيارون هم نخبة النخبة فى القوات المسلحة الإسرائيلية.

بعد شهر تقريبًا، صرح الجنرال موشى يعالون، رئيس الأركان، لثلاثة صحفيين إسرائيليين، بأنه ومعه نخبة من جيش الدفاع الإسرائيلى لا يؤمنون بأن سياسات الاحتلال ناجحة. إن عمليات الإغلاق وحظر التجوال، لا تجلب سوى المزيد من الحوادث. حيث تصنع إسرائيل الإرهاب الذى تدعى مكافحته. وأضاف قائلاً "إننا، فى قراراتنا التكتيكية، نعمل على النقيض من مصالحنا الإستراتيجية". ولم يحدث من قبل أن أدلى أحد كبار قادة الجيش بمثل هذا التصريح الذى لا يتفق وأوامر حكومته.

خلال الشهر التالى قام الرجل الرائع ياكوف بيرى ومعه ثلاثة من القادة السابقين للشين بيت، الشرطة السرية، بمقابلة صحفية هزت البلاد. ففى أشهر صحف إسرائيل اليومية، ظهروا برتبهم البراقة جنرالات، لكى يدينوا سياسات العنف والاغتيالات والمصادرات. إن هؤلاء الرجال يعرفون ، أكثر من أى شخص آخر ، أين تجد العظام المدفونة على جانبى الخط الأخضر. وقد اتفقوا على إعلان أنهم خائفون على إسرائيل، إن لم يتم العدول عن السياسات المعمول بها حاليًا.

هناك بارقة أمل أخرى: فى ديسمبر من ذلك العام، تم الإعلان عن اتفاق - فى الواقع اقتراح اتفاق - لتحقيق السلام. وقد أطلقوا عليه معاهدة جنيف، لأن مقترحيه حصلوا على مساعدة وزارة الخارجية السويسرية، وأعلنوا عنه فى احتفالية فى تلك المدينة السويسرية المسالمة التى استضافت اتفاقيات دولية سابقة اشتهرت بنجاحها.

اقترح الاتفاقية اثنان من السياسيين المحنكين، وهما وزير العدل الإسرائيلى السابق يوسى بيلين، ووزير المعلومات السابق بالسلطة الفلسطينية ياسر عبد ربه. وقد عمل كل منهما مفاوضًا لصالح بلده من قبل. والآن، كمواطنين عاديين، عملوا على هذه الوثيقة لمدة عامين ونصف العام. وبهذا العمل الجاد، ومن خلال مصداقيتهما، تلقيا دعمًا دوليًا مدهشًا .حتى كولين باول قام بتشجيعهما . فماذا كانت بنود الاتفاقية؟ إنها بالطبع بنود يعرف الجميع أنها يجب أن تنتهى بتحقيق السلام: الضفة الغربية وقطاع غزة للفلسطينيين، وإسرائيل لليهود، على نحو حاسم. ولا يكون هناك حق عودة، وتكون هناك سلطة مشتركة على القدس. المسجد الأقصى للعرب، والحائط الغربى لليهود . ويكون هناك اعتراف متبادل، ولا مزيد من الحروب.

هو الرأى العام الإسرائيلى، أن اتفاقية جنيف اتفاقية مكملة أو ربما حلت محل اتفاقية مشابهة ولكنها "أقل نضجًا" تم إعلانها قبل عام. وهذه الاتفاقية تمت صياغتها بواسطة الأرستقراطى الفلسطينى سارى نسيبة، وأحد قادة الشين بيت السابقين آمى عيالون. وكان رد الفعل باعثًاعلى الأمل، حيث وقع على الوثيقة سبعون ألف فلسطينى ومائة ألف إسرائيلى، على شبكة الإنترنت. وكان رد الفعل على اتفاقية جنيف الجديدة مشجعًا . وفى استطلاع رأى أجراه معهد بيكر. اتضح أن أغلبية الفلسطينيين وأغلبية الإسرائيليين موافقون على شروط الاتفاقية الجديدة.

يمكننى أن أدرك لماذا يتحمس أصدقائى، فمن المدهش أن تقرأ عن السلام فى الأخبار مرة أخرى. لكننى لا أرى نفسى، أو أراهم، يحتفلون بنهاية تلك الحقبة المظلمة قريبًا . ربما أكون حالمًا أحاول التعويض عما رأيته من عنف، لكننى لا أرى أى مسار للأمام، لكل أو أى من هذه الاعتراضات والمقترحات الخاصة بالسلام.

بالنسبة للاعتراضات، تم تسريح الطيارين من الخدمة على الفور، وألقى بهم خارج وحداتهم. واضطر بعض طيارى الاحتياط إلى التراجع عن موقفهم لأنهم كانوا على وشك خسارة وظائفهم فى حياتهم المدنية، مثل أحد طيارى شركة العال، هل ذكرت من قبل أن شركة الخطوط الجوية الوطنية يديرها جنرال سابق هى الأخرى؟أما عن رئيس الأركان، فربما كان يجب عليه البدء فى البحث عن عمل وبيت سياسى يؤويه.

أما مقترحات السلام عن عروض السلم فإنها جميلة وشجاعة وعادلة، وتحسب لصانعيها، ولكنها تجعلنى أشعر ببعض الحزن، لأننى عندما أنظر إليها أرى رجالاً لديهم مواقف وقدرة على إصدار أحكام سياسية ناضجة، يعيشون فى ظل حكومات تتظاهر بأنها ترغب فى تحقيق السلام. ومع ذلك، وضعوا أيديهم على الحقائق واتخذوا قرارهم، وكانت لديهم فرصة أفضل لوقف أعمال القتل بدون حكوماتهم.

كانوا على حق. وقد حصلت مفاوضات عبد ربه، على مباركة قليلة من ياسر عرفات من المرجح أنه قدر أنه ليس من الملائم الاستمرار فيها بدون هذه المباركة، لكن حالما تم الإعلان عن اتفاقية جنيف، تجاهلها عرفات ولم يدعمها ولو بكلمة. وبالنسبة لآرييل شارون فإنه لم يخيب أمله، حيث سرعان ما أعلن أن يوسى بيلين خائن، وأنه يعمل من خلف ظهر الحكومة. إلى حد ما، إننى لا أستطيع أن أرى السلام، بشروط جنيف، يلوح فى الأفق القريب.

لكن تبعًا لذلك القول المأثور الذى يردده الأطفال كثيرًا فى فيلم "ملائكة الفضاء الخارجى" إنه "يمكن أن يحدث".

فربما يأتى جنرال إسرائيلى متقاعد قوى ومنتخب يرغب فى استغلال ذكائه وحماسته لتحقيق السلام، مسدلاً الستار على حروب إسرائيل. شخص ما مثل إسحق رابين (لا أعتقد أن عرضه كان سيجلب السلام حقا، لكنه كان جادًا، وليس خائفًا من خصومه. هذا يمكن أن يحدث!.

ربما تصدم عرفات حافلة. هذا يمكن أن يحدث! بل على الأرجح دبابة.

أو ربما يأتى رئيس أمريكى يسعى حقًا للاستعانة بقوته الهائلة، ليس لأنها ستفيده، أو تجلب له أصوات الناخبين، أو الأموال، أو الأصدقاء الجدد من بين الإسرائيليين، أو من بين الصهاينة الأمريكيين، أو من بين اليمين المسيحى الأمريكى. بل لأن هذا هو الحق. حتى هذا يمكن أن يحدث.

لكننى الآن، لا أرى كيف يتحقق ذلك. ربما يمكننا أن نعتبره بارقة أمل. قد أكون مخطئًا. فى هذه الحالة، لكم أود أن أكون مخطئًا.

معجم مصطلحات

أجودات يسرائيل: حركة أرثوذكسية متطرفة معارضة للدولة الصهيونية تحولت إلى حزب سياسى، وهى الآن جزء من حزب ائتلافى يسمى يهود التوراة المتحدين، وهو يمثل الإشكيناز المتشددين.

الأراضى المحتلة: الضفة الغربية وقطاع غزة، اللتان تم احتلالهما بواسطة إسرائيل فى حرب الأيام الستة ١٩٦٧. وهذا المصطلح لا يستخدم على الإطلاق بواسطة الصقور الإسرائيليين، الذين يعتبرون كل الأراضى التى تم احتلالها جزءًا من أرض إسرائيل، أى جزءًا من أرض الميعاد التى وهبها الله لليهود.

إرتس يسرائيل: عبارة عبرية تعنى "أرض إسرائيل" تستخدم بواسطة الكثير من الصهاينة لوصف الأرض التى يعتقدون أن الله منحها لهم. ويعتقد بعض المتشددين أنها لا تشتمل فقط على دولة إسرائيل الأصلية (١٩٤٨) إلى جانب الضفة الغربية وغزة، ولكنها تشتمل أيضًا على أجزاء من لبنان وسوريا والأردن. وأكثرهم تشددًا يعرفها بأنها ببساطة "من النيل إلى الفرات"، أى من منتصف مصر إلى منتصف العراق.

إرجون: منظمة إرهابية يهودية اسمها الكامل " إرجون تسفائى لئومى" أو"المنظمة العسكرية القومية" انشقت عن الهاجانا عام ١٩٣١ اعتراضًا على سياسة "ضبط النفس" السائدة آنذاك. وكانت تستهدف كلاً من البريطانيين والعرب، وفجرت فندق الملك داود بالقدس عام ١٩٤٦ .كما أنها المسئولة عن المذابح التى حدثت فى القرى الفلسطينية خلال حرب الاستقلال عام ١٩٤٨.

الأرض مقابل السلام: الفكرة التى سادت كل المقترحات السائدة للتوصل لاتفاقيات سلام دائمة بين إسرائيل والعرب. وهى عبارة أحيانًا يكتنفها الغموض، ولكن الفكرة التى مفادها أن تعيد إسرائيل الأرض التى احتلتها إلى العرب مقابل الاعتراف والسلام المتبادل، تعود إلى بداية انتصار إسرائيل فى حرب الأيام الستة ١٩٦٧.

إسرائيل الكبرى: انظر إرتس يسرائيل.

الإشكينازى: يهودى أوروبى. وهى مفرد إشكيناز، اليهود الأوروبيون.

إعلان المبادئ: أول وثيقة تم توقيعها فى الثالث عشر من سبتمبر عام ١٩٩٣ فى حديقة البيت الأبيض بواسطة ياسر عرفات وإسحق رابين كجزء من اتفاقيات أوسلو للسلام. وقد اعترف الفلسطينيون رسميا بإسرائيل ونبذوا الإرهاب. وفى المقابل، تعهدت إسرائيل بسحب جيشها من الضفة الغربية وغزة، واعترفت بمنظمة التحرير الفلسطينية ورئيسها ياسر عرفات، زعيمًا شرعيا للشعب الفلسطينى.

الانتفاضة : كلمة عربية مأخوذة من الفعل "ينتفض" وهى تصف الهبة الفلسطينية ضد الاحتلال الإسرائيلى حيث بدأت عام الانتفاضة الأولى، وفى عام ٢٠٠٠ حدثت "انتفاضة الأقصى" على اسم المسجد الكبير المواجه لقبة الصخرة.

إيباك : (AIPAC) لجنة الشئون العامة الأمريكية الإسرائيلية، وهى لوبى موال لإسرائيل مركزه واشنطن.

بابكيس: كلمة يديشية معناها "لا شىء".

باجاتز: مصطلح عبرى للمحكمة الإسرائيلية العليا للعدل، وهى توازى المحكمة العليا فى الولايات المتحدة.

بار ميتسفاه: احتفال دينى يهودى عندما يصل الطفل اليهودى إلى سن البلوغ فى الثالثة عشرة من عمره. (أما بالنسبة للفتاة فيدعى بات ميتسفاه).

برنامج: اضطهاد منظم وغالبًا مشجع بشكل رسمى أو مذبحة لجماعة من الأقليات، وتستخدم غالبًا لوصف المذابح البولندية والروسية ضد اليهود.

بروتكسيا: كلمة بالعبرية الدارجة (عن الروسية) تعنى الحماية الخاصة أوالعلاقات أو "الواسطة".

بقشيش: كلمة عربية تعنى "عطية" أو "نفحة" وهو مبلغ مالى صغير.

بوتس: كلمة يديشية بمعنى "قضيب" أى أحمق أو مغفل.

البوريم: عيد يهودى للاحتفال بإحباط المؤامرة التى دبرها هامان الشرير ضد اليهود. قامت البطلة اليهودية إستير بالسعى لدى زوجها الملك أحشويرش، ملك بابل، حتى أمر بشنق وزيره الشرير.

بيس: كلمة يديشية معناها الضفائر الطويلة المجعدة التى يضعها الكثير من الرجال اليهود الأرثوذكس ، حيث تحظر الشريعة اليهودية قص هذا الشعر.

بيشر: كلمة يديشية تعنى تنورة قصيرة. وهى تستخدم غالبا لوصف أى شىء صغير الحجم أو له عواقب ضئيلة.

التوانسة: لقب أطلق على المسئولين الفلسطينيين أو الشخصيات المهمة التى جاءت إلى فلسطين مع ياسر عرفات بعدما أسدلت اتفاقيات أوسلو الستار على نفى منظمة التحرير الفلسطينية فى تونس.

التوراة: الأسفار الخمسة الأولى لموسى والأسفار الخمسة الأولى من الكتاب المقدس.

الجلابية: زى عربى ريفى تقليدى، يصنع عادة من القطن وعادة ما يكون ذا أكمام طويلة ويصل حتى القدمين. يمكن أن يرتديه الرجال والنساء.

الجهاد الإسلامى: منظمة إرهابية صغيرة مقرها دمشق (سوريا) وهى تتعهد بإقامة دولة إسلامية فلسطينية وتدمير إسرائيل.

جوش إمونيم: "كتلة الإيمان"، حركة تضم مستوطنين إسرائيليين متدينين.

جوش شالوم: "كتلة السلام" جماعة نشطة سميت بذلك إشارة إلى جوش إمونيم. تأسست عام ١٩٩٣ بواسطة أورى أفنيرى، عضو الكنيست السابق، من أجل مناهضة الاحتلال وإقامة دولة فلسطينية.

جوى، أو جويم (الجمع)، أو الجويش (الصفة): كلمات عبرية ويديشية تستخدم أحيانًا للتحقير ومعناها شخص غير يهودى، أو أشخاص غير يهود، أو"الأغيار".

الحائط الغربى (أو حائط المبكى): آخر ما تبقى من المعبد الثانى الذى دمره الرومان. وبعد ذلك، اعتبر هذا الحائط أقدس البقاع لدى اليهود. ولمدة ٢٠٠٠عام تقريبًا، وهم يجيئون من جميع أنحاء العالم للصلاة عند ذلك الحائط، داعين الله أن يعيد اليهود و"يجمعهم"، حتى يأتى المسيح فى النهاية. وقد عجز اليهود عن الوصول للحائط بعد حرب الاستقلال (١٩٤٨) واستعادوه بعد عشرين عامًا تقريبًا، فى حرب الأيام الستة.

حرب الاستقلال (١٩٤٨): الحرب التى نشبت بين دولة إسرائيل الجديدة والدول العربية الست المحيطة بها، والتى حاولت وأد الدولة الوليدة فى مهدها قبل أن تستولى على الأرض. وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، كانت إسرائيل قد احتلت ٧٨٪ من أرض فلسطين الواقعة تحت الانتداب. والعرب الذين كانوا يعيشون على تلك الأرض فروا أو أجبروا على الفرار، واستمر لجوؤهم وأبنائهم وأحفادهم حتى اليوم. وقد فشل اليهود فى اجتياح ساحل البحر الأبيض المتوسط بالقرب من غزة. وهذه الأرض، التى عرفت بعد ذلك باسم قطاع غزة، كانت خاضعة للإدارة المصرية طوال العشرين عامًا التالية. وخطط الجيش الأردنى للاحتفاظ بالضفة الغربية لنهر الأردن. والأرض الممتدة من ذلك النهر حتى القدس التى أطلق عليها بعد ذلك الضفة الغربية تم ضمها إلى المملكة الأردنية حتى حرب الأيام الستة.

حرب الأيام الستة ١٩٦٧: قامت إسرائيل بهجوم استباقى على الدول العربية المجاورة وهزمتها جميعًا فى غضون أسبوع، وهذا الوصف يعود إلى موشيه ديان الذى قصد منه الإشارة إلى العبارة التى جاءت فى التوراة بخصوص خلق الله للدنيا فى ستة أيام. وفى هذه المعركة، انتزع الإسرائيليون من المصريين كلا من قطاع غزة الذى كان تحت الإدارة المصرية وشبه جزيرة سيناء التى أعيدت إلى المصريين وفقًا لمعاهدة السلام ١٩٧٩ . وانتزع الإسرائيليون من السوريين مرتفعات الجولان، التى كانت فى السابق تهدد المستوطنات اليهودية فى الجليل الأعلى. ومن الأردن، انتزع الإسرائيليون الضفة الغربية، وهى تشتمل على كل الأرض الواقعة بين الخط الأخضر القديم ونهر الأردن.

حرب يوم كيبور وتسمى أيضًا حرب رمضان أو حرب أكتوبر: فى عام ١٩٧٣ قام أنور السادات رئيس مصر بالهجوم على إسرائيل بمساعدة سوريا فى عيد الغفران اليهودى، وذلك لاستعادة الأرض المسلوبة عام ١٩٦٧ . فاجأ الهجوم الجيش الإسرائيلى. ولكنه فى النهاية استعاد زمام الأمور فى الحرب التى استغرقت ثلاثة أسابيع، وعانى من خسائر مروعة، مما أدى إلى سحق إيمان إسرائيل التى كانت فى السابق شبه مطلقة بصدق وقوة حكومتها وجيشها.

الحريديم: كلمة عبرية تصف الأرثوذكس المتشددين، ومعناها الحرفى من يخشون الله. وهم يعارضون قيام الدولة اليهودية ويرفضون سلطة إسرائيل لأنها فى رأيهم تؤخر مجىء المسيح. وفى السنوات الأخيرة، شاركوا الدولة برنامجها.

الهاسبارا: كلمة عبرية بمعنى "التفسير" ويمكن أن نطلق عليها الدعاية أوالترويج.

حق العودة: التأكيد الفلسطينى على أن لاجئى ١٩٤٨يجب أن يكونوا قادرين على العودة إلى ديارهم القديمة فى إسرائيل.

حماس: أكثر جماعات المقاومة الإسلامية نجاحًا وشعبية فى فلسطين، وقد تفرعت عن جماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٧٨ . وقد تمت إدانتها وحظرها باعتبارها منظمة إرهابية بواسطة الولايات المتحدة ومعظم حلفائها. وهدفها المعلن هو إقامة دولة إسلامية على كل فلسطين، بدلاً من إسرائيل.

الحزب الدينى القومى: حزب سياسى إسرائيلى قومى متشدد، يمثل حركة الاستيطان، ويؤمن بأن إسرائيل يجب أن تمتد من نهر الأردن حتى البحر الأبيض المتوسط. كما يعمل على تغيير قوانين الدولة لكى تتوافق مع الشريعة اليهودية.

حزب الله: حزب إسلامى مقاتل وميليشيا تأسس فى لبنان بواسطة جماعة من رجال الدين عام ١٩٨٢ بغرض طرد القوات الإسرائيلية من أرضهم، بعد ذلك تبنى القضية الفلسطينية وقام برعاية الهجمات الانتحارية على الإسرائيليين. ومثل حماس، لم يعترف بحق إسرائيل فى الوجود، ويسعى إلى إقامة دولة إسلامية على كامل التراب الفلسطينى.

حيروت: حزب يمينى تأسس عام ١٩٤٨بواسطة مناحم بيجن. وقد تبنى فكر فلاديمير جابوتنسكى المنادى بالصهيونية الثورية. وحتمية قيام دولة يهودية على

كل أرض إسرائيل. وأصبح حزب حيروت أحد العناصر الرئيسية فى ائتلاف الليكود، الذى يحكم إسرائيل اليوم. وحزب حيروت الجديد ينادى بتوسيع المستوطنات وطرد العرب من فلسطين.

الخط الأخضر: خط الهدنة عام ١٩٤٩ الذى حدد الحدود الشرقية لإسرائيل حتى حرب الأيام الستة واحتلال الأراضى المحتلة.

دائرة أراضى إسرائيل: وكالة قوية مسئولة عن إدارة ٩٣٪ من الأراضى الإسرائيلية التى تقع ضمن الملكية العامة، وتشتمل على الأراضى المملوكة للصندوق القومى اليهودى. و"ملكية" عقارات فى إسرائيل يعنى عادة تأجير الأراضى من دائرة أراضى إسرائيل.

الدروز: جماعة أقلية عربية تعيش غالبيتها فى قرى جبلية صغيرة، ينحدر أفرادها من حركة إسلامية إصلاحية تأسست فى القرن الحادى عشر، وهم لا يعتبرون مسلمين فى رأى المسلمين الآخرين، ولديهم كتاب مقدس خاص بهم ويؤمنون بتناسخ الأرواح. وقد انحازوا إلى اليهود فى أثناء حرب الاستقلال وهم العرب الوحيدون الذين يخدمون فى الجيش الإسرائيلى.

دوفيديفان: وحدة كوماندوز إسرائيلية نخبوية.

الدونم: اسم عبرى مشتق من اللغة التركية يعبر عن وحدة لقياس مساحة الأرض فى إسرائيل وفلسطين، ويبلغ نحو ربع أكر.

الدياسبورا: اليهود المشتتون خارج إسرائيل.

دينار: اسم عملة، تستخدم فى العراق وفى الأردن.

الرافضون: مجندون إسرائيليون يرفضون الالتحاق بالجيش لأسباب أخلاقية أو سياسية. وهذه الكلمة تستخدم أيضًا لوصف الاحتياط الذين يرفضون العودة للخدمة لأسباب أخلاقية أو سياسية.

ريمون: لفظة عبرية تعنى "ثمرة الرمان" وهو الاسم الشائع لدى الجنود للقنبلة اليدوية، وهو اسم وحدة سرية للاغتيالات، ذات تكتيكات قذرة تحت إمرة آرييل شارون، فى أثناء قيادته للجبهة الجنوبية فى أوائل السبعينيات.

السامرة: انظر الضفة الغربية.

سفارديم: يهود من أصل شرق أوسطى تعود أعراقهم وتقاليدهم الدينية إلى العصر الذهبى لليهود فى أسبانيا، قبل ظهور محاكم التفتيش.

السلام الآن (بالعبرية "شالوم اخشاف"): حركة سلام صهيونية تأسست عام ١٩٧٨بواسطة ثلاثمائة وأربعة وثمانين جنديا وضابط احتياط لمناهضة الاحتلال، وسرعان ما أصبحت منظمة وطنية شهيرة للسلام، تجذب عشرات الآلاف من الإسرائيليين إلى تظاهراتها.

السلطة الفلسطينية أو السلطة الوطنية الفلسطينية PA أو PNA الكيان الحكومى المؤسس بواسطة اتفاقيات أوسلو الذى تشكله منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات لإدارة الضفة الغربية وغزة المحتلتين وتوفير الأمن لإسرائيل.

سوخنوت: كلمة عبرية معناها الوكالة اليهودية.

سوكوت (عيد السوكوت): عيد المظال أو المعابد. عيد الحصاد اليهودى الملىء بالبهجة الذى يبدأ بعد خمسة أيام من يوم كيبور أو عيد الغفران ويستمر لمدة أسبوع، وهو يخلد ذكرى الأربعين يومًا التى هام فيها اليهود فى الصحراء. ويقوم اليهود فيه ببناء تعريشة أو خيمة والإقامة والأكل فيها من أجل تخليد ذكرى إقامة أجدادهم فى الصحراء.

شاباس (بالعبرية، شباط): كلمة يديشية معناها يوم السبت.

شاس: حزب أرثوذكسى متشدد انشق على أجودات يسرائيل عام ١٩٨٤. سرعان ما أصبح الحزب السائد للسفارديم، وقد جذب مصوتين غير أرثوذكس وذلك طمعًا فى مزايا المنتمين للجماعة.

شالوم: كلمة عبرية بمعنى "السلام" تقال عادة فى التحية وفى الوداع فى إسرائيل.

شباط شالوم: تحية عبرية خاصة بيوم السبت تعبر عن التمنيات الطيبة.

شتاركر: لفظة يديشية تعنى "شخص قوى" أو "مفتول العضلات".

شتيتل: مجتمع يهودى صغير، زراعى إلى حد كبير، وغالبًا ملتزم بالتقاليد وسلفى، كان شائعًا فى شرق أوروبا.

شلوب: كلمة يديشية بمعنى أخرق أو غبى أو غير جذاب.

شليميل: كلمة يديشية معناها أخرق أو أحمق.

شمير: كلمة يديشية بمعنى "شحم أو زيت" وتشير إلى الرشوة.

شنوررز، شنورينج: كلمة يديشية بمعنى مستغل.

شيفا: الحداد اليهودى الذى يستمر سبعة أيام وفقًا للشريعة اليهودية.

شيكل: عملة توراتية تستخدم الآن فى إسرائيل (NIS الشيكل الإسرائيلى الجديد).

شول: كلمة يديشية بمعنى "معبد يهودى".

الشين بيت (أيضًا يسمى الشاباك): خدمة الأمن والاستخبارات المحلية الإسرائيلية، وتعرف عادة باسم الشرطة السرية.

شينوى: حزب سياسى إسرائيلى تأسس عام ١٩٧٤وقد فاز بعدد كبير من المقاعد فى انتخابات ٢٠٠٣، حيث جاء ترتيبه الثالث بعد الليكود والعمل. وفى ظل قيادة تومى لابيد، كان ينادى بالانفصال التام بين الدولة والدين، وإلغاء القوانين الخاصة بالسبت والطعام الحلال، وتقنين الزواج المدنى وتوقف الحكومة عن تمويل طلاب المدارس الدينية وتأجيل تجنيدهم.

صابرا (مشتق من الصبار): لفظ يطلق على اليهودى المولود فى إسرائيل، كما يطلق على ثمرة التين الشوكى المحلية من حيث إنها تشبه شخصية الإسرائيلى الأصلى، صلبة ومليئة بالأشواك من الخارج، ولكنها حلوة ولينة من الداخل.

الصلحة: عملية عربية تقليدية لحل النزاع.

الصندوق القومى اليهودى (الكيرن كيميث): تأسس بواسطة المؤتمر الصهيونى الخامس عام ١٩٩١ لجمع التبرعات للمجتمعات اليهودية لشراء الأراضى فى فلسطين. وهو لا يزال يمتلك نحو ١٢،٥٪ من الأرض فى إسرائيل، فى المرتبة الثانية بعد الدولة. وهو ملتزم بزراعة الأشجار و"استعادة الأرض".

الصهيونية: الإيمان بأن اليهود يجب أو من المحتم عليهم العودة إلى الأرض المقدسة من أجل تحقق وعد الله الذى جاء فى الكتاب المقدس، ففى أواخر القرن التاسع عشر أدى المأزق اليهودى فى أوروبا إلى تنشيط الحركة اليهودية القومية، التى سرعان ما اعتنقت الفكر الصهيونى قاعدة ووقودًا لها. وخلال عقدين من الزمن تم اعتبار القومية اليهودية والصهيونية شيئًا واحدًا، وقامت المنظمات اليهودية فى جميع أنحاء العالم، بحشد جهودها للاستيطان وإقامة دولة فى فلسطين، ذلك الجهد الذى آتى ثماره بإقامة دولة إسرائيل ١٩٤٨.

صواريخ قسام: صواريخ من الصلب بدائية الصنع تملأ بالمواد المتفجرة، وقد تم تطويرها بواسطة حماس خلال الانتفاضة. وهى تستخدم عادة لضرب المستوطنات والمدن داخل إسرائيل.

الضفة الغربية: جزء من الأرض المحتلة فى حرب الأيام الستة ١٩٦٧ وهى تقع شرق إسرائيل وغرب نهر الأردن. ومعظم اليهود يستنكرون مصطلح الضفة الغربية لأنه يعود إلى أيام سيطرة المملكة الأردنية على كلا الضفتين لنهر الأردن.

ويشير الإسرائيليون إليها، بدلاً من ذلك، باسم "يهودا والسامرة" التى تعبر عن المملكة اليهودية القديمة فى الأيام التوراتية.

العمل: حزب سياسى إسرائيلى يحتل توجهًا يمتد من الوسط إلى اليسار، وهو ينتمى إلى مؤسسى إسرائيل. وقد هيمن على السياسة الإسرائيلية حتى منتصف السبعينيات.

عملية أوسلو للسلام: سلسلة من الاتفاقيات الموقعة بواسطة ياسر عرفات زعيم منظمة التحرير الفلسطينية، وإسحق رابين، رئيس وزراء إسرائيل، بدأت سبتمبر ١٩٩٣. وقد منحت اتفاقيات أوسلو للفلسطينيين حكمًا ذاتيًا محدودًا تحت قيادة عرفات، مقابل تفكيك خلايا الإرهاب والاعتراف بدولة إسرائيل.

عيد الفصح أو بالعبرية "فيساخ": عيد يأتى فى الربيع يحتفل بالخروج اليهودى من مصر.

فتح: حركة علمانية سرية تأسست عام ١٩٥٩ بواسطة ياسر عرفات للعمل على تحرير فلسطين من الاحتلال الإسرائيلى بالقوة، وهى لا تزال الحزب السياسى الفلسطينى السائد.

الفلاحون: كلمة عربية تعنى مزارعين أو عمالاً زراعيين، تستخدم فى بعض الأحيان بمعنى ريفيين أو سذج.

فلسطين تحت الانتداب: فلسطين تحت السيطرة البريطانية، عندما فرض عليها الانتداب بواسطة عصبة الأمم، بعد الحرب العالمية الأولى. وقد انتهى الانتداب عام ١٩٤٨ حينما انسحب البريطانيون، واعترفت الأمم المتحدة بإسرائيل وبدأت الحرب مع العرب.

قانون العودة: قانون إسرائيلى يسمح لكل يهودى بالهجرة إلى إسرائيل والتمتع بكل حقوق المواطنة.

قبة الصخرة: مسجد كبير فى القدس أنشئ بين عامى ٦٨٧و٦٩١ فى موقع المعبد الثانى، الذى دمره الرومان عام ٧٠ . وهو يمثل جزءًا من تجمع دينى يدعوه العرب الحرم الشريف، ويضم المسجد الأقصى وهو أحد أشهر معالم القدس وأصبح رمزًا للمقاومة الفلسطينية.

القرآن: الكتاب المقدس للإسلام.

قسامى: انظر كتائب عز الدين القسام.

كتائب عز الدين القسام: الجناح العسكرى لحماس، وقد أطلق هذا الاسم تيمنًا بزعيم المقاومة الفلسطينية الشعبى الذى جاد بأنفاسه وهو يكافح الصهاينة والبريطانيين عام ١٩٣٥.

الكنيست: البرلمان الإسرائيلى الذى يضم مائة وعشرين عضوًا.

الكوشير: الطعام اليهودى الحلال المعد طبقًا لأحكام الشريعة اليهودية.

كيبوتس، أو كيبوتسيم (الجمع)، أو كيبوتسنيك (عضو الكيبوتس): مستوطنة زراعة تعاونية كانت تمثل العمود الفقرى للحركة الصهيونية العمالية. وقد اشتقت من المزرعة التعاونية الاشتراكية، ولكن فى حالة الكيبوتسيم، يكون أعضاؤها هم

ملاك وعمال المشروع على حد سواء. وعلى مدار السنين، أسهمت المزارع التعاونية فى صناعة العديد من أفضل الزعماء الإسرائيليين ذوى التوجه الأيديولوجى.

الله اكبر: عبارة عربية نداء الدعوة إلى الصلاة فى الإسلام.

لواء جولانى: أشهر وحدة مشاة فى جيش الدفاع الإسرائيلى، تأسس أيضًا عام ١٩٤٨ خلال حرب الاستقلال للدفاع عن شمال إسرائيل.

لواء جيفاتى: لواء تابع للجيش الإسرائيلى يعود استخدامه إلى حرب الاستقلال، تم تكوينه من أجل الدفاع عن النقب والمستوطنات المعزولة جنوب إسرائيل.

الليكود: ائتلاف سياسى إسرائيلى يمينى صعد إلى السلطة عام ١٩٧٧ تحت قيادة مناحم بيجن. ومع وجود آرييل شارون فى السلطة فإنه لا يزال الحزب المهيمن فى إسرائيل.

مائير كاهانا: حاخام مثير للجدل ولد فى بروكلين عام ١٩٣٢ وأسس رابطة الدفاع اليهودية التى كانت تطالب بطرد العرب من إسرائيل الكبرى، وإقامة دولة يهودية ثيوقراطية وحظر زواج اليهود من غير اليهود. وفى إسرائيل، قام بتأسيس حزب كاخ العسكرى المناهض للعرب وتزعم قيادته فى الكنيست. وقد تم اغتياله على يد متطرف مصرى عام ١٩٩٠ .بعد ذلك، قام باروخ جولدشتين، عضو حزب كاخ، باغتيال ٣٤ مسلمًا فى أثناء أدائهم الصلاة فى أحد مساجد الخليل وفى عام ١٩٩٤ تم حظر الحزب باعتباره منظمة إرهابية.

ماشسوم: كلمة عبرية معناها "نقطة تفتيش".

المؤذن: لفظة عربية تشير إلى الشخص الذى ينادى على المسلمين الصالحين للذهاب إلى المسجد للصلاة خمس مرات فى اليوم.

المجلس التشريعى الفلسطينى PLC: كيان تشريعى أوجدته اتفاقيات أوسلو.

المختار: عمدة أو زعيم قرية، وهى لفظة عربية.

المقاطعة: مقر ياسر عرفات والسلطة الفلسطينية فى مدينة رام الله بالضفة الغربية.

منظمة التحرير الفلسطينية PLO: منظمة وطنية تأسست عام ١٩٦٤ تحت رعاية الجامعة العربية، وكان هدفها تدمير إسرائيل. فى وقت لاحق، غيرت هدفها رسميا وأصبح إقامة دولة فلسطينية مستقلة.

ميتسفاه: كلمة عبرية معناها "التزام". بمعنى أى من الستمائة وثلاثة عشر عملاً صالحة التى أمر اليهود أن يؤدوها. وهذه الكلمة تستخدم لوصف أى التزام دينى أو عمل صالح.

ميرتس: حزب يسارى إسرائيلى يؤيد السلام الآن وهو ينادى بإخلاء المستوطنات فى الأراضى المحتلة، وانسحاب جيش الدفاع الإسرائيلى وإقامة دولة فلسطينية.

نقاء السلاح: تقليد خاص بالجيش الإسرائيلى يختص بالجانب الأخلاقى فى الحرب. وهو يعود إلى الهاجانا، قبل تأسيس الدولة، ويضم مجموعة من الأفكار تشتمل على حماية المدنيين والمعاملة الإنسانية للأسرى واستخدام أقل قدر من القوة. كما يشتمل أيضًا هذا التقليد على حق وواجب كل جندى يهودى فى رفض والإبلاغ عن أى أمر غير قانونى أو غير أخلاقى أو غير مهذب.

النقب: منطقة صحراوية تقع جنوب إسرائيل.

الهاجادا: كتاب مقدس يحتوى على قصة الخروج وصلاة السيدير، وهو عيد يحتفل به خلال عيد الفصح اليهودى إحياءً لذكرى خروج اليهود من مصر. ويقرأ كتاب الهاجادا بصوت مرتفع خلال صلاة سيدير الفصح.

الهداسا: المنظمة الصهيونية للنساء بأمريكا.

الهاجانا: الجيش السرى اليهودى الذى قاد حرب الاستقلال ١٩٤٨ وكان قاعدة لتأسيس جيش الدفاع الإسرائيلى.

الهجرة: رحلة للهروب من الخطر. ويقصد بها انتقال محمد من مكة إلى المدينة عام ٦٢٢ ميلادية، إيذانًا ببدء الحقبة الإسلامية والتقويم الهجرى.

الهستدروت: الاتحاد العام لنقابات العمال الإسرائيلية. تأسس فى فلسطين عام ١٩٢٠ لتنظيم العمالة اليهودية، أسهم فى إقامة الدولة اليهودية. وعلى الرغم

من أن نفوذه السياسى قد تناقص، فإنه لا يزال واحدًا من أكبر المنظمات الإسرائيلية وأكثرها ثراءً.

الوحدة ١٠١: وحدة كوماندوز قديمة تابعة لآريل شارون، اشتهرت بعملياتها الدموية الانتقامية ضد الفلسطينيين.

الوكالة اليهودية: الجناح التنفيذى للمنظمة الصهيونية العالمية. كانت تمثل المجتمع اليهودى فى فلسطين تحت الانتداب البريطانى ولعبت دورًا محوريًا فى هجرة اللاجئين اليهود. واليوم، تقوم بتشجيع ومساعدة اليهود فى شتى أنحاء العالم على الإقامة فى فلسطين.

اليديشية: لغة ألمانية راقية، مطعمة بكلمات عبرية وسلافية، تستخدم بواسطة يهود أوروبا الشرقية.

اليشيفا: مدرسة يهودية (أرثوذكسية عادة) للدراسات الدينية.

اليهود المحافظون: جماعة من اليهود يلتزم أعضاؤها بالتعاليم والطقوس اليهودية. وفى الوقت نفسه يؤمنون بأن الشريعة اليهودية ليست ثابتة ولكنها تتغير تبعًا للظروف التاريخية.

يهودا: الضفة الغربية.

اليهودية الأرثوذكسية: مجموعة من الحركات اليهودية، تشتمل على الأرثوذكس المتشددين والأرثوذكس المعاصرين والحسيديين المنتمين للصوفية اليهودية الحلولية، تعتنق منهجًا جوهريًا للتعاليم اليهودية وتعبر عن درجات مختلفة من قبول أو عدم قبول الحداثة، بما فى ذلك المناهج الأكاديمية المعاصرة للتاريخ وتحليل النصوص الدينية.

اليهودية الإصلاحية (أيضًا اليهودية التقدمية أو الليبرالية): أقل فروع اليهودية تحفظًا، وهو يؤمن بأن الإنسان عامة هو من يقرر أى التعاليم والتقاليد اليهودية يكون مناسبًا للحياة المعاصرة.

يوفى: كلمة عبرية معناها "جميل". وهو تعبير شائع يدل على الموافقة.

يوم كيبور: عيد غفران الذنوب، وخاصة فى العام المنصرم. ويحين موعده فى الخريف، وذلك بعد أسبوع من نهاية السنة العبرية، وهو أقدس الأعياد اليهودية.

G-d: طريقة لكتابة كلمة "الله" تستخدم بواسطة اليهود المتدينين التقليديين من أجل مراعاة حرمة ذكر اسم الرب.

IAF: القوات الجوية الإسرائيلية، وهى جزء من جيش الدفاع الإسرائيلى.

IDF: جيش الدفاع الإسرائيلى، اختصار يستخدم للإشارة إلى القوات المسلحة الإسرائيلية بكامل هيئتها.

ملاحظات وشكر المؤلف

يقوم كل مراسل صحفى بقضاء بعض الوقت فى شرح "القواعد الأساسية" التى يعتمد عليها لمصادره. وما يحاول أن يوضحه هو كيف سيستخدم المعلومات التى على وشك الحصول عليها من المصدر فى كتابه. هل سيقوم العمل المنشور بذكر اسم المصدر؟ هل سيلحق بهذا المصدر أية اقتباسات مباشرة؟

وفى بعض المدن مثل واشنطن، تعتبر هذه المناقشة للقواعد الأساسية عملاً قانونيًا يمكن أن يستغرق وقتًا أطول من وقت المقابلات الشخصية فى حد ذاتها. وهو أكثر دلالة من المعلومات المنقولة، لأن القواعد الأساسية من حيث خصوصيتها وتفردها تشير إلى أهمية المصدر، الحساسية المتفجرة لمعلوماته أومعلوماتها. أليست القدس أقل سوءًا من ذلك. كما أنه فى بقية إسرائيل وفلسطين، تكون الأشياء، على نحو إيجابى، عتيقة الطراز. ومعظم الأشخاص يقولون ببساطة ماذا يقصدون، وينطقون حروف أسمائهم، حتى يمكنك كتابته بالشكل الصحيح. ولقد شعرت دائمًا بالامتنان لهذه الشجاعة والنزاهة.

وما زلت أجد نفسى أستغرق بعض الوقت لكى أشرح لمصادرى كيف سأستخدم معلوماتهم. ولقد علمت فى غضون ذلك، أن هذا الكتاب سوف يكون مثيرًا للجدل. وأى شىء حول هذا الموضوع سوف يثير الجدل. وعلى مدار السنين أصبحت على وعى تام بالكيفية التى قد ينظر بها إلى أفكارى على أنها هرطقة أو تطرف. وقد قمت بصياغة قواعدى الأساسية بناءً على ذلك. وما كنت أقوله غالبًا هو: "إننى لا أستخدم الكثير من الاقتباسات، وغالبًا لا أرغب فى الإشارة إليك. فإذا كنت تقول لى شيئًا جيدًا، من المرجح فقط أن أسرقه منك."

وهذه ليست مزحة. ما كنت أطلبه منهم هو أن يجعلونى أفهم. وعلى ذلك، أكتب القصة بأسلوبى الخاص وعلى مسئوليتى الخاصة. وكان هدفى من ذلك هو إعفاء الإسرائيليين من مشقة الدفاع عن هرطقتى. وعلى ذلك، فأنا أعرب عن امتنانى للكثير منهم، واحدًا واحدًا. ولكن لا يجب إلقاء اللوم على أى منهم بسبب استنتاجاتى السخيفة.

على الجانب الفلسطينى من الخط الأخضر، الأمور أكثر سلاسة. وقد استبعدت معظم أسماء المصادر من النص، وسوف ألتزم بذلك فى هذا الشكر. فللأسف، يمكن أن يصبح أى شخص يقول الحقيقة بصوت مرتفع فى الضفة الغربية وغزة هدفًا للإسرائيليين والفلسطينيين. وكما كتبت، فإن السلطة الفلسطينية فى حالة فوضى عارمة، وفى جانبها الأعظم ليس لها حول ولا قوة، حتى بالنسبة لمواطنيها. ولكن الساعة المكسورة، تشير إلى الوقت الصحيح مرتين كل يوم أى يموت الزمار وأصابعه ما زالت تلعب، فإذا تعرض أحد مصادرى للسجن أو التعذيب ثمنًا لشعورى بالسعادة وأنا أشكر الآخرين، فتلك إذن قسمة ضيزى. وعلى ذلك، دون ذكر الأسماء، أشكرهم جميعًا الآن، لكرمهم وثقتهم فىَّ. ومنزلى مفتوح لهم على الدوام، حيث أناديهم بأسمائهم.

وعلى ذلك، بناءً على هذه القواعد الأساسية القائمة على القواعد الراسخة، أعرب عن امتنانى للمساعدة وتوفير سبل الراحة وتقديم النصيحة والمشورة والصداقة وتجاذب أطراف الحديث والضحك والغضب الصادق والكرم الوافر والمليون فنجان قهوة والكثير من الطعام والكثير من التقديم والتوصيلات والتوجيهات المستمرة وفوق كل ذلك، المعلومات القيمة من يوسف وصفاء أبو حامد، ويوسى وتامى أهارون، وموتى أهارونوف، ومائير آميت، وجانيت أفياد، والبروفيسور شلومو أفينيرى، وبرنى أفيشاى، وسيدرا إزراشى، ويورى أفنيرى، ويتسهار بئير، وكين بود، وشريف برعى، ودكتور آفى بيجلمان وزوجته، ورون بن يشاى، ويوسى برنسون، وشبطاى بيلو، وزائيف برجر (حاخامى الصهيونى)، وإيلى بيتون، وجارى برنر، والبروفيسور مناحم برينكر، وعضو الكنيست رومان برونفمان، والبروفيسور آمنون بريزينسكى، وشمولى كالديرون، وزيف شافتس،

ويورى كوهين، ومحمد دراوشة، والبروفيسور دانييل دور، وإينات أيزنمان، ورامى ونوريت بيليد الخنان، وعضو الكنيست جيدون عزرا، وستيف فرانكلين، وأنشيل فريدمان، والحاخام مناحم فرومان، وإريك فيسفيلد، وآموس وريفكا جيتاى، وآبى شيختر جورال، وهيليل جورال، وإيتان هابر، وميكى هادار، وإلياكيم هاتسينى، ورفيق حلبى، وجوش هامر، وألوف هارفين، ورينا هاريسون، وبيتر هيرمان، والبروفيسور آرييل هيرشفيلد، وإلياس جبور، وسمادار هاران كيزر وياكوف كيزر، وسيد قشوع، ويوفال كاتس، ودكتورة آنا كاتسكوفا، وديف كين، ودكتور إيلان وسو كيتس وإسحق لاءور، ونصر محاميد، ولطفى وفيدا مشهور، والكولونيل بينى ماتيف وزوجته ، ودان مريدور، ويهودا ميشى زاحاف، وأديسو ميسيلى، وسامى وراشيل ميخائيل، وداليا ميستاشكى، والبروفيسور آرى ناعور، وليورا نير، دانييل أوكيف، وآمير أورين، والبروفيسور مائير باعيل، وياكوف بيرى، وسيفير بلوتسكير، وج. جيفرسون برايس الثالث، ودوف بودر، ورايكو بوناماكى، والبريجيدير إسحق بونداك، وهاجيت رعنان، وراشيل رابين ياكوب، وتاليا هاريس رام، وعضو الكنيست موشى راز، ودانى روبنشتين، وروبرت روبى، وإيدى ساباج، وديفيد شختر، وبى بى شختر، ودانييل سيمان، وجيليد شير، والبروفيسور إيتان شيلونى، والأب إيميل شوفانى، وحاييم شور، ويشاى ومازال شوستر، والبروفيسور آرنون سوفر، وإليشع شبيجلمان، والبروفيسور رمزى سليمان، وبيل تونيلى، وراشيل فينبرج، والعمدة دانيلا فايس، وإسحق زاك، وبيت زيلفرشميدت، ودونالد وليندا زيسكويت.

إننى لم أكن أستطيع الوصول إلى معظم أولئك الأفراد ولا فهم ما قالوه لى دون مساعدة بعض الباحثين رفيعى المستوى، والمساعدين والمترجمين. لقد كانوا شركاء ورفقاء فى هذا المشروع. ومن منطلق الصداقة، لن أنسى أبدًا مترجمى الأول منذ خمسة وعشرين عامًا جيديون جيتاى، الذى ترك حياته الجديدة كصانع أفلام فى فنلندا وعاد إلى إسرائيل لمساعدتى. إن كلاً من هذا الكتاب وتجربة التعلم الخاصة به قد أثرى من خلال مجهود وعطايا ميشيل جرين. أما أحمد المسحال فقد أبقانى بعيدًا عن المتاعب فى الضفة الغربية. ومنح صفوت

دياب مغامراتى فى غزة الشجاعة والعبقرية. وساعدنى كل من آيليت تامارى وديفيد ميرون ببراعة وسخاء بقدر ما سمحت ارتباطاتهما.

وفى ذلك الخصوص، قامت إحدى السيدات بإعداد جدولى وأخضعت جدولها لاحتياجاتى وفضلتها على الكثير من شئون حياتها. لقد عملت السيدة بونى بريزينسكى، من البداية للنهاية، باحثة رئيسية، وباحثة عن المصادر ومديرة للمشروع فى إسرائيل. وبدونها، لانهار هذا الجهد. ومع وجودها، لم يفقد روحه المرحة. وبهذا الخصوص، موضوع المرح هذا، أصبحت سيدتان صديقتين عظيمتين لى وراعيتين لهذا الكتاب، وهما ديبورا هاريس وباتيا جور اللتان ساعدتانى وأضحكتانى بكل طريقة ممكنة. لقد أضفيا المرح والفكاهة على أيامى وأمسياتى. ولمدة شهور، أعارتانى أيضًا صديقتهما العظيمة، بونى. هناك راعٍ آخر لهذا الكتاب وهو العبقرى شيمون ياكيرا الذى قام، كعادته دائمًا، بتذليل كل المصاعب والعقبات لمساعدتى على الاستفادة مما تعلمته. إنه أبى الروحى الذى أدين له بالفضل. كما أوجه تحية حارة إلى أرجنتينا بريتفار التى لفتت نظرى إلى روعة الحياة فى تل أبيب. وبعد مرور خمسة وعشرين عامًا، مازالت توجهنى إلى ما هو حقيقى. وما كنت لأدرك كيف أضع هذا الكتاب بدونها.

كما أن هذا الكتاب كان يمكن أن يكون فقط منشورًا ضئيلاً بدون ذلك الكم من الوقائع الذى أخذته من الصحافة. فالصحف فى إسرائيل والمراسلون الذين يعملون فيها يمثلون أمرًا فائق الروعة. كنت أقرأ هاآرتس وجيروزاليم بوست، متى استطعت، وقرئ لى بواسطة المترجمين قصص من معاريف ويديعوت أحرونوت. كما حاولت أيضًا ألا تفوتنى جيروزاليم ريبورت، كما انتقيت عينات على نحو غير دقيق ولكنه موسع من عرض النيويورك للكتب، الذى يتميز بالرؤية الثاقبة، وكذلك مجموعة من مجلة الحداسا اللامعة والمصقولة والمبوبة على نحو يثير الدهشة. كما أفدت كثيرًا من صوت إسرائيل وإذاعة الجيش الإسرائيلى وإذاعة البى بى سى العالمية، وكذلك القنوات الأولى والثانية والعاشرة فى التليفزيون الإسرائيلى، وكذلك التليفزيون الأردنى، وقناتى الجزيرة والعربية. كما تعلمت من قصص زملاء المهنة فى نيوزويك ولوس أنجلوس تايمز وبالتيمور صان وفيلادلفيا

إنكويرر وكريستيان ساينس مونيتور وواشنطن بوست ونيويورك تايمز وخاصة أعمال جيمس بينيت. كما ذهبت إلى مدرسة الصحف البريطانية وخاصة بعض القصص الجديدة لجوناثان ستيل فى الجارديان، وروبرت فيسك فى الإندبندنت. بالإضافة إلى ذلك، أفدت إفادة عظيمة من المقالات المنشورة على مواقع الإنترنت الخاصة بمنظمة العفو الدولية وهيومان رايتس ووتش والبنك الدولى وصندوق النقد الدولى، وكذلك التقرير الفلسطينى من جيروزاليم ميديا ومركز الاتصالات، والانتفاضة الالكترونية. وميفتا وبتسليم والسلام الآن وجوش شالوم، وكذلك تقرير واشنطون عن شئون الشرق الأوسط ومؤسسة سلام الشرق الأوسط. وفيما يتصل بالموقف فى الأراضى المحتلة، أخص بالذكر ثلاثة مصادر متميزة وهى مختلفة تمامًا عن بعضها البعض، ولكنها جميعًا أصيلة وقيمة: الأول هو الأعمال الأنثروبولوجية للبروفيسور شريف كناعنة. جامعة بير زيت، والثانى هو بحوث وتفسير الرأى العام بواسطة الدكتور خليل الشقاقى، بالمركز الفلسطينى للبحوث السياسية والمسحية، والثالث هو التحليل الاقتصادى الدقيق بواسطة سارا روى، بجامعة هارفارد.

كما أفدت من عدد من الكتب، بعضها من أجل المعلومات، وبعضها من أجل البهجة. وقد أوردتها هنا تبعًا لأسماء مؤلفيها:

محمود عباس أبو مازن ، عبر القنوات السرية: الطريق إلى أوسلو (جارنت للنشر، ١٩٩٥).

كما أفدت من عدد من الكتب ، بعضها من أجل المعلومات، وبعضها من أجل البهجة. وقد أوردتها هنا تبعًا لأسماء مؤلفيها:

MahmoudAbbas (AMazen), Through Secret Channels: The Road to: Oslo (Garnet Publishing, 1995).

Yigal Allon, My Father's House: Israel's Foreign Minister Looks Back at the Heroic People, Heroic Country of His Youth (W.W. Norton, 1976).

Hannah Arendt, Eichmann in Jerusalem: A Report on the Banality of Evil (Penguin, 1994).

Hanan Ashrawi, This Side of Peace (Simon & Schuster, 1995).
Roane Carey, ed., The New Intifada: Resisting Israel's Apartheid (Verso, 2001).
Jimmy Carter, The Blood of Abraham: Insights into the Middle East (Houghton Mifflin, 1986).
Zev Chafets, Heroes and Hustlers, Hard Hats and Holy Men: Inside the New Israel (William Morrow, 1986).
Noam Chomsky, Fateful Triangle: The United States, Israel & the Palestinians (south End Press, 1999).
Daniel Dor, Intifada Hits the Headlines: How the Israeli Press Misreported the Outbreak of the Second Palestinian Uprising (Indiana University Press, 2003).
Noah J. Efron, Real Jews: Secular vs. Ultra-Orthodox and the Struggle for Jewish Identity in Israel (Basic Books, 2003).
Amos Elon, The Israelis: Founders and Sons (Holt, Rinehart and Winston, 1971).
_______, A Blood-Dimmed Tide: Dispatches from the Middle East (Columbia University Press, 1997).
_______, Flight into Egypt (pinnacle Books, 1981).
_______, Herzl (Holt, Rinehart and Winston, 1975).
Yaron Ezrahi, Rubber Bullets: Power and Conscience in Modern Israel (Farrar, Straus and Giroux, 1996).
Norman Finkelstein, Image and Reality of the Israel-Palestine Conflict (Verso, 1995).
David Fromkin, A Peace to End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East (Henry Holt & Co., 1989).
David Grossman, Death as a Way of Life: Israel Ten Years After Oslo (Farrar, Straus and Giroux, 2003).

———, The Yellow Wind (Farrar, Straus and Giroux, 2002).
———, Sleeping on a Wire: Conversations With Palestinians in Israel (Farrar, Straus and Giroux, 2003).
Joshua Hammer, A Season in Bethlehem: Unholy War in a Sacred Place (Free Press, 2003).
David Hare, Via Dolorosa ? When Shall We Live (Faber and Faber, 1998).

Dilip Hiro, Sharing the Promised Land: A Tale of the Israelis and Palestinians (Olive Branch Press, 1999).

David Phillip Horovitz, A Little Too Close to God: The Thrills and Panic of a Life in Israel (Alfred A. Knopf, 2000).

Albert Hourani, A History of the Arab Peoples (Harvard University Press, 1991).

Baruch Kimmerling and Joel S. Migdal, The Palestinian People: A History (Harvard University Press, 2003).

Walter Liqueur, A History of Zionism (Holt, Rinehart and Winston, 1972).

Walter Laqueur and Barry Rubin, eds., The Israel-Arab Reader: A Documentary history of the middle East Conflict, sixth edition (Penguin, 2001).

Paul A. Mendes-Flohr, A Land of Two Peoples: Martin Buber on Jews and Arabs (Oxford University Press, 1983).

Benny Morris, Righteous Victims: A History of the Zionist-Arab Conflict, 1881-2001 (Vintage books, 2001).
———, The Birth of the Palestinian Refugee Problem, 1947-1949 (Cambridge University Press, 1987).

Michael Oren, Six Days of War: June 1967 and the Making of the Modern Middle East (Oxford University Press, 2002).

Amos Oz, In the Land of Israel. Translated by Maurie Goldberg-Bartura (Harcourt Brace & Company, 1993).
Sara Roy, The Gaza Strip: The Political Economy of Development (Institute for Palestine Studies, Washington, D.C., 1993).
Sara Roy, The Gaza Strip: The Political Economy of Development (Institute for Palestine Studies, Washington, D.C., 1995).
Danny Rubinstein, The Mystery of Arafat (Steerforth Press, 1995).
Joe Sacco, Palestine (Jonathan Cape, 2003).
Edward Said, The Politics of Dispossession: The Struggle for Palestinian Self-Determination, 1969-1994 (Vintage Books, 1995).
_______, The End of the peace Process: Oslo and After (Vintage Books, 2001).
_______, The Question of Palestine (Vintage Books, 1992).
_______, Out of Place: A Memoir (Alfred A. Knopf, 2000).
_______, Peace and Its Discontents: Essays on Palestine in the Middle East Peace Process (Vintage Books, 1996).
Tom Segev, 1949: The First Israelis (Henry Holt & Co., 1998).
_______, One Palestine, Complete: Jews and Arabs Under the British Mandate (Little, Brown, 2002).
_______, The Seventh Million: The Israelis and the Holocaust (Henry Holt & Co., 1991).
Irwin Shaw and Frank Capa, Report on Israel (Simon and Schuster, 1950).
Raja Shehadeh, Strangers in the House: Coming of Age in Occupied Palestine (Steerforth Press, 2002).

راودنى حلم وضع هذا الكتاب فى مطعم بائس فى الشارع السابع والأربعين، بمدينة نيويورك، حيث اصطحبنى ناشر كتبى، ديفيد روزنثال، لتناول طعام الغداء. وليس من قبيل المصادفة أن الرجل الذى نشر هذا العمل هو الناشر الوحيد العظيم فى نيويورك الذى يمكنه أن يحيل الغداء الرسمى للمؤلف إلى وجبتى هوت دوج من النوع الحلال طبقًا للشريعة اليهودية. وفى الحالتين، كانت كلمة السر هى "إذا لم تستح فافعل ما شئت"، وأنا أشكره على ذلك، كما أشكره على إعادتى إلى الشرق الأوسط.

فى سيمون وشوستر، حيث يدير مملكته، قدمت لى المساعدة والدعم بواسطة مساعدتى هذا الرجل العظيم، مليسا بوسيك وولتر فينتس، وأقصر مساعدة فى عالم الأعمال، أليس مايهيو. ورئيسة الجميع كارولين ريدى. كما أفدت من الأعمال النموذجية للمدير الفنى جاكى سيو، ومديرة التحرير إرين خيرادى، ومدير الإنتاج جون ويلر، والمستشارة الرئيسية إليسا ريفيلين، ومديرة قسم المبيعات لارى نورتون، والمدير التنفيذى للتسويق مايكل سليك. كما أثبتت فيكتوريا ماير، مديرة الدعاية التنفيذية الرائعة مرة أخرى أنها أفضل قارئة فى نيويورك. أما ألين بويل، مديرة الدعاية، فقد منحتنا الرعاية والمشورة. وقد منحتانى شرف العمل مع راشيل ناجلر. وقد نجوت من الكثير من الخطايا من خلال العمل مع محرر النسخ، ترنت دوفى، ونجوت من التمادى فى ذلك من خلال العمل مع مساعدته جيبسى دا سيلفا. وقد قالت محررتى الرشيقة والسريعة روث فسيش: هذا الكتاب حلو الشمائل.

أما وكيلتى ومستشارتى ومديرة أعمالى مع العالم الخارجى، فليب بروفى، فكانت كما عهدتها دائمًا أفضل صديقة لى ولهذا الكتاب. والواقع أنها شاركت فى صناعته من خلال احتيالها لتوفر لى دعوة إلى معرض القدس للكتاب عام ٢٠٠١ الأمر الذى جعلنى أفكر فى المكان مرة أخرى. إنها، كما قال أنور السادات، شريك كامل.

أما صديقتى الحميمة جوان سميث، فقد أخذت هذا الكتاب إلى قلبها وأصبح سلاحها السرى. لقد بدأت بمعلومات قارئة صحف عادية ثم أصبحت

علامة فى شئون الشرق الأوسط. ويومًا بعد يوم، وكل يوم، كانت تقوم بتجميع الوقائع والآراء من أجلى، والأسى من أجلى أو الابتهاج. وكانت تحمسنى دائمًا وتوجد لى أى شىء أكون فى حاجة إليه. لقد كتبته من أجلها.

أما ابنتى روبى، فقد أعادت إلىَّ الحياة الحقيقية، حينما كان هذا الكتاب على وشك أن يصبح حياتى. إنها فى الثالثة عشرة من العمر حلوة الروح ومدهشة. وكما اعتدت دائمًا، كنت أقص عليها قصصى، وعندما أرى أنها أدركتها، أعرف إننى أدركتها. لقد ساعدتنى بدرجة عظيمة، وكل ظمئى للسلام من أجلها. وعلى ذلك، أهدى لها هذا الكتاب.

المؤلف فى سطور:

ريتشارد بن كرامر

كاتب وصحفى أمريكى يهودى ولد عام ١٩٥٠؛ نشأ فى مدينة روشستر بنيويورك، تخرج فى جامعة جون هوبكينز حيث حصل على ليسانس فى الآداب، ثم حصل بعد ذلك على درجة الماجستير من جامعة كولومبيا. عمل صحفيا فى العديد من الصحف الشهيرة مثل فيلادلفيا إنكويرر وبالتيمور صان وإسكوير مجازين وورولينج ستون. حصل على جائزة بوليتزر فى المراسلات الصحفية الدولية عام ١٩٧٩وذلك عن تقاريره الصحفية من منطقة الشرق الأوسط. توج مجهوداته الصحفية بكتاب "ما الذى يتطلبه الأمر: الطريق إلى البيت الأبيض" عام ١٩٨٨ الذى يتناول الانتخابات الرئاسية الأمريكية، ويُعدُّ من الأعمال الأصيلة التى تتصدى لموضوع سياسة الانتخابات الأمريكية. وكان كتابه "جو ديماجو: حياة بطل" الذى صدر عام ٢٠٠٠ من أكثر الكتب مبيعًا فى النيويورك تايمز.

المترجم فى سطور:

ناصر محمد عفيفى

ـ ولد فى ١٩٥٨/١٢/٩

ـ المؤهلات: بكالوريوس علوم ـ جامعة القاهرة ١٩٨٢.

ـ ماجستير بحوث وعلوم بيئية ـ جامعة عين شمس.

ـ عمل صحفيا بجريدة الجزيرة السعودية من ٢٠٠١ حتى ٢٠٠٣.

ـ يعمل حاليًا ضابط مراقبة جوية بمطار القاهرة.

● صدرت له كتب مترجمة عن الإنجليزية، من أهمها:

ـ «الحائط الحديدى بين العرب وإسرائيل» (٢٠٠٠) ـ روز اليوسف.

ـ «الأصولية اليهودية فى إسرائيل» (٢٠٠١) ـ روز اليوسف.

ـ «الحادى عشر من سبتمبر وأبعاد المؤامرة» (٢٠٠٥) ـ روز اليوسف.

ـ «التحالف ضد بابل» (٢٠٠٦) ـ مكتبة الشروق الدولية. ورشح عنه لجائزة الشيخ زايد للكتاب ـ فرع الترجمة عام ٢٠٠٨.

بريد إلكترونى: nasser4@hotmail.com